جوزيف جاسترو

الأحلام والجنس

نظرياتها عند فرويد

الجزء الثاني

ترجمة

فوزي الشتوي

مراجعة

أمين مرسي قنديل

الكتاب: الأحلام والجنس.. نظرياتها عند فرويد (الجزء الثاني)

الكاتب: جوزيف جاسترو

ترجمة: فوزي الشتوي

مراجعة: أمين مرسي قنديل

الطبعة: ٢٠٢٠

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)



٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

E-mail: news@apatop.comhttp://www.apatop.com

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

جاسترو ، جوزيف

الأحلام والجنس.. نظرياتها عند فرويد (الجزء الثاني)/جوزيف جاسترو،

ترجمة: فوزي الشتوي، مراجعة: أمين مرسي قنديل

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

٢١١ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولي: ٧ – ٨٢ – ٦٧٧٤ –٩٧٧ –٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع : ٥٠٠٧ / ٢٠٢٠

الأحلام والجنس
نظرياتها عند فرويد



هذه ترجمة كتاب

FREUD

His Dreams Sex Theories

THE HOUSE THAT FREUD BUILT

JOSEPH JASTROW

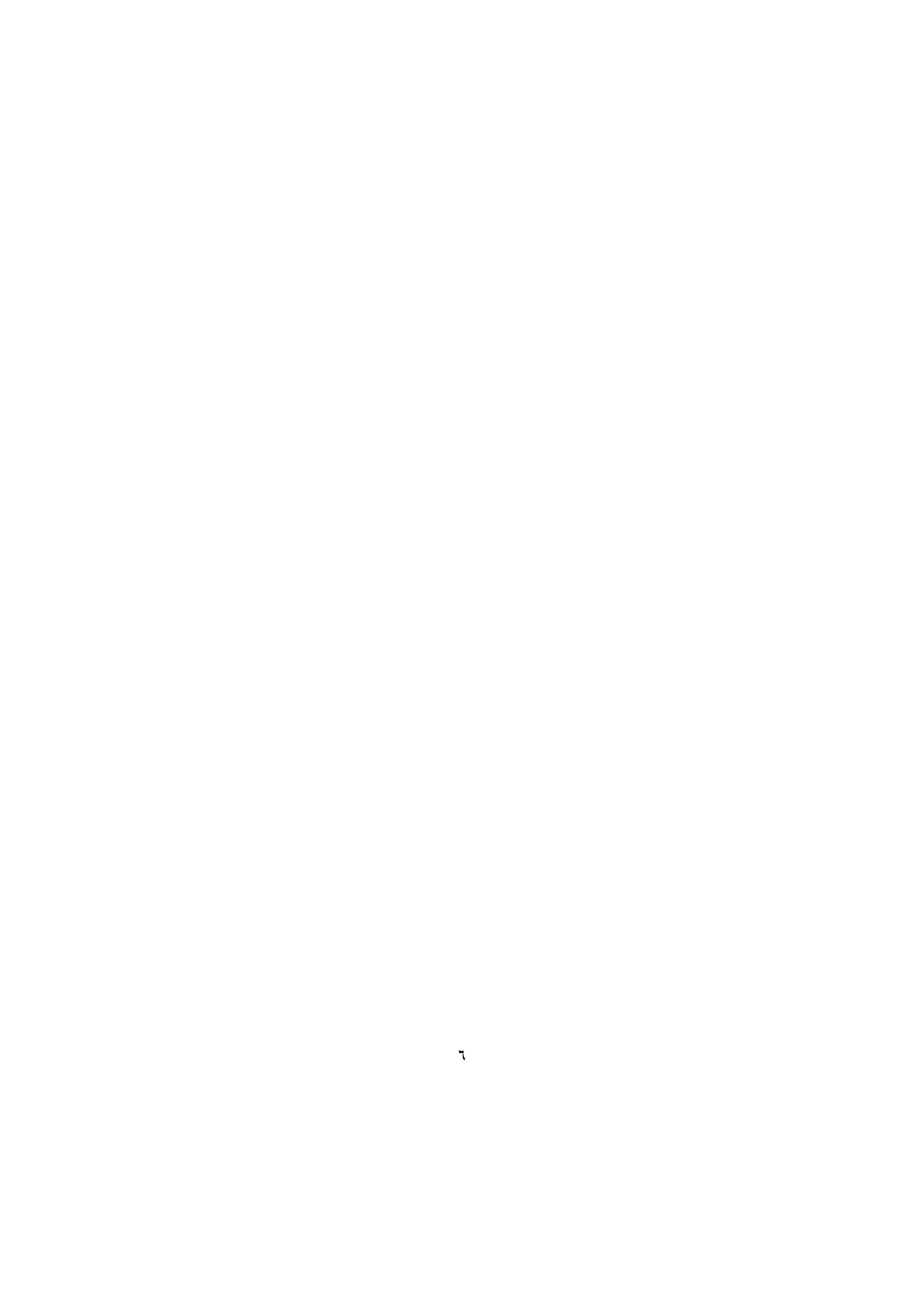
التعريف بجوزيف جاسترو

جوزيف جاسترو _مؤلف هذا الكتاب_ من النفسيين الممتازين الذين ظفروا بتقدير الهيئات العلمية النفسية في أمريكا قد ولد في مدينة وارسو ببولندا في ٣٠ يناير من عام ١٨٦٣، أي أنه كان أصغر من "فرويد" بنحو سبع سنوات، وتلقى تعليمه في أمريكا، فظفر حتى عام ١٨٨٦ بدرجة الدكتوراه من جامعتين من أهم جامعاتها، وعين أستاذاً لعلم النفس بجامعة "هوبكنز" فشغل هذا المنصب نحو أربعين عاماً، وقد ألف عدة كتب في علم النفس، تناول فيها "تحت الشعور" وصفات الإنسان، وخلقه، والعقلية، والتفكير.

وتوفي جوزيف جاسترو في ١٨ يناير عام ١٩٤٤، فكان كتابه "الأحلام والجنس ونظرياتها عند فرويد" من أهم الكتب التي صنفها.

وقد صدر في مايو ١٩٣٢، فكان عنوانه الأول "البيت الذي بناه فرويد".

المترجم



مقدمة المؤلف

كان الجزء الأول من هذا الكتاب تمهيداً لنقد نظام شامخ هدفه فهم النفس البشرية من حيث طبيعتها وتصرفاتها، فعرضنا أجزاء البناء وتصميمه وتكوين البيت كما أقامه فرويد، ولا ريب أن فرويد قد ظفر بمركز مضمون بين عظماء المفكرين في طبائع النفس البشرية ممن تجاوزت أطماعهم أو معتقداتهمما أدوه من أعمال. ولعل هذا المركز يجمع بين التكريم والرثاء لما لقيه من لوم وتقريع مما يحل عادة بالأبطال في أي عمل. فإن كانت مجموعته التي ينضم إليها في مجال المجد والشهرة هي جماعة الفلاسفة، فهو أول من انضم إليها عن طريق فتح عهد جديد في علم النفس.

وقد حاولت أني أقدم نظامه من وجهة موضوعية، متوخياً الحياد ما أمكن. ولكني تجاوزت عن هذه السياسة لأوفر الراحة للقارئ، فقدمت أيضا الفكرة الانتقادية لأتيح له تقدير النص، والتعقيب عليه في نظرة واحدة. وهدفي من البداية انتقادي. وكتبت وأنا متأكد بأن أزمة عن مصير الفرويدية قريبة الحدوث والآن فإني أنتقل إلى موضوع النقد نفسه، وبما أن التحليل النفسي قد عرض كعلم، فمن الواجبات الأولية أن نختبر مدى تحمله للمقاييس العلمية.

وفي مثل هذا البناء المعقد يتساوى التنفيذ مع التصميم، فكلاهما جوهري ضروري. وأية قضية تكسب أو تُخسر بما يؤيدها، وكذلك بطريقة

عرض مبادئها، والتحليل النفسي فن، والمحلل هو من يمارسه. والنقد يبدأ بعرض المبدأ، إلى البرهان، إلى التطبيق. فإلى أين يتجه التحليل النفسي؟ ذلك هو السؤال الختامي. وعندما يواجه الناقد فرويد وكل مؤلفاته، فإنه يجابه مركزاً خاصا إذ يجد في نفسه ميلاً إلى موافقة جزئية متحفظة حيال المبدأ، وعدم ثقة متغلغل حيال التطبيق والتنفيذ. فهو لا يستطيع مدح عظمة وهم ضخم، وهو في الوقت نفسه غير قادر على الحكم عليه حكما قاضيا. أن هو قدر ما في المغامرة من محاسن في معناها ومبناها. وكلا الموقفين يحتاج إلى صراحة وإخلاص. ويتطلب أقيسة مميِّزة، وأحكاما حاسمة. والحكم حاسم عند جمهور الناقدين، أما الآن فهو بين يدي القارئ..

الباب السادس

التحليل النفسي والعلم
المنطق كرقيب

أدعو القارئ إلى فحص منطقي للبيت الذي أقامه فرويد بحماسة صحبته طول حياته، وأظهر فيه قدرة ابتكارية نادرة، وبراعة ممتازة في التطبيق؛ وهما صفتان رائعتان تعاونتا على إثارة اهتمام الناس اهتماماً عظيماً بما قدمه من بحوث، ولكنهما كانتا ضعيفتي الأثر في الحكم الأخير الفاصل، وهو مدى قدرة متانة بنية الصرح على اجتياز الاختبار الهندسي بنجاح. ولن تكون رحلتنا حبا في تمضية وقت فراغ من يوم عطلة، بل هي مهمة دقيقة، ولا غنى عنها، أن أردنا تقدير مجموعة الآراء الشاملة التي أثر بها فرويد تأثيراً عميقاً في عالم العقل الذي نعيش فيه.

ولولا حقائق ثابتة كقوانين الجاذبية، وأنواع الضغط، والأثقال، والصفات الثابتة للخشب والآجر والحجارة والفولاذ وتأثير الرياح والجو، لولا هذه الحقائق لكان فن العمارة شيئا عرضياً. ولهواً يتسلى به الناس. وتواجه المنشآت الذهنية مثل هذه الشروط القاسية من حيث قوانين المنطق سواء أكانت مكتوبة أم غير مكتوبة. وهذه المنشآت الذهنية تتقرر أيضا لمواد بناء التفكير.

فالمنطق يتحكم في أنواع المباني التي أقامتها العقول. ويُعد معونة

أولية، ودعامة لمزيد من عمليات التفكير؛ وهو يفحص النتائج، ويختبر في دقة مقاييس الأدلة ومدى صلاحية النتائج. وهو أعمى حيال المغريات التمثيلية، وأصم إذا ما واجه تعبيرات رائعة بالغة الجمال. والمنطق رقيب أيضاً، وأن تكن رقابته من مرتبة أخرى تخالف الرقيب الفرويدي، رغم أن كلا منهما يحرس "مبدأ الواقعية" ويحرص على رؤية الأشياء كما هي في الواقع.

وإذا ما تخلصنا من القيود، بنينا قصوراً في الهواء، أو في أرض خيالية، وأضفينا عليها مثل الكمال لحظة من الزمان. وإذا تهاونا في ولائنا للمنطق، فإننا ننغمر في تأملات تتجاوز نطاق التفكير الاستدلالي المعترف به، ولسنا في حاجة إلى الترخيص لإقامة المنشآت الذهنية، فإن الحكم يصدر عليها بعد بنائها. فهل يستطيع التحليل النفسي أن يجتاز امتحان الرقابة المنطقية بنجاح؟ هذا هو السؤال.

والتفكير المنطقي لا يخضع في سهولة للرغبة. وعندما نقيم النظريات على أسس من الحقيقة، فإننا نجد في كل خطوة واتجاه مجالا لتدخل خبيث ماكر يعمل لفرض التفسيرات المفضلة عندنا، ويعمل للعثور على ما نبحث عنه، ويعمل على تفسير "البيانات" تفسيراً يطابق النظريات وينسجم معها. وهذا الإغراء ينطبق بصفة خاصة على أنواع المنشآت الشبيهة بالتحليل النفسي. حيث لا مفر فيه من أن يؤثر التحيز العقلي والنتائجبعضها في بعض، ولعله من الخير أن يذكر النفسيون عبارة بيكن (Bacon) الخالدة، وهي أن الطبيعة أوسع حيلة وأكثر دهاء من

الحجة والبرهان.

والرقابة المنطقية الصارمة تبعد التحليل النفسي من دائرة العلوم. وهذا هو الجانب الذي لزمه "دنلاب" (Dunlap) في كتابه "الروحانية، والفرويدية، وعلم النفس العلمي"[1]. وقد أصدر حكمه في غير تحفظ؛ فالفرويدية في إغرائها وطريقتها ونتائجها، تعد نوعا من الروحانية، وتستمد شيوعها، ومكانها اللائق بها على أرفف المكتبات، حيث تنسجم في تلاؤم كامل مع علم الفراسة "والفكر الجديد"، و"تحضير الأرواح"، ونظم السفسطة الخاصة بقراءة الخلق، وذلك بسبب تلهفها الملح على إيجاد حلول "درامية" مؤثرة للمشكلات البشرية. ولا أستطيع قبول الحكم المسرف الذي يعتبرمطالبة الفرويدية للاعتراف بها كعلم طلبا يمكن تجاهله؛ فإني أؤمن بأنه من الأفضل أن نهذب المنطق ونلطف من قسوته ليتلاءم مع أنواع النقص في علم النفس. وبهذا نستطيع أن نقدم منطق بني جديد إلى ساحة التقدير عندما يتيح لنا الحكم على هذا الموضوع المعقد، حكما أكثر تسامحاً.

والواقع أن سفسطة الفرودية متشعبة، وأن عدوانها على الذوق السليم والمنطق السديد متعدد وفاضح، ولكن النية العلمية لم تفارقها، فبحث فرويد امتداد شرعي لدراسات النفسيين، ومحاولاتهم لفهم الطبيعة البشرية. وقد سلموا بأن علاجه "العيادي" تشخيص فعال لحالات العصاب وتخفيف حدتها، فإن كان قد أخطأ في عملية البناء، وصار

---

(1) "Mysticism.Freudianism and Scientific Psychology".

واحداً من "بناة الأوهام" كما سماه "وارد" (Ward) وأن كانت مكانته "بين المسحاء الكذبة" كما وضعه "جيليس" (Gillis)، فإن خطأه لم ينشأ عن لوثة مرض البرنويا، ولا عن ثقته بنفسه ثقة نبي أو مسيح. وإذا كان قد استمر في مشروعه في خفة حتى ضلل الآخرين وخدع نفسه بالوهم، فإن الزلة الكبرى هي سوء تقدير منطقي من طراز آخر.

وفي المسألة الفرويدية نواجه اعتبارين جوهرين، إلى أي مدى يُعد تصميم البيت الذي أقامه فرويد علميا؛ وهو الاعتبار الأول؛ وإلى أي مدى أقامه على الطريقة العلمية، وهو اعتبار آخر. وعندما تنبأ وطسون "Watson"، السلوكي بأن كل من سيستخدم وسائل التحليل النفسي أو ألفاظه سيعد في القريب العاجل من أنصار وسائل علم الفراسة، فإني خالفته في يقين، لأن الخطأ في برنامج علم الفراسة نشأ عن سوء فهم كامل للعلاقة بين الجسم والعقل. وعندما أعلن "جال" Gall ادعاءه بأنه اكتشف نظاما نفسيا كاملا للرأس والمخ بغية كشف مغلقاتهما، فإن عماده كان أدلة واهية لا يقبلها العقل.

وهكذا كان إغراء فكرة خاطئة سبباً في تحول عالم بأرع في التشريح إلى باحث نفسي سخيف غير معقول، فإن حلوله للرموز كانت خاطئة، كما كان علم نفس تلك الأيام فجا، ومثله في ذلك المعلومات الشائعة عن التشريح. وربما كان فرويد متطرفا في عمله ومتمسكا بعقيدته في تأييد موضوعه كما كان "جال" في تأييده لفكرته؛ ولكن مبادئ الحلين من حيث الوصول إلى أسباب السلوك البشري ووسائله كانت

مختلفة كل الاختلاف. ومع أن الباحثين كانا منفصلين بقرن من الزمان، فإن الخلاف المنطقي بينهما يقدر بعدة قرون.

وإذا ما بحثنا عن أشباه ونظائر، لوجدنا "مسمر" Mesmer معاصر "جال" بنظريته عن المغناطيسية الحيوانية، وما تحققه من شفاء للأمراض، فنجد نظاما روحانيا ليس له من أي سند مادي. وللدفاع عنه واستخدامه اشترك من هو نظري وطبيب ودجال في وقت واحد؛ ورغم هذا الإقحام غير العلمي، فإن ظواهر "المغناطيسية" لم تحرم من حقيقتها، بل كانت ملاحظات "مسمر" العيادية في بعض اعتباراتها أقرب إلى الحق من بيانات المنكرين الأكاديمية. وقد أثارت هذه الملاحظات اهتمام أدى إلى اكتشاف التنويم المغناطيسي. وهذا بدوره أدى إلى الاعتراف بالإيحاء وأعمال العقل اللاشعورية. وفي هذه الأجهزة النفسية بالذات، وهي أجهزة معترف بها الآن، واصل فرويد البحث العلمي، ووجد مفاتيح تفسيراته.

والقضية الفرويدية لا يمكن قذفها خارج المحكمة، فإن هذا العمل إجحاف بفرويد، كما أنه ليس من الحكمة بالنسبة لعلم النفس. وإذا ما سألنا عن الخطأ فيما قدمه فرويد، فيجب أن نمنحه نفس النية العلمية التي ظفر بها أنصار المدارس النفسية المختلفة التي لا نوافق على آرائها لأسباب أخرى. ولو لم يكن التحليل النفسي جديراً بالاعتراف العلمي لما وضع هذا الكتاب.

والعلومالطبيعية والعقلية تتساوى في ولائها للمنطق، ولكنها تختلف

في طريق تحقيقها لالتزاماتها حياله. ومن ثم فإن ادعاءات التحليل النفسي يجب أن تقدر بشيء من التسامح، فإن صدق مبادئه لن يتأيد بأدلة رياضية حاسمة. وسيكون مدى قبولها من النفسيين وأطباء النفس الانتقاديين بسبب تلاؤمها مع مجموعة كبيرة، وأن تكن غير منتظمة من الخبرة والتجربة، وبسبب ما تجده من تأييد في الأسس البيولوجية، ولأنها قابلة للتطبيق على الحالات العيادية كما تطبق على تحليلات الخلق في نطاق السلوك السوي. وهذه المبادئ سترفض أيضاً بسبب قصورها في هذه الاعتبارات، فإن قلة اهتمام فرويد بالمبادئ المنطقية من سوء حظ التحليل النفسي، ولكنها لا يجوز أن تحط من قدر البناء كله.

الإنسان الفرويدي

قدمنا (في الجزء الأول) كيف اكتشف فرويد أو كون "إنسان التحليل النفسي". وننتقل الآن إلى فحص طبيعة ذلك المخلوق، لا كما يظهر مجسما من المحراب العيادي، بل وفقاً لما ظفرت به البصيرة هناك من توجيهات لإعادة بناء الإنسان عامة. وبما أنني كهذا الإنسان، فإنني قد أتساءل بطريقة عملية شخصية، إلى أي مدى تحسن فهمي لنفسي من حيث أنا مخلوق، أو لزملائي الآخرين كنتيجة لما أمضيته من الساعات الطويلة، وما بذلته من الجهد العقلي في قراءة فرويد والفرويديين، أو حتى إذا حللت نفسي تحليلا نفسياً؟

وبما أنني من فئة معينة من فئات الإنسان، ويطلقون عليها اسم النفسيين، فإنه يهمني أن أجعل الفرويديين على صلة بالمذاهب النفسية

الأخرى في تكوين المواقف الأساسية التي أدت إلى وجهة النظر الفرويدية عن الإنسان بكل ما فيه من متناقضات. وعندما أوجه هذه الأسئلة، فإنني لا أنسى مجموعة الأسئلة التالية، وهي: إلى أي مدى يعد الإنسان الفرويدي أصيلا، وإلى أي مدى هو مصطنع، أو مصاب بالُعصاب، وإلى أي مدى هو وصمة وسبة؟.

ولكن وأولا: من أي شيء صنع هذا الإنسان سواء أكان حقيقياً أم مزعوما؟.

وبكل اختصار أواجه ثلاثة مدركات ترشدني: وأولها هو الإنسان اللاشعوري Subconscious Homo فإن علم النفس وصل إلى نتيجة اعترف فيها بأنه أيا كانت دراسة الحياة العقلية الشاملة المستنيرة التي تظهر في التفكير الشعوري، ومهما ساعدناها بشتى وسائل التنقيب، فإنه لن يتيسر الكشف عن الإنسان الباطني الكامل، فإن هذه الدراسة تحتاج إلى تضمين اللاشعور. والواقع أنها تحتاج إلى توجيه كثير من الاهتمام إليه. وبالانضواء تحت لواء هذا المبدأ فأني– إلى هذا الحد– أعد نفسي منضما إلى حلقة الفروديديين. وفرويد لم يكتشف الحياة اللاشعورية وحيلها، فكثيرون قبله وبعده أسهموا ببحوث مختلفة تتعلق بالسلوك النفسي المغمور.

ووجود قارة اتلنتيس[٢] في النفس مسألة معترف بها من الجميع. ومن سنوات اقترح "ستانلي هول" Stanley Hall أن تشبه النفس بجبل

---

(٢)اتلنتيس قارة يقال أنها كانت تقع في المحيط الأطلسي ولكن البحر ابتلعها. (المترجم).

جليد، فيمثل الشعور الجزء البارز على سطح الماء، أما الجزء الأكبر، وهو الكتلة المغمورة وغير المرئية، فتمثل اللاشعور. وعندما قدم "هول" هذا التشبيه، فإنه قُبل في لهفة. وأكثر من هذا، ما أراه في مشروع فرويد العام لاستكشاف نواح معينة من الحياة المغمورة والمفاتيح التي أرشدته إلى منابعها، فهو يبدو سليما من حيث المبدأ. وقد أضاف كثيراً من الأهمية الأولية إلى مجموع وجهات نظرنا عن البواعث البشرية والأجهزة.

وسواء أكان "الأسلوب المعين" الذي فيه أدرك فرويد اللاشعور وأتقن إشراكه في الحياة النفسية، جائزاً شرعا أم صحيحاً، فإن هذا موضوع يختلف كل الاختلاف. وهنا يجب أن أوضح أن ما أسجله من الرفض يفوق ما أسجله من قبول، وأوجه رفضي إلى مسائل جوهرية، "فاللاشعور" الفرويدي يبدو لي في أسسه ضعيفاً علميا، كما أنه في تطبيقاته يضلل من نواح متعددة. ولا ريب أن اعتراضاتي الكثيرة على النتائج الفرويدية تخرجني من حلقتهم. وإذا لم أكن منهم فإني أعد نفسي ضدهم.

والفكرة التوجيهية الثانية التي تكون طبيعة الإنسان الفرويدي هي اللبيد، "الإنسان اللبيدي" Libidinal Homo وفحوى هذا أمر بسيط للغاية، فمن المفيد أن نحصل على كلمة عامة شاملة تلخص ذلك الشيء المجهول الأساس الذي يدفع الحياة إلى الاستمرار. ولك أن تسميه الطاقة أو "الدافع الحيوي"، أو مركباً من الدوافع الحيوية، أو التحمس للحياة والاهتمام بأمرها، ولا تنس أنه حيوي "بيولوجي" في لبه، لكنه

يحصل على إفراط في النمو النفسي المترف حيث يعيش، ويتحرك، وحيث يظفر بوجوده المعقد. وهذا هو اللبيد.

ومن الواضح أن شيئا يدفعنا إلى مواصلة الحياة، ومن العجيب أننا عشنا طول حياتنا بدون هذه العملة السهلة التناول. ولكن الترحيب بإضافة لفظ جديد إلى المصطلحات الفنية لا يعني في حد ذاته معلومات جديدة. وأيا كانت البصيرة التي يضفيها هذا اللفظ، فإنها من الجائز أن تتحول إلى نوع من بلبلة الخواطر إذا فهمت القوات المؤلفة للبيد بشيء من التحيز العقلي. وإذا اتسم اللبيد كله بطابع جنسي، فإن العملية النفسية تتحول إلى شيء آخر مختلف كل الاختلاف. وتعاود المشكلة الخطيرة الظهور، فنعود إلى التساؤل: ما هي طبيعة ذلك الحافز المعقد الدافع للحياة، ولحياة متعددة الألوان؟ وهل فهم فرويد له صحيح؟.

وفي هذا الموضوع يختلط الأثر عندي. واعترف بفائدة اللفظ، وأدرك موضعه في علم النفس، ولكني لا أقبل ذلك التطور الذي أوصله إليه فرويد. وعلم النفس اللبيدي علم شرعي، بل الواقع، أنه جوهري؛ ويرجع الفضل إلى فرويد في توجيه علم النفس إلى هذا الاتجاه، ومنه تضمين البواعث النفسية اللاشعورية، والوظائف الأولية، مما نجده أيضا في المستويات العليا الخاصة بالنمو الثانوي؛ فالبيد فيه مقوم لاشعوري جوهري أيا كان اعتراف الإنسان العاقل به، وأيا كانت إدارته الشعورية له حكيمة أو غير حكيمة.

والفكرة التوجيهية الثالثة في المشروع الفرويدي هي "الإعلاء"

Sublimation. وأنا أوثر التوسع في معنى هذا اللفظ عما أضفاه عليه فرويد. فالإعلاء هو توجيه دافع معين يحتمل أن يكون منفذه محدودا أو غير مرغوب فيه، إلى تعبير أكثر قبولا، ومن مرتبة أكثر سمواً؛ وهو يشترك في جميع عمليات إعادة توجيه الدوافع التي تظهر المنتجات النفسية السامية، والمهذبة المقبولة من الناحية الاجتماعية.

ومن الأوجه الهامة للإعلاء الاشتراك الاجتماعي، ومعناه انسجام أكمل مع سلوك الآخرين، ومراعاة لهم في جميع الحالات والعلاقات. ولن يذهب الناس كثيرا في الإعلاء بغير التأثير الاجتماعي، ففي الإعلاء يُحتفظ بالدافع الأصلي، على حين تتحقق تعبيراته السامية، فهو يلخص النمو التقدمي؛ وعندما تتوافر الأساسات، فإنه يكون وثيق الصلة بالجانب الأكثر ثروة، وبالاتجاهات التي ترضينا في الجزء الفائض من حياة الفراغ والترف؛ والإعلاء يصحب عملية النمو، وأنا لنزداد أعلاء كلما ازداد نضجنا النفسي.

ولولا المراحل المتعاقبة للإعلاء لبقينا في الحالة البدائية التي كان عليها الإنسان وهو يعيش في الكهوف والمغاور. فالحياة المتمدينة هي الحياة التي ظفرت بنصيبها من الإعلاء. وبما أن اللبيد هو الاسم الشامل للدوافع، فهو في معنى عميق ما ظفر بالإعلاء. وفي كل هذه الاعتبارات يعد علم النفس الفرويدي علم نفس يشمل اللاشعور المغمور أو المكبوت، فهو علم نفس لبيدي يرد السلوك إلى الدوافع الأساسية؛ وهو علم نفس إعلاء يتعقب مسار النفس من اتجاهها الأولى إلى شكلها

النهائي. وإذا كان الاشتراك في هذا البرنامج باعتباره حيويا يجيز للفرد أن يوضع في مرتبة الفرويديين فإني أطالب بهذه التسمية. وعلم النفس الذي من هذا النوع هو، ولا ريب، الدراسة الواجبة للجنس البشري.

فرويد وعلم النفس المعاصر

أن النتيجة التي تلتقي عندها الفكرة السائدة في "السيمفونية" الفرويدية ليست بالضرورة من تأليف فرويد في أي إيقاعاتها، وفي رأيي، لا يوجد في الموضوع الفرويدي– ولا في تلمسه لعلم النفس بما في ذلك أدلته في الشواذ– ما يدفع إلى عزف البرنامج الفعلي بما فيه من تنوعات حافلة بالنشاز، وعدم الانسجام، والإسراف والمبالغة. وفي وسعي أن أتخيل "علم نفس أعماق" يتضمن الأجزاء الرئيسية الخاصة باللاشعور بما في من النواحي المغمورة، والمندمجة والمكبوتة، والخاصة بالدوافع الأساسية سواء سميت لبيدا أو غيره، والخاصة بالإعلاء في شتى مظاهر تحوله، مما يؤدي إلى تقدم معرفتنا بالسلوك البشري، ويدعم تحكمنا في أنفسنا، ولا سيما في مسألة علل المصابين بأمراض العصاب؛ ورغم هذا كله، فإن علم نفس الأعماق هذا الذي أتخيله يظهر مختلفا كل الاختلاف، ويقوم في مجموعه على أساس علمي سليم. وهذه الفرويدية المحتملة الحدوث ستكون أقل بريقا من النظام الحالي، ولكنها ستكون سليمة وأصيلة أكثر منه؛ ومع ذلك تبقى الحقيقة قائمة في أن هندسة بيت التحليل النفسي تحمل إمضاء فرويد؛ فخطط البيت وتنفيذها ستكون كما قدمه. وليس في وسعنا أن نختار كيف تأتي مراحل التطور

التاريخ الذهني، ولا كيف تتسلسل الحوادث البشرية سواء أكانت سياسية أم اقتصادية. وتبقى بعد هذا أيضا الحقيقة القائلة بأن التحليل النفسي قد برهن عن طريق مغرياته الواسعة النطاق، وتغلغله الإجباري فينا، على أنه مشكلة تتطلب تجديد علم النفس وطب أمراضها، فقد أثر على سبل الحياة والتفكير تأثيراً شاملا. وهذه الحقيقة تنقش اسم فرويد في سجل تاريخ الآراء مما يبرر مغامرتنا الحالية لنقده.

ولقد كانت اتجاهات أخرى في علم النفس المعاصر تسير نحو نفس الغاية المنشودة؛ فعلم نفس الطفل، وعلم النفس الاجتماعي، والاهتمام المتزايد بالشخصية في علم النفس العام، كلها تعبر عن الاهتمام ذاته بالاستجابات العميقة، والوجدانية، والبدائية التي نجابهها في حياتنا اليومية. ودراسة السلوك البشري دراسة حية، من حيث الدوافع والبواعث النفسية قد أضاف الكثير إلى البحث الأكاديمي المحدود للعمليات الذهنية، والجهاز العقلي؛ بل أنه قد حل محله وأفاد الفهم البشري، وتسيير أمور الحياة فائدة كبرى. ورغم هذا فقد بقي لفرويد أن يوجه علم النفس اتجاها حديداً سيظل محتفظا به إلى النهاية، ففرويد هو القائل "أعرف نفسك الخفية".

ولقد كانت أكبر بحوث علم النفس الحديث، كما تشكلت في معامل "فنت" (Wundt) بمدينة ليبزج، تدور حول الجهاز الخارجي للعمليات الذهنية. وقد استنفذت هذه المدرسة نشاطها الأول دون أن تمس أعمالها الهامة المسائل الحيوية للحياة النفسية العميقة في

صميمها. وكان القصد والهدف الباعثان للفكرة الفرويدية يعبران عن روح العصر، والبدعة أو "المودة" التي شاعت فيه. والأمر الذي أثار الاحتجاجات لم يكن اقتراح "علم نفس الأعماق" بل كان وجهة نظر فرويد إليه، لأنها صورت النفس البشرية صورة كريهة مشوهة، وهي النفس التي أشاد بها علماؤها ممن يعنون بالناحيتين الأخلاقية والذهنية، فجعلوا منها مثلا أعلى.

وعندما ظهر التحليل النفسي، كان تجسيما لدراسة النوع البشري، دراسة غير لائقة به. وكان من العوامل البعيدة الأثر في نشوء المعارضة واحتدامها ضد المبادئ الفرويدية، النفور من النظر إلى الإنسان كما هو في الواقع، ويضاف إلى ذلك الانهماك الأكاديمي في دراسة وجوه خاصة للتعبيرات العقلية. وفي هذا المجال كان منطق الحجة كله في جانب فرويد؛ فالحقيقة شيء مستقل كل الاستقلال، ولا تتقيد بأقيستنا الأخلاقية، ومدى تذوقنا للجمال، رغم أن الأخلاقيات، ومدى تذوقنا للجمال تعبيرات حيوية للإعلاء.

وكان الوضع الملائم لانحراف ذلك الإنسان الأكاديمي الذي أخرج على طبيعته يقبع في التجديد البيولوجي الذي يستمد قوته المحركة من نظريات داروين. فالنفس البشرية مهما سمت بالثقافة يجب أن تنسجم مع التطور البيولوجي للإنسان. وما عناه "فنت" في تسميته لكتابه الرائد في موضوعه، إذ سماه "بعلم النفس الفسيولوجي" Physiological Psychology، كان أكثر قليلا من ارتباطه الوثيق،

واعتماده الكبير على علم وظائف الأعضاء فيما يختص بتعليله أجهزة الإحساس والحركة، وفي جعله المخ أساس الانسجامات النفسية. وبعبارة أبسط، فإنه كان يرمي إلى أعطاء النفس أساساً جسمياً.

أما المسألة الجوهرية الخاصة باعتبار كل أشكال الحس والحركة كعلامات للغة تطورية، وبتعبيرات هذه اللغة يجب أن يفسر علم النفس وكذلك علم الوظائف إذا أريد فهم معناها، كانت هذه المسألة غير ممثلة تماما في حركة "فنت"، ولكنها قفزت إلى المقدمة منذ ذلك الحين. وقد سميت هذا الموضوع "بعلم النفس الطبيعي" (Naturalistic Psychology) على منوال الاصطلاح القديم "التاريخ الطبيعي"؛ فالباحث النفسي باحث طبيعي، ولكن في مجال العقل.

وقد يدرس النفسي الطفل في غرفة حضانته، أو حيوانا في موطنه، أو شيئا من الأفعال المنعكسة، أو لونا من الاستجابة المتقنة للراشد الناضج، أو العادات الاجتماعية للإنسان البدائي أو المتحضر؛ وهو في كل من هذه الدراسات طبيعي ولو كان أكاديميا فيها. فإذا ما شارك الشعوب التيوتونية في غرامها بالألفاظ ذات الوزن الثقيل، فله أن يطيل الكلام في اندماج التاريخ الطبيعي بتاريخ الثقافة، فإن أهم الحقائق عن الإنسان هي استعداده لتقبل الثقافة.

والتاريخ ليس إلا المستوى العلوي لتسلسل الحوادث ذات الصبغة البشرية التي تسبح في آفاق بعيدة، ولكنها لا تنفصل عن جذورها البيولوجية. وفي الحركة ذاتها وبغية مزيد من الفهم، نشأت الدراسة

الشائقة لكل ما هو شاذ، مما يجعل كل نواحي المواهب البشرية الفطرية تتجلى في صور مختلفة، فبدت كالمطياف وقد اختل نظام ألوانه. وهذه الدراسة أيضا تحتل مكانها في الجانب الطبيعي، وتعرض كيف تسير الطبيعة النفسية في طريق خاطئ. وكل هذه الاتجاهات المتقاربة كانت تسير في مجالات متوازية، كما تجلى في الحركة الفرويدية.

ولقد بدأ علم النفس الفرويدي بوحي هبط في عيادة، ثم نما إلى تفسير عام للنفس. ولهذا يجب أن يجتاز الاختبار الطبيعي، ويجب أن تتأقلم طبيعته داخل الإمبراطورية العظمى للعقل. والحقائق التي تنطوي عليها مدركات مثل اللاشعور، واللبيد، والإعلاء، يجب أن تظفر بطريقة ما على دعامة لها في ميراثنا الحيوي، وتتكامل معه. أن مركبات التحليل النفسي تؤلف المحور المركزي لنظام فرويد، وتجعل الحياة البشرية شديدة التعقيد إلى درجة الانهيار. ولست أذكر أنه بحث كيف استولت هذه المركبات على الإنسان، وأقلقت اللبيد، ولا أذكر تعليله لوجوب أعلاء الكثير من الطبيعة الأصلية. وهو بحث له صلة بهذه الموضوع.

وهذه الأسئلة بالذات هي التي اعتبرها جوهرية أكثر من أي شيء آخر، وتجب إثارتها ولو تعذرت الإجابة عنها، وإلا فإن أسس أي نظام للتحليل النفسي ستظل مفككة ومثارا للنزاع، ومجرد تأملات بغير أسس. وهذا العرض لعلاقات الفرويدية بغيرها من البحوث النفسية، قد يؤدي إلى الإنصاف في تقدير صلاحية التحليل النفسي ومعرفة قيمته، أيا كانت وجهة النظر النهائية إلى ما يقترحه فرويد من حلول.

"اللاشعور"

دراسة "طبيعية":

عندما ما يجابه العالم النفسي الطبيعي ابتكارات فرويد الهامة. فإن منطق العلم يثير في ذهنه عدة تحفظات، وبالنظرة ذاتها يجب أن نبحث في شأن علم النفس الذي تطالب الفرويدية بالاعتراف به، فإن الصراع بين أنواع علم النفس من الأسباب التي تبين صعوبة الحكم على الفرويدية، ومعرفة مواطن النقص وأسبابه فيها؛ فالمشروع، وخطة العمل، والنظام، والمبادئ، والتفسير الكلي الذي يتلخص في عبارة "التحليل النفسي"، كل هذا لا يكفي فيه القول بأن خطأ أو صواب، وهو لا يقبل على أنه جاء ليحل مكان علم النفس المعترف به، وفي الوقت نفسه لا يمكن حرمانه من مكان يتبوءه في نطاق هذا العلم وبنيته.

ويضاف إلى ذلك مكانة علم النفس ذاته فإنها لم تظفر بعد بحدودها النهائية، كما أن مبادءه الأساسية لم تقرر بعد في صيغ دقيقة، بل أن حدود محتوياته لا تزال مائعة يتعذر معها تسجيل مدى تقدم برامجه. ومرونة علم النفس أن هي إلا نتيجة الريبة والتحفظ والتسامح؛ ولولا هذا لما ظهر التناقض الحاد بين الحلول ولما كان "تبلبل" الألسنة بين النفسيين من الأمور المحيرة؛ فبناته يعانون من أكثر من انقسام في التعبير. وهم يعملون تبعا لتصميمات مختلفة، ولكنهم يعتقدون أو يرجون أن تنسجم الواجهات مع بعضها البعض؛ أو هم يعملون في اطمئنان متجاهلين مشروعات الآخرين. وهذا موقف سيء الحظ، ويصير أسوأ لو

أن الفرويدية وضعت نفسها في مركز المنافس لهم جميعا، وهو ما يبدو أنها تدعيه الآن في جرأة.

ولاقتناعي بأن الدراسة الطبيعية للاشعور تقدم أفضل الآمال في توفيق شامل، فإني سأعرض التحليل النفسي من هذه الوجهة. وأول ما سأتناوله بالفحص هو أهم المدركات الفرويدية وأكثرها ضرورة لها؛ وهو "اللاشعور" الذي بغيره ما كان ثمة وجود للتحليل النفسي. ولقد قامت الحركة كلها على حل وإجابة بارعة عن سؤال في صميم الموضوع. والسؤال يتكافأ في أهميته مع ما أثار فضول نيوتن (Newton) بشأن سقوط التفاحة. وهذا السؤال هو: لماذا تتخذ أعراض الهستريا أشكالها الخاصة في أنواع عجز معينة وغير بيولوجية؟.

وهذه الأعراض "غير طبيعية" من الناحية الفسيولوجية، فهل من الممكن أن تبدو كشيء طبيعي من الناحية النفسية؟ هذا جائز إذا اشتملت طبيعة النفس على اللاشعور؛ فإن المريض كان يبدو ضحية الأعراض لا محركها. وكان يشعر بقوتها القاهرة شعورا قويا، ولكنه كان يجهل أصلها ومنشأها؛ وكانت الأعراض غير مطابقة لأي الألوان الفسيولوجية أو التكوينات الشعورية؛ فالذراع المشلول، والغشاوة على البصر لا مقابل لهما في عجز الأعصاب أو العضلات، ومع ذلك، فإن العجز لم يكن خياليا أو مفتعلا، فكيف نشأ؟.

من العسير أن نفرض وجود "لاشعور" لمجرد أننا نريده لتفسير الحالة. وفي العصور السابقة كانت أعراض الهستريا وما شابهها تفسر

على أنها مسة من الشيطان. وإذا كنت مستعداً لافتراض وجود الشياطين، وأن من طبيعتها إنزال مثل هذه الأعراض المرهقة بضحاياها، فإن هذا التفسير مناسب كل المناسبة؛ وتبعاً لهذا الفرض وجهت التهم إلى السحرة، فحوكموا، وأعدموا، ولكن عقولنا تنفر من مثل هذه الأشياء "غير الطبيعية"، والتفسيرات البعيدة كل البعد عن الأمور العلمية، فإن منطق محاكمات السحرة يتنافى مع معاييرنا المنطقية كتنافي إعدام المتهمين بالسحر مع معاييرنا الأخلاقية. أما "اللاشعور" الفرويدي الذي يحدث الأعراض الهسترية ويفرضها، فمن الميسور أن يفهم على أنه شيء طبيعي لا كعامل خارق للطبيعة. وهو ينشأ إلى حد ما في داخل النفس.

ولقد عرف "اللاشعور" قديما وحديثا، ولكنه فسر بتعبيرات غير عملية، نشأت كلها كما حدث لفرويد من دراسة النواحي الغامضة عند حدود النفس وحافاتها. ولم تكن تلك الدراسات في المناطق ذاتها، ولكنها كانت في أنواع من الهستريا، فهي تشمل، فضلا عن التنويم المغناطيسي، ما يقال عن كشف الغيب وتبادل الفكر على البعد مما شهد به الكثيرون. وقد ظفرت نظرية "هدسون" (Hudson) في كتابه "قانون الظواهر النفسية" (The Law of the Psychic Phenomena) بانتشار واسع (باستثناء القراء النقادة) من سنوات عديدة مضت. فقد أعلن في جرأة أن لنا عقلين، إحداهما "ذاتي"، والآخر "موضوعي" والعقل "الموضوعي" هو الشعوري الذي يتولى العمليات العقلية التي تتصل بحياة اليقظة العادية المعترف بها. أما العقل "الذاتي"

فهو اللاشعور: وهو المسئول عن جميع أنواع الغموض والعجائب الظاهرة، والظواهر الخاصة بكل ما هو نادر وشاذ. وتوسع "هدسون" في فرضه ليشمل مخاطبة الأرواح، فكان فرضه شاملا كل الشمول دون حاجة إلى هذا التطبيق. ولو كان لنا عقلان، وكانت هذه هي وظائفهما لظفر علم النفس بحل شامل أكثر قبولا من مسات الشياطين، ولكنه أيضاً لا يجد سنداً يؤيده. وقد أوحت دراسة "كاربنتر" Carpenter بهذه الفكرة من قبل. وهي دراسة تمت بطريقة علمية في المجال نفسه. وذكرها في كتابه "علم وظائف العقل" Mental Physiology وفيه حاول أن يضع نظرية استنارة المخ بشكل لاشعوري.

وسقطت أراء هدسون خارج الدائرة الشرعية للعلم، رغم أنه دعا هو الآخر إلى علاج يؤسس على هديها، ولم يعد هذا الحدث يعتبر اليوم هاما في تاريخ اللاشعور إلا من حيث هو فصل في قصة الخطأ، ومغزاه لا يحتاج إلى تفسيره. واللاشعور الفرويدي يجب أن يظفر بطريقة ما بأساس (طبيعي)، وإلا فإنه هو أيضا سيرد إلى فصل آخر من الكتاب نفسه، وإن كان أكثر أهمية.

ويعتبر "دنلاب" (Dunlap) "لا شعور" فرويد بغير أساس علمي في الواقع. ولهذا فهو يستبعده استبعادا تاما، كما يستبعد "مسة الشيطان" التي يقول بها بعض رجال اللاهوت. أو العقل الذاتي عند هدسون. وغالبية النفسيين وأطباء النفس يسلمون بوضعه الطبيعي، ولكنهم يجدون

أدلته ضعيفة إلى درجة أنهم لا يستطيعون قبول رأي فرويد في اللاشعور، على أنه رأي صحيح.

وفي رأيي أن "اللاشعور" الفرويدي غير شرعي في لبه (لم يفرض فرويد عقلا لاشعوريا، ولكنه عرض مجموعة من الإجراءات اللاشعورية)، فاللاشعور الفرويدي امتداد منحرف لعلاقة فعلية، ومن الممكن العثور على تفسير طبيعي لها. وأرى أنه من الهام للغاية البحث عن هذا التفسير رغم أن فرويد لا يعترف بالحاجة إليه، ولم يقلق نفسه من أجل عدم وجوده؛ بل أنه قبل "لا شعوره" كشيء واقعي، واقتنع بأنه كشف عاداته وموطنه، ومن ثم استكشف طبيعته ونماها وطبقها في ثقة على تفسيرات كثيرة أخرى في عالم النفس وحدوده القصية. وفي هذا الاتجاه، وعلى مثل هذه القاعدة الافتراضية، وبهذه التطبيقات البعيدة المدى تقوم أسس رفض الفكرة.

أسس بيولوجية.

كان ريفرزRivers أول من أدرك أهمية البحث عن أساس فسيولوجي "للاشعور"؛ وإذا كان عالم العقل منظما في الواقع حول وظائف شعورية وأخرى لاشعورية، فإن أسس هذه التفرقة تتغلغل إلى أعماق البنية العضوية. وقد وجد "هيد" Headوريفرز دليلا على التمييز بين "الحساسية" الانفعالية الأولية"[٣] Protopthic (البدائية)،

---

(٣) تعذر على باحثين آخرين تحقيق هذه التجارب والاكتشافات. ويوجد أيضا نوع الاستجابة الانفعالية التي يصعب تمييز درجتها في حالة الانفعالات الحادة وعليها تطلق التسمية نفسها. (المترجم).

"والحساسية المميزة" Epicrictic؛ وقد أجريا بعض التجارب على نفسيهما، فلاحظا أنه إذا قطع عصب في الذراع، فإن استعادته للحساسية عندما يشفى طرفاه المقطوعان، تتبع نظاما معينا، فيظهر إحساس مبهم بالألم، وفج، قبل ذلك الإحساس اللمسي المحدد الموطن الذي تستخدم به أطرافنا ومفاصلنا وجلدنا عن إدراك وتمييز.

وبتعميم هذا التمييز، وصلا إلى نتيجة توحي بوجود حياة انفعالية أولية يجوز أن تعين حدود النفس في الأحياء الوضعية، وتستجيب بشكل فج للتغيرات سواء أكانت سارة أم غير سارة. وهذه تسبق من حيث الزمن النموذج الاسمي للحساسية الذي يشغل الأفق الشعوري وتنطوي عليه. وهذه هي حياة "الحساسية المميزة"، حياة الإدراك والمهارة والعلاقات المتبادلة والغرض. والجهاز الحسي الحركي يمدنا بدليل نموذجي للمنظمة العصبية؛ فنوعا الحساسية، يظلان باقيين ويتحدان ويؤلفان "النفس" الجلدية. وفي اندماجهما تسود الإحساسات المميزة، وتتراجع البدائية مخلفة بقايا مضطربة. كمظاهر بيولوجية عجيبة؛ ومن أمثلتها الدغدغة والتهاب الجلد. ومن الجائز أن نقبل الحواس الجلدية كمفتاح بيولوجي يكشف عن الحياة الحسية البدائية، فالعين والأذن من أكثر الحواس تمييزا في مرتبة التطور.

وبالتوسع في هذا التمييز يتضح أن الحياة الشعورية مميزة، وأن الحياة اللاشعورية تأوي جانبا من الحياة "البدائية"؛ ولا نعني بذلك حياة بدائية كل البداءة ترجع إلى العصر الباليوزوي كما عرفناها، بل نعني شيئا

يشبهها من الناحية البيولوجية؛ وكما أدت تجربة "الفعل الشرطي المنعكس" التي قام بها بافلوف[٤] Pavlov إلى تزويدنا بنموذج فسيولوجي أولي للأشكال البسيطة للعادات، فإن تجربة هيد وريفرز زودتنا بنموذج للتمييز النهائي ذي أثر بعيد. وكلا التجربتين تشير أن مقومات ونماذج تتدخل في السلوك.

وبالتوسع في مدلول تجربة الغدة اللعابية نجد عامل "الشرطية" قد نما واحتل فصلا هاما في علم النفس، ومنه انتقل إلى التربية. ومن الجائز أن تكون تجربة القطاع العصبي "لهيد وريفرز" ذات أهمية أكبر كاستهلال للفصول العظيمة لحياة اللاشعور والشعور، فعلم النفس القائم على النماذج التجريبية، وعلى القواعد الراسخة ليس من المسائل النهائية، ولكنه موضوعي وإيحائي يفتح لنا أبوابا كثيرة.

والاطلاع على التفاصيل يقدم مزيدا من الإيحاءات. ففي فترة النقه يتحول الجلد ذو الإحساس المميز عادة إلى حالة إحساس لا يتحدد فيها موطن معين له. بل أنه يكون شائعا منتشرا. ومن الجائز أن تشعر به على بعد غير قليل من نقطة التأثر؛ فإذا شفى العصب عاد الإحساس المميز، ويجوز أن يختفي مرة ثانية إذا وضعنا شيئا بارداً على الجلد. وفي العادة تزحم الحساسية المميزة ما تتمسك به الحساسية البدائية وتطرده.

---

(٤)بافلوف: عالم روسي اشتهر بتجاربه عن الفعل الشرطي المنكس. وكان يجريها على الكلاب. وفي أول الأمر كان يقدم الطعام للكلب وفي الوقت نفسه يدق جرساً فتفرز الغدة اللعابية عند الكلب إفرازاتها. وبعد عدة محاولات صارت الغدة تفرز موادها بمجرد سماع رنين الجرس دون تقديم الطعام. (المترجم).

وكان التفسير البراق لريفرز ينص على أنه عندما كان العصب المنفصل، ثم الملتحم في ذراعه في فترة استعادته لحساسيته المميزة، فإن ريفرز كان في حالة إحساس سقط من الخبرة البشرية من دهور طويلة، إذ تعرض للكبت البيولوجي في عملية اندماج العناصر البدائية بالمميزة.

ويقول ريفرز إن "استخدام الجانب الأكبر من العمليات المعقدة التي تحدث الحساسية البدائية بفعل إجراءات الاندماج، هو المصير المحتوم؛ وإن الجزء الأصغر وحده هو الذي يتعرض للمصير الآخر وهو "الكبت". وإذا ما قبلنا ما يحدث في المجاري العصبية التي تمد الجلد، واعتبرناه نموذجا أوليا ذا بنية أكثر تعقيدا وأحللنا "النشاط العقلي والخبرة الذهنية" محل الإحساس الجلدي، فإننا قد نصل إلى نتيجة؛ وهي أن مفتاح علاقة اللاشعور بالشعور هو الانتفاع عن طريق الاندماج. ومع ذلك فإن علم وظائف الأعضاء يعمل على تزويدنا بعامل "احتاج إلى الكبت، وهو أجزاء أخطر واحسم".

والغرض من ذكر هذه التجربة. هو أن نبين أن مدركا علميا بشأن اللاشعور يجب أن يبحث عن أساس (حيوي) بيولوجي يقوم عليه. أو إن ينسجم معه على الأقل. وإذا ما وجدناه، فإنه لا يكون إثباتا بل مفتاحا فحسب. ومن الجائز أن يوضح كثيرا ضد اللاشعور الفرويدي، أو في مصلحته. واكتشاف نوع من الكبت الفسيولوجي يقوي مركز قضية الكبت النفسي، ولكنه لا يجعل الاثنين شيئا واحدا، بل لا يستطيع أن يشبههما بعضهما ببعض.

وسيكولوجية "اللعاب" أو "الجلد" ليست نموذجا لعلم النفس المخي؛ فإن السلوك البشري في مستواه العادي المعقد الذي يعرفه السلوكيون أو الفريديون إنما يصدر من جهاز عصبي شديد التكامل. وقول وأطسنWatsonبأن السلوك البشري الراقي يمكن أن يفسر "بالشرطية" Conditioning التي يمكن مقارنتها بتجربة بافلوف، إنما هو تفسير خاطئ للتمثيل البيولوجي الذي كان دائما في ذهن واطسن. ومن الجائز أن يرتكب الفرويدي نفس الخطأ إذا قرران أنواع السلوك البشري المعقدة يمكن تفسيرها بكبت يضارع الطراز الذي يقول به ريفرز. ومع ذلك فإن كليهما يقدم لنا تشابها بيولوجيا لم يفكر فيه فرويد.

وبغير تجربة قطاع العصب، لكان لكل باحث نفسي "طبيعي" متمسك بطبيعته أن يتساءل بحق أن كان هناك من اختبارات مكبوتة كبتا أساسيا كما يدعى فرويد. وبغير تجربة الغدة اللعابية، له إن يتساءل أيضا، أن كان تكوين العادة على هذا النمط شيئا أساسيا. وحتى أن صدقت التجربتان، فإنه لا يزال صحيحا، وهاما أن الحياة المعقدة لعاداتنا المدربة ليست خبرة "لعابية" معقدة، ولا هي خبرة جلدية معقدة كذلك؛ فالتكوين البدائي ليس هو التكوين النهائي، وإن كان ذا علاقة به. وأشكال "الشرطية" و"الكبت" المتأخرة الحدوث والسامية ليست من المرتبة ذاتها، فهناك عوامل أخرى تنشأ مستقلة ثم تندمج فيها. وهكذا يتلقى المنظر العام للسلوك ضوءا من "الشرطية"، وآخر يعادله، ويتجلى من القاعدة الانفعالية الأولية والمميزة، ثم ما يلي ذلك من تكامل يتم بطريقة الاندماج.

وإذا ما وضعنا نصب أعيننا هذا القياس الأولي، فإنه من الأفضل أن نقبل اللفظين الأكثر شمولا، والدالين على الوظائف "الأولية" و"الثانوية". ولا غنى عن هذه المرتبة البيولوجية في علم نفس الأعماق سواء منه ما قام على القواعد الفرويدية أو غيرها؛ فالوظائف الأولية تندمج مع الوظائف الثانوية التي تحتل مكانها؛ وهذه الوظائف الثانوية شعورية "ومميزة" إلى حد كبير؛ واللاشعور يقدم الوظائف الأولية التي تدعم السلوك الشعوري دائماً. والانغمار قد يكون على أي عمق، والظهور أو الطفو قد يكون بأية درجة من الوضوح. ولكن قاعدتها كلها هي الاندماج، الاندماج في جميع المستويات، وفي مختلف أنواع التكامل. والاندماج يسيطر على الكبت. وعلم النفس الذي قدمته في كتابي "اللاشعور" Subconscious هو علم نفس اندماجي. ولفظة "لاشعور" مقبولة أكثر من مجرد لفظة، لأن "الكبت" عامل ثانوي في الغالب، إن كان كبتا، وليس مجرد انغمار، بل هو في الواقع أحد العوامل الخفية لكلا الاندماج في مجرى الشعور والانفصال عنه. ويبدو لي ولكثير من النفسيين، أن فكرة التفكك Dissociation صحيحة كل الصحة فيما يختص بهذه العلاقات المختلفة، ولكنها تخضع لاتجاهات أخرى، ومنها العوامل الفرويدية الهامة، وما تحوي من صفة الكبت المراقب، مما يبدو في بعض الأحيان كبواعث غريبة، وفي أخرى كبواعث بسيطة.

كيف يحدث التفكك؟ إن تخلف شطر من شطور الحياة النفسية عن المجرى الرئيسي لمشكلة كبيرة الأهمية؛ وهو (التخلف) يشبه تكوين مجرى فرعي لنهر بفعل جسر يعوقه. وهي مشكلة تجعل التداعي والتفكك وظيفتين متوازيتين. ولفرويد يرجع الفضل الخالد في أنه أدرك مدى اتساع هذه الحركة النفسية وشمولها، وأنه بين عاملا جوهريا بشأن مصدرها. وهو مفتاح أهمله النفسيون– وأنا منهم– ممن درسوا الظواهر "اللاشعورية" إهمالا كبيراً، ومع أن إهمالهم لها لم يكن كاملا، ولكنه تم بغباوة. وهذا المفتاح هو العامل الدينامي أو المحرك للبواعث النفسية.

وقبل عهد فرويد كنا نكثر من دراسة "تحت الشعور" على أساسي وصفي (أني استخدم هذا اللفظ "تحت الشعور" موضوعيا لا تشخيصيا باعتباره دلالة مريحة، لا باعتباره حقيقة مستقلة، فليس هناك شيء اسمه "تحت الشعور"، وإن وجدت أوجه "تحت شعورية"، ومقومات لا شعورية في المجرى الكلي للنفس). وكنا نحلل العلاقات بين ما بقي في المجرى العام والفروع والبواعث النفسية وبين ما فقدته، فأهملنا القوى المسببة للقنوات المتشعبة الأخرى.

ومن الممكن فهم هذا الإهمال وتعليله، لأن الظواهر المعترف بأنها لا شعورية كانت من طراز الكتابة الآلية وما شابهها من العمليات التي من أبرز سماتها الغرض الذهني في وسط نثار متفرق. وكانت المشكلة هي كيف تمارس عملية السيادة الذهنية والمعرفة التي يبدو أنها تتم دون

اتصال بالنفس الموجهة المعيارية. وكانت الكفاية العظمى أكثر وضوحا من العجز وعدم القدرة. أما حالة الغيبوبة وحدها سواء أكانت خفيفة أم عميقة، فكانت توحي بالحرمان من بعض الوظائف؛ وفي الوقت نفسه كانت وظائف أخرى مما لا يخضع لإشرافنا في العادة، تواصل عملها.

وبتعبير بسيط كل البساطة فإن التنويم المغناطيسي يغوص إلى أعماق المجرى الأساسي، ولكن البواعث المحركة ظهرت في حالة السير في أثناء النوم، (أطلقت عليها من قبل اسم "مطالب")، وفي حالة فقد الذاكرة مما يدل على الهرب من قيود الحياة المنزلية، وفي حالة ازدواج الشخصية أو اصطراعها لتعبر عن أوجه الرغبات الفاشلة أو الممنوعة؛ وفي كل هذه الحالات لفقدان الذاكرة كان يوجد نموذج التفكك الكامل الدال على الكبت، وذلك إن صح أن الناس فكروا فيه على هذا النحو من قبل. وبفكرة واحدة سجل فرويد لفظة "كبت" على الخريطة النفسية، فكانت من الكلمات التي قدر لها البقاء؛ فالآراء، ونظم الانفعالات أو الذكريات، وضروب من تنسيق الحركات، يمكن أن تطوى في النسيان بمعناه العادي؛ أما فقد الذاكرة فمن الجائز إن يكون إنتاجا ديناميا في ظروف خاصة، كما لو قذف النهر بحاجزه الرملي المعرقل لحركته.

وهكذا تم "اكتشاف" مبدأ حتمية "اللاشعور"، فازدادت ثروة علم النفس. وتظهر الحيل هذه هي الهستريا وأشباهها من أنواع العجز التي شغلت فرويد. وهنا ظهر وجه جديد للشعور؛ ولم يكن وجها آليا، بل

كان عجزا باعثه غريب. والنسيان عملية سقوط أمر من الذاكرة في العادة، ولكن من الجائزان تفكر فيه كشيء مدفوع إلى أسفل؛ فالجهاز الذي يحرك أبواب السهو يستحق الفحص الدقيق. ومرة أخرى نواجه السؤال الهام: هل عمل فرويد على تطوير هذا الاتجاه في السيكولوجية الخفية بطريقة مفيدة وصحيحة؟

ويرى "ريفرز"– وهو يعمل على وضع الأساس "الطبيعي" (أي الوظيفي) للاشعور– أننا في حالة الكف Inhibition، نملك حيلة تشترك فيها مستويات الخلق الراقية والوضعية، الكف ضروري لكل وجه من أوجه النشاط؛ ويتعرض للتعبير الشاذ، وينطوي في حدوده على التخدير، والتنويم المغناطيسي، وكثير من الحالات الأخرى.

ولشرح هذا الجهاز نبدأ قولنا بأنه توجد مجار عصبية للتنبيه، ومنها تخرج ألياف عضلية مفردة أو في جماعات متناسقة. وهذه المجاري العصبية المنبهة يحتمل أيضا أن تدفع الغدد إلى إفراز موادها؛ وتوجد أيضا ألياف مانعة أو كافة، وعملها هو حجز ما يجتازها ووقفه.

وقد قيل حقا، أن الطبيعة تسير وهي ممسكة بلجامين؛ أحدهما للضبط. وأنواع الكف والمنع الشديدة التعقيد في حالة الخجل، وصعوبات إطلاق الدوافع في حالة وجود دوافع مضادة، والشلل الناشئ عن الخوف، وتخشب التنويم المغناطيسي، والتردد الناشئ عن الارتباك أو الريبة؛ كل هذه الظواهر مألوفة لكل مراقب للسلوك البشري، كما أنها تظهر في أشكال أكثر بساطة في تجارب الباحثين في علم وظائف

الأعضاء؛ فهي تمثل أنواعا من الصراع بين عمليتي الإطلاق والإمساك أو الكف "والكبت الذي يجعل خبرتنا لا شعورية، إنما هو نوع خاص من عملية الكف". وهذه القاعدة الهامة التي وضعها "ريفرز" ذات أثر بعيد في إضفاء الأوضاع الطبيعية على الكبت؛ وه تدعم المدرك الفرويدي، ولكن هذا لا يعني أنها تدعم طريقة التطبيق الفرويدية بالضرورة.

ويتوغل "ريفرز" في دراسته، فيقرر كيف أن الطراز الفج للاستجابة "الكل أو لا شيء"- كما هي الحال في استجابات الأطفال العنيفة- يخلي المجال للاستجابات المرتبة والمتدرجة، وهي من خواص السلوك المكفوف، الناضج، والمميز، والموجه. فالطفل يندفع اندفاعا تاما، أو يتوقف توقفا تاما؛ بينما الشاب. يكيف ميلا أو اتجاها بآخر. والترابط في مهد المخ Thalamus الذي يعد مقر الاستجابات الانفعالية (كانون Cannon وغيره) ويقابله الضبط الصادر عن لحاء المخ- هذا الترابط يوحي بأنه يوجد في بنية المخ أساس وظيفي لذلك التمييز البعيد الأثر بين الوظائف الأولية والثانوية. وهذا هو موضوع "علم نفس الأعماق".

وأضيف كلمة إلى لفظتي أولي وثانوي الثمينتين لأن أهميتهما جوهرية، ولأني أعتقد أن استخدامهما بدلا من التعبيرات الفرويدية في حديثنا وتفكيرنا سيوضح كثيرا من العلاقات، ويجنبنا كثيرا من الغموض. وقد استخدمهما يونج في حرية، وشرح نشأتهما في رسالة إلى الدكتور "روباك" Roback فقال أنه استعارهما من "أوتو جروس" Otto Gross في كتابه "الوظائف الثانوية المخية" Die Cerebrale Secundar function الذي صدر في عام

١٩٠٢. فقد استخدمها فيه من الناحية الفسيولوجية، ولكن لهما دلالاتهما النفسية الهامة. ويحمل علم النفس البدائي ومشتقاته- وهو الخاص بالحالات الوضعية والسامية- هذا التميز الذي يوحي إلينا بكثير من الأفكار. وكل هذا يؤلف مدركا شاملا، ولا غنى عنه في كثير مما تنطوي عليه الدراسات الحديثة ومنها الفرويدية. وسأستخدم اللفظتين بكثرة وبدلالاتهما، ناظرا في ذلك إلى البدايات والنهايات الفسيولوجية والسيكولوجية.

وألخصهما بقولي أن الأفعال المنعكسة، والتأثيرات الغددية، والإحساسات العضوية، وأنواع التناسق الثابتة، والاستعدادات الفطرية، والدوافع الغريزية، والطباع، وأنواع الكف، ومستوى حياة الطفل، والتركيبات البسيطة في الحيوان والمراحل الثقافية المبكرة، كل هذا يمثل الوظائف الأولية سواء أكان التمثيل كليا كاملا، أم بشكل غالب عليها. إما التمييز، والعادة، والتوجيه، والتفكير، والانفعالات الناضجة، والعواطف، والأذواق، والمهارات، وأنواع البراعة، والإشراف، والانسحاب، والقلق، والآراء، والمعتقدات، والمثل العليا، والمعايير، والوساوس، والمبادئ والتأملات عامة، كل هذه وظائف ثانوية تماما، أو يغلب عليها أن تكون كذلك. وفيما بينهما يجد علم النفس مشكلاته، كما تجد الحياة عقدها التي تحيرها.

وفي مثل هذه القوى الدينامية المعقدة تكثر الفرص لاختلاط العلاقات ولاضطراب الوظائف وضلالها. وهذه الطريقة في التقدير ذات

قيمة ثابتة للنفسيين، سواء أكان طابعهم العقلي نظريا أم عمليا. ومع أنها، ككثير غيرها، ليست من الإسهامات الفرويدية، فإنها ظفرت بثروة (كما أصابها الاضطراب فعلا) باستخدام التحليل النفسي لها مما جعلها شيئا آخر مختلفا كل الاختلاف عما هي في وضعها الطبيعي.

ومن الخير أن نوضح مرة ثانية أن استخدام اللفظ نفسه للدلالة على عمليات متباعدة بعضها عن بعض في القياس الفسيولوجي وفي القيام النفسي بشكل خاص، لا يعني تحديد هذه العمليات أو واحدة منها، ولا يدل على أن بينها وجوه شبه؛ ومن الجائز أن يكون التناقض من حيث "الحالة" أكثر أهمية من تشابه يحتمل أن يبرر وضعها ضمن أحدى السلاسل التطورية لأغراض المقارنة. وفي هذا المعنى يمتد "الكف" من انسحاب الطفل من بين ذراعين غريبين، إلى تأنيب الضمير الحي عند رجل متدين؛ وهذا لا يعني أن أحدى الظاهرتين هي الأخرى بأية حال من الأحوال، كما أن الخجل ليس تأنيبا، والتأنيب ليس خجلا.

والحقيقة القائلة بأن "جهازا" ما قد أعد لحالتي الفحص كليهما، إنما تزود المدرك بدليل طبيعي يؤيده؛ والمحظورات والأفعال المنعكسة الكافة يجب أن تبحث في مجموعها بشكل مختلف كل الاختلاف. ومع ذلك فإذا ما منحنا الحيل النفسية الملائمة، فإننا نصل إلى حالة الكف عن طريق أساسي في حالة الحظر؛ وهذا هو التطور في داخل النفس، والمشروط بالتطور داخل الجسم. والحال كذلك مع الباحث في علم الأحياء، فإنه قد يبدأ دراسته من كائن حي العين فيه نقطة صغيرة، ثم

ينتهي بإنسان له زوج من العيون يرى بهما معا؛ وهي كذلك عندما يقول داروين عن الجذور أنها "مخ" النبات، فكلها تشبيهات، وليست حقائق. ولهذه الأسباب وغيرها، فإن اتجاه مشروع فرويد ومقصده يعد داخل نطاق التقدم الجوهري في علم النفس أيا كان رأينا في طريقة تنفيذ هذا المشروع. ومن المفيد أن ندرس الأصول البدائية للتشكيلات النهائية للسلوك، ونرى العظيم منها في الوضيع.

وهذا شيء هام للباحث النفسي "الطبيعي" لأنه يزوده بإحساس بالطمأنينة في تعقبه لشعب السلوك اللاشعوري إلى أبعد ما يستطيع، حتى إذا صار أثرها مبهما. وهذه الدراسة تجعله ميالا إلى مبادئ المشروع الفرويدي، وفي الوقت نفسه تصر هذه الدراسة على أن يظل نمو اللاشعور مخلصا للإدراك "الطبيعي" الخاضع للمنطق. وتمييزه وجوه شبه، وعلاقات في برنامج تطوري هو لب العلوم "الطبيعية"؛ فاعتبارها شيئا واحدا، مع إهمال ما بينها من وجوه الخلاف الشديد من حيث حالتها ومعناها، مغالطة مضللة ثبتت إدانة فرويد والفرويديين فيها.

نقد اللاشعور:

النتيجة العامة التي وصلنا إليها على ضوء جميع الظواهر التي يصح أن تندرج تحت اللاشعور، هي أن "اللاشعور" عند فرويد إنما يقوم بدور صغير في نطاق السلوك البشري. إلا أنه دور حقيقي. ويصح أن يفسر بحق على أنه عامل من العوامل التي في جملة نواحي النظام النفسي اللاشعوري. والدور الرئيسي في هذه العملية ما قد تؤدي إليه هو

الاندماج– اندماج الوظائف الأولية والثانوية، والتكامل المتوالي في النطاق الأولى الواسع. والسيكولوجية السائدة هي الاندماجية. فإذا ما تراجعت أو أخفق التكامل، فقد ينطوي ذلك على نوع أو درجة من التفكك الارتدادي إلى جانب الترابط السائد.

وفي الأشخاص الذين لديهم الاستعداد، يجوز أن تصل هذه الحالة إلى تفكك عميق، مؤقت أو طويل الأمد. وهذه الحالة بدورها قد تكون جزئية من حيث تكييفها الفسيولوجي، وهي في الغالب نفسية التكييف. وفي هذه الخطة الشاملة لحالات التفكك (أو عملياته)، من الممكن أن يتلائم "اللاشعور" الفرويدي، بل أن هذا التلاؤم واجب.

ولا ريب أن فرويد يقر الناحية الاندماجية. وهو يسميها "مقدم الشعور" Fore Conscious وأنا أشير إليها كدعامة "تحت الشعور" من حيث أنها تدعم الشعور، فالوظيفة الأولية تدعم الوظيفة الثانوية، وفي مجال التشابه البعيد نقول أن الحساسية الأولية الغامضة تدعم وتخلي الطريق لأنواع الحساسية المميزة وأوجه النشاط المميز. وتجد فكرة أداء تحت الشعور لوظيفته في كل الدرجات حجة بيولوجية سليمة تؤيدها في مسألة تكامل طرز التركيب العصبي. وعندما يحدث (الانفصال) التفكك في لحظات "الشرود"، وفلتات الانتباه، وحالات الغيبوبة، والحركات الآلية، والأحلام، والسير في أثناء النوم، فإن الأدوار يعاد ترتيبها، مما يزودنا ببصيرة إضافية بالعلاقات العادية التي بين اللاشعور ومقومات الشعور.

وتبقى في هذه العلاقة وجه واحد هام، ولفرويد أن يوضحه لنا، إذ يظهر بجلاء في تحليل الحالات العصابية، ومن الجائز أن نسميه مؤقتاً "باللاشعور العصابي" ويجوز أيضاً أن نسمي وجه التفكك "بلا شعور الغيبوبة" أو "لاشعور الآلية". ومن حيث المزاج، يحتمل أن يتعرض كل منا إلى مدى ما إلى أي هذين الميلين، فالمجال واسع في كليهما للتفاوت بين الأعراض الخفيفة والبارزة، وبين السوي والشاذ؛ ومن المبادئ العامة في سيكولوجية الشواذ أن كل هذه العلاقات تظهر أيضاً بدرجات خفيفة في الأشخاص العاديين، وإن يكن ظهورها جاداً ومبالغاً فيه في الشواذ. وقد استقر هذا المبدأ وهو مستقل عن الأدلة الفرويدية وإن كانت قد دعمته وزادت ثروته.

والعبارة التي ذكرت تواً من أن اللاشعور العصابي يحدث في السلسلة السوية كلها، يجعل هذه التسمية بعيدة عن العدل، فاللاشعور العصابي، بعبارة أدق، وجه من البواعث النفسية التي تظهر في بعض الأوقات (وليس في كلها كما يدعى فرويد). وهو في حالات عصابية معينة يلعب دوراً حاسماً، وهو فيها ينتحل صفة عصابية لا يعرضها في العادة. وأعني بهذا أننا جميعاً نحتضن ونرحب بنوع من اللاشعور الفرويدي، كما أننا نكومه ونتفق معه. ولكنه لا يصل أبداً إلى المناسيب العصابية أو علاماتها. ولكل منا أنواع صراع تشترك فيها عوامل شعورية وأخرى لا شعورية. وبما أن مثل هذا الصراع يسوده الانفعال، فإننا نستطيع أن نلقبه كذلك "باللاشعور الانفعالي"، وإذا ما فهمنا اللفظ على

أنه لا يتضمن إلا اتجاه انتحال الأعذار، والهرب، وهما من حيل التحول الفرويدية، فإن "اللاشعور" الفرويدي يصير متميزاً ومقبولا معاً.

وملخص نقدي هو أن فرويد يلجأ إلى هذا "اللاشعور الانفعالي" عندما يكون اللاشعور المتفكك (نوع من الفشل في الاندماج) كافياً، وطبيعياً ومقنعاً إلى حد بعيد. ولعل مثلا نضربه يساعدنا في فهم هذه المسألة، وليكن المثل بسيطاً، وبغير علاقة هامة بموضوع فرويد الرئيسي، بل بمنطقه فحسب، فإن عامل التفكك البسيط لحالة عقلية من حالات الذهول يمكن أن يعلل بأنه فلتة تعليلا كاملا، بل أنه ليعللها عادة.

وهب أن خطيباً وقف في إحدى المناسبات ليمجد أعمال شخصية عظيمة، ولكن لفظتين اختلطت مخارجهما فنطقهما في لفظتين أخريين تتفقان في الحروف والجرس، وإن اختلفتا في الترتيب مما يكسبهما شيئاً من محاولة التهجم على رئيس الخطيب(٥). في مثل هذه الحالة يدرك أكثر السامعين ما يعنيه الخطيب. فقد ألفوا منه تلاعبه بالألفاظ، وما ينجم عن ذلك من فلتات، كما يعرفون أيضاً أنه ليس على وفاق مع رئيسه.

وإذا ما قبلنا الباعث اللاشعوري، فمن الجائز أن نستنتج أن العواطف عبرت عن فكرة عميقة كبتت بطريقة دبلوماسية لبقة. وبما أنه كان معروفا بارتكاب مثل هذه الغلطات، وبدون وجود مثل هذا الباعث،

---

(٥) ذكر المؤلف مثله عن احتفال بيوبيل الملكة فيكتوريا وأن الخطيب كان كاهنا أراد أن يقول "ملكة عزيزة" Dear Queen فزل لسانه وقال Queer Dean أي رئيس غريب.

فإنه يبدو من الأوفق أن نعتبر هذه الغلطة أيضا حدث عارضا نشأ عن الغفلة وعدم الانتباه، وأن نكف عن جعل الحبة قبة ونؤلف الكتب الخيالية المتكلفة عن "العلل النفسية في حياتنا اليومية" من موضوع يصح أن يكون خطاباً ارتجاليا عارضا يلقى عقب مأدبة غداء أقيمت لجماعة من علماء النفس.

ولعل أخطر الفلتات شأنا هي فلتة حاسة مراعاة التناسب. ومن أمثلة هذه الفلتات: جاويش يتولى تدريب بعض الجند. ففي لحظة اضطراب يصدر إليهم أمراً في ألفاظ حروفها مختلطة[٦] ولكنهم يفهمونه على أنه "إلى الأمام سر" ولو كان بينهم أحد الفرويديين البارعين لحلل زلة الجاويش وتساءل– لماذا يحدث هذا الخطأ المعين؟ فلا بد من سبب له، فإن إحدى عباراته من ألفاظ الهنود الحمر وتعني زوجة، ومن ثم يستنتج أن الجاويش ليس على وفاق مع زوجته، وأنه يخشاها، ويتلقى منها الأوامر. وهذا في عرفه هو المفتاح اللاشعوري للخطأ. ولكن هل هذا علم أم هو مجرد لعبة في وسع أي إنسان أن يلهو بها إن وجد فيها ما يسره وما يستحق الاهتمام؟

وكان من المعروف قبل التعديل الفرويدي وبعده، أنه توجد مجالات متوازية لأفكار شعورية ولا شعورية، وأن اللاشعور يزود الشعور، وفي بعض الأحيان تعترض اندماجهما وتكاملهما عقبات وفجوات؛ كما عرف أنه

---

(٦) ذكر المؤلف اللفظة المختلطة على أنها Squaward وصحتها بالإنجليزية Foreward Squad ولفظة Squaw تعني زوجة بلغة الهنود الحمر.

يحدث بين حين وآخر أن جزءا من باعث يستعجل النتيجة ويظهرها. كل هذا واضح في عمل اللاشعور الذي يخضع في بعض الأحيان لضغط الكبت. وهذا لا يحتاج إلى "لا شعور" متمايز عميق لا حياء ذلك الوجه المغمور الذي لم يخلف أثراً أو دليلا ينم عنه حتى يقتضي الأمر وضعه في قسم منفصل.

ومما عرفناه عن التفكك الشاذ نسلم بأن الانغمار يحتمل أن يكون عميقاً في العصابيين في أي مكان أو زمان. وأن ما هو مغمور لا يمكن إحضاره إلى السطح إلا بوسائل غوص خاصة، ولتكن هي التنويم المغناطيسي، أو الانطلاق عن طريق التفكك، أو الإفاضة في الحديث الحر بمساعدة التداعي، أو تفسير الأحلام، أو أية وسيلة أخرى.

وهذا الرأي المرن السهل التشكل عن مدى اللاشعور، وعن الباعث النفسي، الذي يحتمل أن يكون كبير القيمة أو صغيرها؛ هذا الرأي ينسجم إلى حد بعيد مع جملة المعلومات عن التكامل النفسي للوظائف الأولية والثانوية، وهو أيضاً أكثر تلاؤما مع الناحية الطبيعية، وهو مدعاة لتجنب التطبيقات المتطرفة للباعث أو للكبت المغمور في أعماق بعيدة، فهو يفرض علينا أن نرجع باستمرار إلى النظام التصاعدي للوظائف الذي تنمو فيه العلاقات. وهذا الرأي كان جديرا بأن ينقذ فرويد من زلته التي لا تغتفر، والتي جعل فيها العقد النفسية عامة، مما جعل اللعنة الأبدية الجنسية تحل بكل من ولدته امرأة.

ويضاف إلى هذا أن فرويد يخلط بين مصدري محتويات اللاشعور؛ فأحدهما يستمد محتوياته من خبرة الفرد الخاصة، ويمثل المجموع الكلي لما أريد أنا نفسي نسيانه من حوادث الماضي والحاضر، سواء أكانت اعتداءات أم ذنوبا أم عقبات، فهي خفاياي الشخصية التي يحتمل، بل يجب، أن أعرفها ولو معرفة جزئية. والمصدر الثاني لمحتويات اللاشعور فطري إلى مدى بعيد، وهو بدائي وعتيق حتى أنه ليبدو "سلاليا" وتطوريا، ويصل تياره إلى مراحل الطفولة؛ فهو يعمل في شكل غير تام من أشكال النفسية، ومع ذلك فهذا اللاشعور الغامض، المبكر، والناقص، هذا اللاشعور نفسه هو الذي يظفر من فرويد بقدرة سحرية تجعل صداه يتردد ويحس بعد سنوات طويلة، فتحس تفاصيله ومعالمه بكل وضوح، وتصاغ آثاره في صورة واضحة حية. ومن الجائز أن يكون اللاشعور واحدا من المصدرين، ولكنه من العسير أن يكون كليهما، فإن حدث تآلف منهما معا، فإنهما لن يكونا متساويين. ومن العسير أن يتعرض الشاب لإحياء انطباعات الجنين المؤدية إلى رغبات العودة إلى الرحم، وإلى الخوف من الأماكن المغلقة وهو في سن العشرين لمجرد أنه سبق أن أرهب أو حبس وهو في سن السابعة. وكل هذا يحدث بالأجهزة النفسية ذاتها.

وهذا اللاشعور المبكر، البدائي، العتيق إذا ما استمر على أي وجه من الوجوه، فإنه سيكون في طبيعته عبارة عن إحساسات وجدانية وتوترات حركية غامضة عديمة القيمة لأغراض التحليل النفسي. ومن المؤكد أنه لن يكون أفكارا أو ذكريات أو غير ذلك من المنتجات

النهائية التي تظهر كعقد في عيادات التحليل النفسي. ومن المشكوك فيه إلى حد بعيد أن يستمر هذا اللاشعور لأن مجراه الطبيعي يختفي اختفاء تاما بالاندماج في المراحل المتأخرة لنمو المصالح المتصلة. وقد واجه "يونج" هذه المشكلة ذاتها، وفي جرأة أضاف لا شعوراً جماعياً إلى اللاشعور الشخصي. وهو افتراض يضيف تعقيدات جديدة لا سبيل إلى التوفيق بينها.

وقد تحول فرويد بطريقة تعسفية مضطربة من المستودع البدائي إلى الشخصي لتحقيق أغراضه، فهو كيونج يتشبث بموقفه، وينسجم مع نفسه على حساب استنتاج متكلف بعيد "وغير طبيعي". ولهذا رأى فرويد أنه من الضروري أن يفترض وجود تفتح نشوئي تظفر فيه الأحداث المبكرة العتيقة الطفلية بقيم نوعية واضحة فعالة في تكوين سمات ناضجة بشكل عام، وفي تكوين الأعراض العصابية بشكل خاص. ومن هنا نشأت الفروض المذهلة الخاصة بالحياة الجنسية في الطفولة والتي فسرت على نمط ما عند الشبان الراشدين؛ ومن هنا الرواية الخيالية عن "غرام الأسرة"، ومن هنا أيضا ما تؤدي إليه من أنواع العقد والتثبيتات ثم أنواع ندب الولادة، والسمات الخاصة بالفم والشرج والقناة البولية، ومن هنا أيضا نشأ الكثير مما وصف بأنه "أساطير" فرويدية؛ وكل هذه ليست إلا عدوانا كبيرا على المبادئ الأساسية لعلم النفس "الطبيعي".

وزيادة على ذلك فإن التفسير الفرويدي غير "طبيعي" من حيث أن حالة اكتمال الكبت فيما يختص بالنفس الشاعرة يجب أن تتلاءم مع قوة

البعث المذهلة التي للأمر المكبوت. فاللاشعور الفرويدي مدفون، ولكنه مدفون بالحياة. أما الوفاة، وطقوس الجنازة، فتظهر على هيئة كبت. والشبح المزعج يبدو في أنواع الصراع والتثبيتات والعقد النفسية والانحرافات وغيرها من الأشباح الحية في الواقع، والتي تواصل تحالفها الطويل الدائم على ذواتنا المزعوم أنها ماتت، والتي أخفقنا في السمو بها ورفعها، بل أننا في الواقع هبطنا بها إلى حضيض الأمراض العصابية والبؤس والانحرافات. وبمثل هذه الطرق المختلفة يؤدي التفسير المضلل الكاذب للاشعور إلى نتائج وخيمة العاقبة في فهم مظهر البشرية وتكوينها؛ وهو بذلك يسهم أيضا في ابتكار طرق ضارة مشكوك فيها، وفي حلول كاذبة عن توجيه الحياة البشرية في صميمها.

وهكذا فإن ما قد يبدو زلة طفيفة، وهي زلة نظرية في جملتها، يؤدي إلى ابتعاد التحليل النفسي ابتعادا كبيرا عن العلم؛ فإن انحرافا بسيطا في الأساسات يكفي لجعل المبني كله يميل ثم ينهار. فمصادر الأخطاء والفوضى ترجع إلى تنفيذ تفصيلات الخطة الفرويدية، وهي التفصيلات التي تعين المعالم الخاصة للبيت الذي بناه فرويد. ولا مفر من إن أختم قولي بأن اللاشعور عند فرويد ليس إلا أسطورة رائعة نمت عن طريق العدوان على المبادئ المنطقية.

ويخلّف هذا الاعتراض والاستنكار أثرا سلبيا حيال جملة ما جاء به التحليل النفسي، ومع ذلك فإننا نعترف بأن هيكل التحليل النفسي، واتجاهاته مساهمة ممتازة في علم النفس الحديث تنير له الطريق. وفي

وسعي أن أقول أنني أقبل قائمة محتويات الموضوع كعناوين لفصول، ولكني أرفض المحتويات نفسها، وبتعبير آخر أنني أوافق على شخصيات المسرحية، ولكني لا أوافق على المسرحية بالشكل الذي عرضت به. وأعتقد إن التحليل النفسي يقيم في معبده الملائم، ولكنه يحتل فيه مقعدا غير مقعده.

وفي رأيي أن الاندماج السيكولوجي القائم على العلاقات بين الوظائف الأولية والثانوية وتكاملها، إنما يتضمن بما فيه الكفاية الحقائق الأساسية في النظام الفرويدي، وفي الوقت نفسه يتجنب مبالغاته وتشويهاته وسفسطته الحادة العنيفة.

اللبيد والإعلاء

سألتزم في نقدي لمدر اللبيد نفس الطريق الذي سلكته من قبل. فإن أبناء جلينا الحاضر والأجيال المقبلة سيكونون مدينين لعبقرية فرويد بتقديره النواحي اللبيدية في الحياة النفسية حق التقدير. وموضوع النقاش هو مجرى اللبيد، وكذلك مضماره، وحجته لا مبدأه. وعلى هذا الأساس سأستأنف المناقشة من حيث الحجة الفرويدية، فهي في الواقع تؤلف أساس الخلاف، وتفصل بين معسكري الفرويديينواللافرويديين، وأتباع كل منهما.

أما موضوع الإعلاء فهو، بحكم نطاقه الواسع، خارج حدود هذا البحث؛ فقصة الإعلاء هي قصة المدنية. وأنبي لأقبل كل القبول مسألة

الإعلاء من حيث هي عملية في النمو، وكأداة لتوفير الصحة العقلية، لكن هذا لا يتفق تمام الاتفاق مع وجهة نظر التحليل النفسي. فالإعلاء عند الفرويديين هو إحلال الاهتمامات أو طرق البحث عن اللذة محل الأهداف الجنسية الطفلية، وهي اهتمامات ووسائل لا تعتبر جنسية بطريق مباشر، وأن تكن متصلة بها من الناحية النفسية، فضلا عن أنها من مستوى اجتماعي مرتفع.

وعلى هذا الأساس تعرض أوجه النشاط الإعلائي على أنها خلو من الناحية الجنسية "أو محظورة الغاية" ويتضمن الإعلاء أيضا اتجاهات تعويضية في وظائف مرتبة بالإجراءات الجنسية، ومنها النرجسية أو عشق الذات. وهذا اللفظ في ذاته يلخص حدود المدرك الفرويدي، وهو أن جميع أشكال عبادة "الأنا" المتأخرة الظهور المستمدة من الرضى الشهواني الذاتي الناشئ من شخص المرء ذاته من حيث هو نفسه موضوع حب. على النمط نفسه تتسامى سادية لبيدية ذاتية فتتحول إلى قسوة عامة، أو إلى اختيار المهنة كجزار أو جراح مثلا، وبذلك تقدم مخارج متوازية.

وبما أن شرعية هذين المدركين وثيقة الارتباط بمسألة النمو الجنسي النفسي التي تتغلغل في كل وجوه الحجة الفرويدية، فمن الأفيد أن نتناولها بالنقد في هذه المناسبة، وحسبنا الآن أن نبتسر النتيجة، وهي أن الفكرة الفرويديةعن اللبيد والإعلاء منحرفة بتأثير المغالاة في تقدير العامل الجنسي، كما أن الوظائف "اللاشعورية" تسير في طريق خاطئ

(ولأسباب أخرى) بفعل المغالاة في تقدير عامل الكبت. وكلا الانحرافين يلتقيان في نقطة واحدة، رغم أن نقد المعلومات الجنسية والأمراض النفسية عند فرويد يقدم عدة مسائل خاصة وأخرى عامة تستدعي الهجوم العنيف.

وعندما تقدر الفرويدية بميزان العلم، فإن نقصها يظهر بجلاء. وأهم نقص فيها هو خطأها في فهم الأوجه "اللاشعورية" في الاقتصاد النفسي، وأكبر فضائلها هو توجيه العناية إلى هذه الناحية بالذات، وما يعمل فيها من بواعث نفسية. وقد حرصت على مناقشة هذه المقومات المنطقية بالتفصيل لما لها من نتائج كثيرة ولما لي من خبرة سابقة بالسيكولوجية الفرويدية.

والنقص الكبير الثاني في الفرويدية هو شدة مغالاتها في صبغ اللبيد بالصبغة الجنسية، مما يؤثر على تطبيق التحليل النفسي ووسائل بممارسته ويشكل ما له من إغراء يستهوي الناس، كما يحدد مواد الحجة الفرويدية. وستعرض هذه الأوضاع العملية للمناقشة في الفصول التالية. وإذا قدر للتحليل النفسي أن يصير علما، أو أن تتحول ممارسته إلى فن علمي، فلا مفر من صب مبادئه في قوالب جديدة، وأن يصلح من شأن طبعه وإجراءاته؛ أما في شكله الحالي، فهو كتلة مدهشة من النتائج التي لا تجد ما يدعمها، ومجموعة من الفروض غير الطبيعية التي انتقلت إلى مرحلة التنفيذ والتطبيق، وهي معتمدة على وسائل تأملية سخية ووثيقة

الصلة بعدم تقدير المسئولية مما يجعل التحليل النفسي طريداً في ميدان العلم.

كان علي في هذا الفصل أن أعرض على المعنيين بالدراسات النفسية أسباب الرفض البات للاشعور الفرويدي، أما للقارئ العادي، فإني أعرض النتائج بأسلوب أيسر؛ فليس هناك دليل على وجود مثل هذه المنطقة. أو العملية، والوظائف التي عزاها فرويد إلى "اللاشعور" غير طبيعية. أما إجراءات "تحت الشعور" فتظهر في أمراض العصاب، وفي الأحلام، والفلتات؛ وهي واضحة كل الوضوح من نواح متعددة، أما تفسيرها الشرعي، فمسألة ضخمة من مسائل علم النفس.

الباب السابع

الحجة الفرويدية

التحليل النفسي في حاجة ملحة إلى فحص تحليلي شامل، ولتحقيق هذا الغرض وضع هذا الكتاب. وتتبع الأدلة في موضوع الفرويدية في مواجهة سائر أنواع علم النفس الأخرى يعد حجة في حد ذاته. والحجة الفرويدية إنما تتعلق بالطرق التي يستخلص بها الفرويديون "حقائقهم"، ثم يفسرونها ويصوغونها على أنها نتائج يطبقونها في ثقة ويقين. ومثل هذه الحقائق لم تأت عفوا، بل ظهرت بعد بحث مستفيض، وكان هدفها المشترك هو تأسيس موضوع.

وهذا إجراء شرعي لا غبار عليه، وكثيرا ما يكون ضروريا، لأن الباحث لا يستطيع أن ينطلق في المسائل العامة على غير هدى. والحقائق الهامة في جميع مجالات البحث ظهرت من السير في نفس الطريق الذي سلكه الفرويديون. ومثل هذه الحقائق تصطبغ في العادة بالنظريات؛ ولا نعترض على هذا أيضا، إذا مُيز على هذا الأساس، ولكن قيمة الحقيقة والنظرية واحدة، فهما كرأس المال وما يدره من ربح في مؤسسة استغلالية واحدة. ومن الجائز أن تكون "أوراقه" كبيرة الأهمية في سوق العلوم. ومن الجائز أن تكون طفيفة ومشكوكا فيها، بل تافهة، أو ما

هو أسوأ من ذلك. وهذه العبارة تلخص طبيعة الأدلة المقدمة في قضية التحليل النفسي.

وفي رأيي أن الحجة الفرويدية تغلب فيها السفسطة، فتجدها في كل الأهداف والتفاصيل لسبب بعينه أو لأسباب أخرى. ولهذا كان تقديري النهائي لها ضعيفا، رغم أن هذا التقدير غير شامل، ومن غير تفريق بين المسائل المختلفة. وأني لواثق من إمكان الحصول على تحليل نفسي معقول، حتى أنني آسف للاتجاه الذي سارت فيه هذه الحركة الواعدة التي تبشر بنتائج طيبة. وفي رأيي أن التحليل النفسي مخطئ في منطقه مما حرمه بلوغ المستوى العلمي. ويضاف إلى هذا أن مسلكه المنطقي "مضطرب" ضار بالسعادة العقلية عند الناس.

وتقوم نظريات فرويد على نسيج من فروض تأملية بشكل غريب، مما جعل نتائجها في صراع حاد مع الأوضاع المستقرة التي دعمتها الأدلة السيكولوجية تدعيما جيداً من عدة مصادر. وهكذا تتجاهل الحجة الفرويدية الأوضاع المألوفة وتجرفها لتشمل مدى التأمل كله مما يقبل بشكل سطحي، وينغمر إلى حد السخف البالغ. فحجة فرويد متعاطلة سخيفة، مضللة خداعة، طموح، خبيثة، ومتضاربة. وقد انتشرت انتشاراً واسعا من غير تقدير للمسئولية. وفي هذا المجال لا أملك إلا أن أذكر بعض نماذج من أخطائها الضخمة واعتداءاتها الكبيرة مما يظهر في تفسير الفلتات والأحلام، وفي تعقب مجرى النمو الجنسي، وفي تقدير سمات الخلق.

ولا ريب أن هذا حكم كاسح، واتهام شامل أعرف مضمونه كل المعرفة. وهو يحمل بين طياته اتهاما آخر إذ يفترض أن مئات من ذوي العقليات القديرة اندفعوا إلى ارتكاب أخطاء خطيرة، فأضاعوا مواهبهم، وساعدوا عمليات الاضطراب والنكوص؛ وهذه الأحداث شائعة في تاريخ الآراء الملتوية الكثيرة الدروب. وهذا الفصل في ذلك التاريخ فريد من نواح متعددة. ومن واجبي أن أعرض على القارئ فرصة الحكم على الأسس التي بنيت عليها نتائجي. وهذا يتضمن رحلة طويلة، لأن النظرية الفرويدية واسعة المجال مترامية الأطراف، وفي كل من نواحيها أجزائها أطلب إلى القارئ أن يذكر مواقف الفرويديين كما عرضتها، وكانت في بعض الأحيان مشفوعة بتعليقاتي النقدية. وإذا ظهر الطريق طويلا، فلنذكر أن المؤلفات الفرويدية ضخمة إلى حد مذهل. ومن واجبي أن أعرض على الأقل وثائق منتقاة تمثل ما أعارضه من نتائج.

استدلال بالعوارض

يصر فرويد على أن مراتب معينة مألوفة من الأخطاء العقلية كزلات اللسان، أو القلم، وسوء التناول، والنسيان والفلتات عامة، إنما هي حيل نفسية لها بواعثها، أو هي نوع من التسرب من "اللاشعور". وأول عقبة تواجه الحجة هي أنها غير قابلة للتطبيق في الجانب الأكبر منها، وذلك من حيث نظام السلوك المفروض أن يتمثل فيه المبدأ. أما مدى أهمية ذلك، إن كان صحيحا، ومتى يمكن أن صحيحا، فمسألة أخرى. وتعتبر الحجة هذه الزلات الشائعة أجزاء من بواعث نفسية أفلتت باقتحام

حاجز المقاومة اللاشعورية. وإذا ما انطلقت من معتقل المكبوتات فإنها تتسلط على عضلات العادات المنظمة وتحركها.

وهذه هي الفلتات الإيجابية (الحركية)؛ أما النسيان، وفقد الأشياء (إلا إذا كان الفقد ناشئا عن طريق وضع الأشياء في غير محلها) فيقال عنها أنها تطرد من اللاشعور، فهي فلتات سلبية. وعندما تفسر الفلتات وفقا لهذه القاعدة، فإن "علم الأعراض"الفرويدي يتجاهل التفسير الواضح والملائم، وهو أن الجهاز العقلي البشري ناقص، وأن العقل يقع في هذه الأخطاء باستمرار، فالخطأ سمة بشرية. ولكن يظهر أنه من خواص الفرويديين أن يتنبأوا بأسباب خفية غامضة، ويفضلوها على الأخرى الواضحة كل الوضوح.

وكل إنسان يعرف مدى استعداد العمليات المنسقة تنسيقا دقيقا للتصدع مما تفسره الكتب المدرسية الأولية في علم النفس. "والسبب" الواضح للفلتات من النوعين الإيجابي والسلبي هو أنها تظهر كنتيجة "طبيعية" لا مفر منها بفعل انصراف الذهن إلى شيء آخر، أو بفعل الارتباك، وعدم الانتباه والغفلة. وهذه تحدث بطريقة ثابتة، وأن تكن غير منتظمة، وتتناول في الغالب مسائل تافهة، وأكثرها يتسم بالطابع الإنساني. والتعرض للفلتات ضعف بشري عام مؤلم، متعب كل التعب، وله ثمنه الكبير. ولا يخفي أن كل شيء من الأشياء المريحة والثمينة معرض للضياع، أو إن يوضع في غير مكانه، أو أن ينسى أمره في شتى

نواحي النشاط البشري. وفي كل مصلحة للسكك الحديدية، وكل متجر كبير تجد مكتبا خاصا للأشياء التي يعثر عليها بعد أن يفقدها أصحابها.

ولو كانت كل سلعة تصل إلى تلك المكاتب تنطوي على قصة فرويدية،– فتفقد لأنها مرتبطة بذكريات غير سارة– لما أقبل الناس على المطالبة بها، واستردادها في لهفة؛ ولما أعلنوا عنها، وقدموا الجوائز نظير ردها. ولعل الإنسان الوحيد الذي ينجو من إنفاق شيءمن وقته في تتبع مفاتيح فلتاته اللاشعورية هو المتزمت المتعصب للأخذ بالنظام في دقة متناهية؛ فالفلتات لا شعورية من حيث تناولها بنصف انتباه في حالة الانشغال بشيء آخر، وعندما يحتم على ذاكراتنا أن تسقط بعض محتوياتها لأن عقولنا شديدة الانهماك في أمر، أو تستجيب لطلبات لا حصر لها. ومن الجائز أيضا أن نفسر أخطاء تلبية عاملات التليفون والموظفين لطلباتنا، على هدى أنواع الصراع الفرويدي الناشب في صدور أولئك العمال والموظفين بسبب مسائلهم الخاصة. ولا ريب أن هذا "نتيجة عرجاء واهية"؛ وسيتلوها أخرى تتساوى معها في العجز.

وهنا يخامرنا شك جوهري؛ فإذ كان فرويد، ذلك العقل المدبر للتحليل النفسي، في تقديمه إحدى حججه إلى أقصى مداها يتجاهل مثل هذه المسائل الواضحة وضوح الشمس في رائعة النهار، فكيف يستطيع الإنسان أن يثق بأية نتيجة من النتائج التي وصل إليها؟.

ولعل الاستشهاد بالدكتور "تاننبوم" Tannenbaum ينير لنا الطريق، فقد كان ممن مارسوا التحليل النفسي فترة من الزمان إلى أن

أقتنع بخطئه وخطأ وسائل التحليل. وقد بين كثيراً من الأخطاء في سيكولوجية الخطأ على الطريقة الفرويدية. وروى حدثا منزليا، فقال أن السيدة "ت" كانت تقشر بطاطس عندما دعيت فجأة وفي وقت واحدة للاستجابة على ثلاث طلبات ملحة عاجلة، إذ دق جرسا الباب والتليفون، وفي الوقت نفسه غلى الحساء حتى فاض من إنائه، واحتارت لا تدري أي الأعمال الثلاثة تؤدي أو لا. وفي عجلتها وارتباكها جرحت إبهامها بسكين تقشير البطاطس.

ومن الواضح أن اشتغال السيدة بمجموعات من العادات الحركية المتضاربة تضمن عدم الانسجام بينها، ومن ثم حدثت الزلة، وحدث جرحها لإصبعها. وفي وسع أي إنسان أن يبتكر تفسيراً فرويديا ينطوي على أنها تعاقب نفسها بنفسها، أو تشعر بذنب ما. ومن الميسور أيضاً أن نجد رموزاً لشيء ما في الإبهام والسكين والبطاطس أو البصل أو أي نبات آخر يسبب الحدث، ولكل منا أن يقدره وفق مرامه سواء أكان رمزاً شريراً داعراً أم رفيقاً؛ ولكن ما ضرورة هذا؟ ولماذا يتفق ظهور القهر الداخلي مع الاضطراب الخارجي؟.

وإذا ما تخلينا عن قواعد الذوق والمجاملة، قلنا أن الفرويدي المتحمس ينسى الحلول الواضحة لأنها لا تلائم نظريته، أما الإجابة العلمية فهي أن باعثاً ضعيفاً– وليكن من الطراز الفرويدي الذي فرضت عليه الرقابة– لا يمكن أن يحتل مكان العوامل الأخرى التي تدخل في حساب سيكولوجية الخطأ. والخلل الأساسي في كل الفرويدية القائمة

على الأعرض، وهو التجاهل الواضح لعمليات العقل المألوفة. ولا نزاع في أن القواعد الفرويدية قد تنطبق ببراعة على بعض الحالات، وأحيانا وفي حالات أخرى تنطبق انطباقا جزئياً. ولم تكن كل هذه الاتجاهات مهملة كل الإهمال قبل فرويد، ولكن الفضل يعزى إليه في تمييزها بجلاء، فهو الذي وضع هذه الأحداث في نطاق البواعث النفسية، وهو الذي أضاف إليها لازمات معينة تعد هي الأخرى- بوصفها صفات ثانوية لخلق المرء- أعراضاً لها دلالتها.

وستحتل الزلات ذات الدلالة مكانها بين الآليات العقلية التي قد يوحى فشلها العرضي أو يكشف عن "محول" اللاشعور الذي يكون في غير موضعه، فيخرج مجرى التفكير أو السلوك عن الاتجاه الذي قصد به أن يسير فيه. وعلة الفصل الذي كتبه فرويد هي أنه بدل أن يكون خفيفاً بسيطا، ومتوخيا للحذر والإيحاء انغمر في سلسلة من ألعاب بهلوانية عقلية مربكة جعلت من الحبة قبة، ومع ذلك فجوهر حجته صحيح. أما بُعد البواعث وتحريف الحيل التي استغلت في التفسير، فإنها جعلت موضوعا كان من الجائز أن يكون إسهاما علميا متواضعاً- لو أنه نفذه بحكمة- جعلت منه لونا من مغالطات الدعاية وسفسطتها.

وبمجرد أن نقرأ أمشاج العينات المختلفة الألوان التي قدمها فرويد للأعراض ذات الدلالة عنده، ولا سيما إذا ما أعدنا قراءتها، فإننا نهم بالتساؤل أن كان هو أو نحن قد فقدنا عقولنا. فإن كانت القراءة الأولى عابرة، فما على القارئ إلا أن يعود ويقرأ بعين الناقد ما عرضه وفسره

فرويد المحلل من فلتات، وما عرضه منها في تحليله لذات نفسه. فيراه في الفلتة الأولى شارد الفكر، ويصعد من درجات السلم أكثر مما يريد؛ ويجده في أخرى يلتقط في سرعة شوكة رنانة بدل مطرقة؛ وفي ثالثة يسقط في حركة غير رشيقة غطاء أداة من على مكتبه المزدحم بالأدوات؛ وفي رابعة يركل في لحظة نشوة حذاءه الذي يلبسه في المنزل فيسقط تمثالا صغيرا. وبعد هذه القراءة الثانية الدقيقة، على القارئ أن يسأل نفسه في جدية تامة إن كانت تلك التفسيرات علما حقا أم هي مجرد مزاح صيغ في قالب علمي.

ومن منا لم يتجاوز مقصده في أثناء سيره عندما يشت عقله مما هو بصدده إلى التفكير في بعض مسائله الخاصة؟ ومن منا في عجلته لم يلتقط شيئاً بدلا آخر؟ ومن هو ذلك الذي لم يقلب بعض الأشياء سهوا؟ ومن منا لم يخضع لدافع فجائي؟ وأخفق في أن يكون حريصا محتاطا لنفسه؟

الواقع أن ألفاظ شرود الفكر، والعجلة، وعدم الانتباه، والاندفاع، إنما هي تعليل كاف لهذه الفلتات؛ وهي أيضا التفسير الملائم الذي تقتضيه الفلتات نفسها؛ أو يمكن أن تسمح به. ولكأن تتخيل نوع الحياة التي نعيشها إذا وإلينا أجزاء تحليل نفسي لكل ما نعمله من فلتات.

ويبدو أنه خير لنا أن نعود إلى عهد الخرافات عندما كانت كل حركة تافهة تفسر على أنها نوع من التطير، وعندما كان كل حدث يؤخذ على أنه بشير خير أو نذير شر؛ حتى التوافه من أنواع السلوك

الفسيولوجي من العطس إلى التهاب الأذن أو خدر الأطراف، كانت تفسيرات على أساس مبادئ حتمية سحرية مزعومة. وما يثير الحنق في هذه التفسيرات، ليس ما تحدثه من مضايقات، بل سخف إجراءاتها، فبمثل هذا المنطق يستطيع المرء أن يثبت أي شيء، أو لا شيء على الإطلاق. وإن كانت هذه هي البراهين عند الفرويديين، فإني لا ألوم كل ذي عقل أو كل مشتغل بأمور مفيدة مربحة، إذا ما عف ورفض أن يستجيب لنداء أحد الفرويديين إذا أحب أن يتحدث إليه بالتلفون.

ومن الشائع أيضاً في استخدام الفرويديين لحجة الأعراض والعلامات، إغفالهم للمألوف. ويبدو كأن الغرور يدفعهم إلى جعل ما يعرفه كل إنسان كشفاً مبتكراً من اكتشافاتهم. وهذا الميل إلى إحداث صخب قوي بشأن مسائل تافهة من الصفات الثابتة في الفرويديين حتى أنه ليثير الانتباه؛ وهو يكشف في وضوح عادتهم العقلية، وعقدة التحليل النفسي. وهي عقدة مسئولة أكثر من أي عقدة أخرى أنشأتها الطبيعة، أو اصطنعها الإنسان، عن جانب كبير من المؤلفات الفرويدية.

وتحدث فرويد عن ناحية من مهنة التمثيل المسرحي كما تؤديها "الينورا دوز" Eleonora Duse مما يبين "من أي أعماق تستقي فنها". وقد سار جونز Jones على منواله وأضاف قوله "أن التمثيل يوضح تعمق الممثلة العظيمة في دراسة الخلق". وما هو هذا "الفعل ذي الدلالة" العميقة؟ لا شيء أكثر من أنها في لحظة تأمل وعلى أثر شجار مع زوجها، ودخول حبيبها كانت تعبث بخاتم زواجها، فتخلعه، ثم تعيده إلى

مكانه، وأخيراً إزالته... مجرد عملية مسرحية واضحة كل الوضوح، وبشعور تام، لأنها إذا كانت لا تؤديها، فإن جمهور النظارة لن يستطيع تتبعها بإدراك، وبالتالي يضيع التأثير المنشود.

مثل هذا الإسراف في الإكبار من شأن التوافه كثير في التعاليم الفرويدية مما يدعو إلى التشكك، ويشعر كل قارئ ناقد بأن العلم والطابع العلمي وسيلة استغلالية في يد محام يريد خداعه، أو فرض شيء عليه. وقد لوحظ مراراً أن العلم يجعل المجهول معروفاً، والمعروف أكثر وضوحاً. والعلم الكاذب في نزوته الضالة يحاول أن يضفي على ما هو مألوف جواً مفتعلا من التمويه والغموض. وعلم "الأعراض ذات الدلالة"، مثل كثير غيره في الحشد الوافر من المكتشفات الفرويدية، يسير دون أن يعني بمظهر سليم معين اتفقنا على أن أفضل وأكرم اسم له هو الذوق السليم.

حدود الحتمية

مما لا نزاع فيه أن وجها أو آخر من وجوه الحجة الفرويدية ينطبق في بعض الأحيان، انطباقا كثيراً أو قليلا، وبطريقة شبه مقبولة أو محتملة؛ ونحن في لعبة دائمة نميل فيها مرة إلى الهزل وأخرى إلى الجد بين تعبيراتنا وبين ما نتعرض له من كبت. ومن المؤكد أن شحنات ضعيفة من جملة بواعث نفسية ثانوية تختلط بالبواعث الهامة، فإذا ما أخفقت في اختلاطها أنبأت عن مصدرها الذي لم يكن ليخطر لنا على بال، ولكن

هذا شيء من الأهمية في النطاق المعقول. وكل اعتقاد، أو نظرية أو تفسير يفلت من هذا النطاق عن أي طريق، يتخذ شكل الوهم والخداع.

ولا يكون الأمر في الحجة هنا نزولا بها إلى حد التسفيه، ولكنه إحكام لهذا التسفيه، وهذا نوع من الغلط المنطقي (المغالطة) امتاز به الفرويديون إلى درجة يتحمل معها أن يعرف في المستقبل باسم "المغالطة الفرويدية"؛ فالمحلل النفسي، أكثر من أي إنسان آخر، في حاجة إلى المؤهلات التي أدعاها، وهي أن نظرته إلى الأمور أصدق وأعمق وأكثر موضوعية من أصحاب العقول غير المدربة. فإذا كان ظفره بالنظرة العميقة قد أعماه عن رؤية المنظر الواضح على السطح، لكان حالة أجدر بالرثاء والأسف مما قبلها. وإن كان اعتناق الفرويدية يحتم على المرء أن يكون متعصبا في إخلاصه لها، فإن هذه "الفلتة" من العسير أن توحي الثقة في صلاحية المحلل النفسي لهداية عقل ضل وغوى إلى الطريق المستقيم. وتوجيه هذا الاتهام الشامل إلى الحجة الفرويدية يقصى عنها كثيرين من الباحثين الذين يعطفون على أسسها لأن الإفراط في الاستدال يؤدي إلى التورط في غير المعقول.

ومن الجائز أن تكون مغالطة التسفيه هينة وضعيفة نسبيا في الفلتات الأربع التي رويناها عن فرويد، ولكنها تصير فاضحة عند التطبيق على الفلتات السلبية كحدث نسيان الشاب الذي رافق فرويد في سفره، لإحدى الكلمات من شعر فرجيل (الباب الثاني)، أو كالفلتة الإيجابية عندما أخطأ فرويد في وضع القطرة في عيني السيدة العجوز. ولو كان

هذا نموذجا للعادات العقلية عند محلل نفسي لكان من العسير أن يرضى إنسان بأن يضع سعادته الروحية في يدي أحد أتباع هذه المهنة.

ولقد توقفت هنا قليلا كي أحلل أخطاء الطرق الفرويدية بالشكل الذي طبقت به على العلل النفسية في حياتنا اليومية، لعدة أسباب: فهي ليست شديدة الضرورة للنظرية الأساسية التي تتركز حول أنواع العصاب، وهي كثيرة التنوع، تمس أنواعا مختلفة من السلوك العادي المألوف؛ والمبدأ الذي تنطوي عليه قويم، ونظريته لا غبار عليها، ومألوفة إلى حد ما، وهي توضح ما عُرف به الجدل الفرويدي لسوء الحظ من التجاهل، والافتراض، وحمل ما يجوز تصديقه إلى أقصى مداه، فكانت النتيجة النهائية فوضى، تحريفاً، وأكاذيب.

ولقد أطلت الكلام في أخطاء الطرق الفرويدية كما طبقت على العلل النفسية في حياتنا اليومية، لسبب آخر كبير الأهمية، وهو أن أوضح من البداية أن التطبيق المنطقي المعقول لمبادئ الحتمية له حدوده. فهذه الحتمية هي السمط الذي انتظمت به "الحبات" الفرويدية. ونحن جميعاً نسلم بالحتمية لأنها تتضمن مبدأ السبب والنتيجة في عالم الفكر، ولكننا نسيء إلى هذه الحقيقة إساءة بالغة إذا افترضنا أننا نستطيع أن نتعقب مجرى الحتمية في تفاصيل دقيقة، وأن نصر على أداء ذلك بأية وسيلة كانت، فمن هذا الإجراء خطأ الشعوذة في قراءة الخلق، وخطأ الخرافات أيضاً.

وكثير من ألوان العلم الكاذب تنشأ من التعيين بطريقة أصلية خاطئة للمقدمات وما يليها؛ وهذا طراز آخر من الخطأ؛ أما إرهاق مبدأ صحيح وتحميله ما هو فوق طاقته، فعادة ذهنية توجد غالبا عند من يتبعون مقدمات كاذبة؛ فإن تجاهل الواضح وإهمال التفسيرات المألوفة والمتبادلة، يحدث خطأً واحداً، كما أن تجاوز حدود الحتمية يحدث الخطأ الآخر. وفي الأعمال والتصرفات ذات الدلالة، وفي الأحلام، وفي سلوكنا عامة يوجد كثير مما لا مفر من عدم تعليله. والنظرة المعقولة إلى مبدأ الحتمية تسلم بهذا الوضع. وتوجيه الأسئلة، والإصرار على الظفر بأجوبة دقيقة كل الدقة إذا تجاوزا حداً معروفا واضح المعالم، لا يعدان علامة حب استطلاع غير عادي، بل دليلا على اهتمام غير منظم ولا منسق. والإسراف في السير في هذا السبيل وبالشكل الذي أتبعه التحليل الفرويدي يؤدي إلى إفساد ما فيه من فضل.

حجة الأحلام

الأحلام تفسيرها:

تستند الحجة الفرويدية للأحلام على مجموعة من الفروض، وبعضها قابل للتحقيق، وجزء آخر مقبول ظاهريا، أما أكثرها فنسيج من أشباه الحقائق، مضلل كفروض بغير سند، وهذه هي التي تحدد مجرى التفسير وتعينه مقدما. والفكرة العامة تبدو وطيدة الأساس من حيث أن الأحلام تمثل نظاما لعملية نفسية قريبة من التخيلات الأولية، وهو نظام

توفيقي بين التعبير والكبت؛ هو تسرب لبعض اتجاهات لا شعورية؛ هو تأليف رواية رمزية تنشأ حوادثها الظاهرة من معان أكثر عمقاً في بواعثها.

ومن أجل هذه المعلومات تعد سيكولوجية الأحلام مدينة لطريقة التحليل النفسي. ولكن البناء كله يتعرض للخطر عندما ينفذ برنامج التفسير بطريقة تعسفية وسخيفة في بعض الأحيان؛ وعندما تقوم الحجة على فروض مثل القول بمراحل معينة للنمو الجنسي، وتتجاهل كل العوامل الأخرى، اكتفاء بالبواعث أو الرغبات في الحلم، فتقحم في الموضوع مسائل مبهمة مشكوك فيها، وبغير برهان. وعندما تقدر نظرية فرويد عن الأحلام فإننا نجدها ناقصة إلى حد كبير من حيث هي نظرية، ومن حيث تطبيقها، ولا عبرة بمدى عمق ما فيها من بصيرة. والنتيجة هي ظهور لون جديد كل الجدة من تفسير الأحلام، له صبغة علمية كاذبة، ولكنه ليس دراسة علمية للأحلام.

ورفضي للجانب الأكبر مما قدمه فرويد من عام وخاص في كتابه "تفسير الأحلام" ولا سيما ما قدمه أولئك المفسرون الذين تبعوه، وقد كانوا في أول أمرهم يسلسون قيادهم لإرشاد أستاذهم ثم انطلقوا بعدئذ على هواهم، رفضي هذا يمثل احتجاجا على أي نوع من أنواع السيكولوجية التشخيصية التي تقوم على مثل هذا المنطق المفكك الذاتي حتى أن نتائجها لا تظفر بالتبرير العلمي، بل إنها لا يمكن أن تحصل عليه.

ولست أشك في وجود بعض الأحلام على الطريقة الفرويدية الكاملة، وفي وجود كثير من الأحلام المركبة، أو ذات البواعث المتعددة، والمحتوية على عنصر فرويدي؛ وأوافق أيضا على أنه من الجائز، بل من المقبول في كثير من الحالات أن نفسر أحداث الأحلام على أنها تعبيرات رمزية مستترة عن رغبات شهوانية مكبوتة، أو عن اتجاه مستمد من تلك الرغبات. هذا التفسير مسموح به ومقبول في ظاهره في كثير من الحالات، وربما كان أفضل ما يمكننا الظفر به؛ إلا أن التأكد من فك طلاسم هذه الأحلام أمر غير ميسور، وتفسيرها القائم على مثل هذه التخمينات إنما هو مشروع لا يمكن النصح بإتباعه، وذلك رغم بعده عن ألوان السخف التعسفي الذي تلجأ إليه كتب التفسير الشائعة التي تجدها في أكشاك بائعي الصحف. والباحث النفسي المنطقي يجب أن يعف عن هذا التفسير حتى في مجال التحليل النفسي، إن أراد أن يظل باحثا جديا في الأحلام.

والدراسة العلمية يجب أن تبدأ بجمع كل الأحلام بغير اختيار، ثم يترك تفسيرها إلى قضاة محايدين. وليس هناك من تدبير أقل من هذه الدراسة لنستطيع أن نضع فروضا مثل تلك الفروض التي ذكرها فرويد على أنها حقائق. ومن أمثلتها أن الأحلام تقي النوم، وأنها لا تهتم البتة بالتوافه بل بالمسائل الهامة، وأنها تعبر دائما عن رغبات. ويذكر التحليل النفسي هذه المقترحات وسواها بغير برهان كاف، بل أنه ليرددها بغير الاحتياطات العادية الضرورية الواقية لعمليات التوازن والرقابة، مما يحرص عليه أي باحث تجريبي مسئول. أن الطريقة الحذرة في البحث

ليست مألوفة على الإطلاق في روح المنطق الفرويدي. ولوروعيت فيه لما نمت تلك المجموعة الضخمة التي يتفاخرون بها من نتائج التحليل النفسي.

ويمكننا أن نتنبأ ونحن في أمان، بأن أي فحص من هذا القبيل سيكشف ولا ريب عن حالات تؤيد كلا من هذه الآراء والفروض، على أن هذا لن يؤدي إلى تعميمات شاملة واضحة المعالم من النوع الذي تحتاج إليه النظريات الفرويدية، رغم أن حاجة الفرويديين إلى هذه التعميمات جعلتهم يقولون بها. فالتلميذ الفرويدي يضع الإجابة في مقدمة عقله، ثم يسعى للوصول إلى الحل المؤدي إليها، كما يفعل التلميذ الحائر في علم الحساب عندما يستخدم وسائل حسابية فذة وغير مسلم بصحتها بغية "الحصول" على إجابة تشبه الرقم المذكور في آخر كتابه على أنه الإجابة الصحيحة لمسألته.

وأيا كان مقدار الحقيقة في النظرية الفرويدية عن الأحلام، فإن الحكم على البناء كله، من حيث المبادئ والحجة، إنما هو حكم سلبي ولا شك: فالقضايا الخاصة بالأحلام التي وضعت واستقرت على أنها صحيحة لم تتأيد صحتها، فضلا عن اشتمالها على مجموعة كبيرة من القرائن المضادة لإثبات صلاحيتها. وكذلك الحال في تفسير الأحلام التي تم تنفيذها على منوال تفسير الأحلام الشعبي الشائع الذي لا يمكن الدفاع عنه. أن نظرية ناقصة، أسرف في إحكامها كل الإسراف، وطبقت بشكل خيالي لا تكاد تكون جديرة بذلك الفحص الدقيق المحكم الذي

يتطلبه تفنيدها. ومن الأغراض التافهة أن نناقش في دقة عدم احتمال عبارات طرحت دون أي تقدير للمسئولية.

ولكي لا نترك الحجة بغير توضيح، فإننا نعرض لنظرية الكابوس في التحليل النفسي. فمن العسير على الإنسان أن يفهم كيف أنها وقاية للنوم بينما هي من أكثر الأحلام إزعاجا للإنسان. وفي تفسير "أرنست جونز" لفرويد، جعل من هذا استثناء يثبت القاعدة ويبرهنها؛ فيقول: "عندما يكون تحريف تلبية الرغبة غير كاف لإخفاء طبيعتها المكبوتة عن الشعور، أو بعبارة أخرى عندما يكون الصراع كبيرا إلى درجة يتعذر معها الوصول إلى اتفاق، فإن النوم ينتهي ويتنبه الإنسان إلى خطره".

ويقول فرويدي آخر، أن "الأنا" النائم يدق جرس الإنذار الرقابي، ويوقظ زميله في النوم، وهو "الأنا الأعلى" ليساعده على إسكات "الهو". وجرس التحذير هو الكابوس. فإذا ما عدنا إلى تفسير "جونز" وإخلاصه إلى نظام التحليل النفسي، فإنه يقول أن "الاهتمام" العميق الوحيد الجدير بمثل هذا الإجراء الصارم إنما هو اهتمام جنسي، وبالتحديد هو مضاجعة المحارم. وهكذا تنص القاعدة النهائية على "أن هجوم الكابوس هو تعبير عن صراع ذهني بشأن رغبة مضاجعة المحارم".

وبما أن هذا هو المطلوب، فإن الشيء الوحيد المتبقي بعدئذ هو إيجاد حيل تفسيرية بغض النظر عن أنها غير منطقية وغير سيكولوجية، شأنها في ذلك شأن حيل التلميذ عندما يلجأ إلى طرق غير حسابية ليجعل طريقة الحل تتفق مع جواب المسألة. وناقش الدكتور "جونز"

أسبابا أخرى للكابوس ولكن بحذر، فميز تأثير وضع النائم، وعمليات الهضم، والتنفس الخاطئ، وميز أكثر من أي شيء آخر مدى الاستعداد الشخصي، فإن بعض الأفراد بحكم بنيتهم العصبية يكونون معرضين للكابوس، كما أن آخرين لديهم مناعة تامة تقيهم شره؛ ولكن عبارات جونز التي تحتها خط، والخط من وضعه هو، توضح عدم التحفظ الذي يفسد كثيرا من الحجة الفرويدية. وهو لا يقنع بترديد عامل للتحليل النفسي ومنه الناحية الجنسية، فهذا العامل ولا ريب يعمل في (بعض) أنواع الكابوس؛ ولكن جونز يصر على أن هذا العامل هو الأساسي، وهو في تفاصيله تعبير عن العقدة الجنسية الأساسية، وهي الإجابة الفرويديةالعامة الشاملة عن كل أنواع الاضطرابات النفسية.

تقديس رموز الأحلام

أن الإصرار على إتباع طريقة معينة في التذليل يحول سيكولوجية الأحلام إلى ذلك الطراز الشائع في تفسيرها وهو المسئول أيضا عن معجم التحليل النفسي الفرويدي بشأن "رموز الأحلام". فبرغم كل ما حوى من تأكيد ينم عن سعة العلم، فإن مدى احترامه لا يكاد يتجاوز نصيب "كتب الأحلام" الشعبية التعسفية والخيالية. وفي استمساكه بحتمية دقيقة هلاكه، وفتواه مطلقة نهائية، تقول: "من القوانين الدائمة الصارمة في تفسير الأحلام وجوب الوصول إلى تفسير لكل تفصيل من التفاصيل واستخدام ألفاظ "قوانين" و"دائمة" و"صارمة" و"وجوب" و"تفصيل"، هي بالذات التي تتجاوز النطاق المنطقي المقبول

للموضوعي، والشرك الثاني هو تقديس الرموز، فبدون هذا يكون تفسير الأحلام، سواء أكان شرعيا أم غير شرعي، محدودا في عملياته.

ومن الواضح أن اصطناع الرموز واسع المدى، ففيه الاستعارات، والتشبيهات، وأنواع التمثيل؛ بل أن الكلمات نفسها رموز متعددة. ومن "الطبيعي" أن العقول التي تشترك في التجارب، والانفعالات، وفي التقاليد، والبيئة، ستنشئ رموزاً مشابهة؛ ومع ذلك، وكما أدرك فرويد كل الإدراك، فإن أكثر الرموز شخصية، وكل حالم يستخدم قاموسا خاصا به. و"التداعي الحر" مطلوب ليعين مفتاح الرمز عند ظهوره في عقل الفرد. والواقع أنه توجد دراسة شرعية للرمزية، زودها التحليل النفسي بحوافز جديدة.

ويونج هو أكبر السيكولوجيين الباحثين في ميدان الرمزية[٧] بغير منازع. وهو يقدرها لما تنطوي عليه من نزعات العقل واتجاهاته؛ ولأنها تنطوي على طريقة ومزاج الحركات العقلية الأكثر تحررا: وهو يهتم بأمرها كذلك لاستخدامها في التحليل النفسي ويتعقبها في المجاهل العميقة، وفي أسمى أسرار الروحانية.. والرمزية مقبولة في أحسن صورها، إذ يغلب

---

(٧) استغل هذه الفرصة لأكرر أن استعدادنا لأن نحلم، ونستخدم الرموز، والإجراءات الخيالية الشبيهة بها، له قاعدته في طبيعة الخيال، وهي تحتل مكانها الممتاز في الحركات الذهنية من عقل الطفل، ولكل هذا وجه فرويد اهتماما متجددا ومستنيرا. وعن طريق علم النفس الفرويدي احتل الخيال وأحلام اليقظة مكانتهما. وبما أن فرويد يستخدم الميل إلى التخيل كعامل في نمو أمراض العصاب عن طريق "ثبوت" اللبيد، فإن المناقشة ستتجدد في هذا السبيل. أما بشأن قيمة الخيال، وعلاقته بمبدأ اللذة واستخدامه للرموز فهناك موافقة معقولة. (المؤلف)

عليها الوضوح؛ أما في أسوأ حالاتها، فهي لا تعدو المدلول الشعبي لتفسير الأحلام، وأن تكن مثلها واضحة بسيطة.

وعامل البواعث النفسية في الأحلام، وفي الرمزية المتسترة لتعبيراته عامل معقد بصفة خاصة بفعل النغمة الجنسية؛ والنتيجة هي تفسير أحلام مصبوغة بالصبغة الجنسية. وهذا في أسوأ صورة لون فج من ألغاز الكلمات المتقاطعة الفاجرة؛ وفيه تجد كل شيء وقد اكتسب صفة جنسية، فالملوك والملكات والأطفال والثعابين والجياد والسمك والتين والتفاح والبذور والموز والقصب والمظلات والصناديق ودورات المياه والأفران والمركبات والبراميل والمسدسات وأنابيب المجاري والأواني الذرارة والأهداف والشرفات والنوافذ والأبواب والمداخل والمخارج والطائرات والمناطيد والماء والمناظر الطبيعية والتلال والصعود والهبوط والدخول والانسحاب والطيران والسقوط والسباحة والتجديف والتأخر عن مواعيد القطارات والتجول في الظلام كل هذا يرمز إلى الأعضاء الجنسية سواء للذكر أو للأنثى في تصوير التحليل النفسي الذي وضعها في الجانب غير المراقب من قاموس الأحلام.

أما الجانب المراقب، فإن تصورات التحليل النفسي سمحت له بأن يضع فيه جميع الأعضاء والعمليات الجنسية، وما يتعلق بها، مما يسبقها أو يتبعها. وهكذا نشأ معجم[٨] مترادفات التحليل النفسي. أما

---

(٨) أن تطرف الطريقة يدعو إلى السخرية وبخاصة في عبارات علمية، فالعلم قدوة في إجراءات البرهنة القاسية ويعد كتاب "بيردوود" Bjrdwood "العناصر الجنسية في الكتب الخمسة الأولى لإقليدس" أكثر فكاهة، وهو في جوهره ليس أكثر تكلفا من عزو الجنس إلى القصب والمواقد. والخط

ضروب التحريف الضرورية لتأويل مواقف الأحلام بأنواع صراع جنسي، فتجمع بين الإهانات الشخصية والأضرار بالمنطق. ومن الواضح أنه في وسع أي إنسان يمثل هذا الميل أن يتناول أي حلم، ويخضعه لهذه الإجراءات، فيخرج الحلم مصبوغا بالطابع الجنسي.

لطرق الأحلام الفرويدية موارد أخرى؛ فإن التوصل إلى الأمور المرتبطة بكل محتوى من محتويات الحلم واحداً بعد آخر يتيح للفرد أن يتغلغل في الذكريات المستدعاة من الأحداث المحايدة أو غير الجنسية إلى أن يصل إلى شيء يتيح التفسير المطلوب؛ ففي كثرة الذكريات ما يوصل حتما إلى إصابة الهدف. فإن كان المعنى خاطئا فإن رمز الحلم يتحول إلى المعنى المضاد. وإذا ما اعترف المريض وسلم، أو حتى تطوع بتقديم المعنى الجنسي المذنب. كان هذا هو الإثبات المطلوب للنقطة. أما إذا أنكر، فإن الترابط يعد قائما في اللاشعور، أو إن مقاومة المريض تحول دون إدراكه.

وهذا الإجراء الاختياري لا يستبعد أن الطريقة قوية، فإن الأحلام بحكم طبيعة الأشياء تكون مبهمة في بعض الأحيان، ومحدودة في أحيان أخرى من حيث أشارتها إلى ضروب الصراع والرغبات الوثيقة ومنها الجنسية. ولا يقنع الفرويديون بهذا القدر، فإن استمساكهم بعقيدتهم

المستقيم المنصف للدائرة يكاد يكون قضية لا يليق عرضها على عقول المراهقين الملمين بالرمزية الفرويدية (المؤلف).

يدفعهم إلى إظهار جرأة مبادئهم، كما يفعل المتعصبون والمصابون بمرض البرانويا وغيرهم ممن يحللونهم.

وتنشأ السفسطة المركبة في تفسير الأحلام الفرويدي من طابعها الجنسي الخاطئ، ومن تحميل الرمزية ما لا تحتمل، ومن المغالاة في استخدام مبدأ الحتمية. وفي وسع أي إنسان موال للمنطق القابل للتوفيق، واستخدامه إياه وفقا لما يرضي مزاجه، أن يأخذ أجزاء البيت الذي عاش فيه فرويد، فيتناول تحف مكتبه وغرفة نومه وحمامه ومطبخه ومحتويات خزانة ملابسه ثم محتويات معارض المحال القريبة منه التي تبيع الأدوات الحديدية أو الرياضية أو الخزفية؛ في وسعه أن يتناول كل هذا ويجعله أعضاء تناسلية دون مزيد من التحريف لمعانيها الأولية، ودون عدوان على المنطق السليم أكثر مما تم في وضع المعجم الفرويدي عن رموز الأحلام. وعدم ميل الفرد إلى القيام بهذا المشروع ليس من باب المقاومة العلمية المتزمتة الذاتية، ولكنه تحزب مستنير للمنطق وصحة العقل.

وتصل سفسطة تفسير الأحلام إلى أقصى السخف عندما تعطي الأهمية والدلالة لأحد التفاصيل بطريقة تعسفية. وهذا ما يظهر في علم الأرقام Numerology عند يونج.

وهو يروي جزءاً من حلم لرجل متزوج له علاقات جنسية أخرى. ويظهر التفصيل في شكل "اكتتاب، وكمدير" يعقب على الرقم الذي تم الاكتتاب به، وهو ٢٤٧٧ . فمن المظنون أن يكون لهذا الرقم أية أهمية

مالية. وبما أن الحاكم كان ذا عقلية اقتصادية، فإن هذا الرقم يحتمل أن يمثل نفقات مغامرته المحظورة التي قدرت بدقة بـ ٢٣٨٧ فرنكا. وهذا الرقم "يمكن أن يترجم بطريقة تعسفية فيصير ٢٤٧٧".

وبطريقة "التداعي الحر" تعين أن الرقم يتألف من تواريخ الميلاد له، ولعشيقته، ولزوجته، ولأمه ولطفليه، ويضاف إليها عمره وعمر عشيقته (ويضاف إلى هذا أيضاً رقمان آخران غير مفهومين تماما). وبجمع كل هذه الأرقام يكون الناتج ٢٤٧٧. وكانت طريقة جمع تواريخ الميلاد هي أن تاريخ ميلاده ٢٦ فبراير يكون الرقم ٢٦٢ أي في ٢٦ من الشهر الثاني؛ وقد جاء المجموع ٢٤٧٧. والمفروض أن هذه العملية الحسابية تمت في "اللاشعور" الذي ابتكر هذا النظام.

وعندما ظهر الرقم ١٥٢ كرهان في مباراة لسيدة حالمة، فإن أرقام المنازل التي أقامت فيها تلك السيدة اللطيفة الكثيرة التنقل كانت مفتاح الحلم. فقد أقامت في منازل أرقامها ١٧، ثم ١٢٩، ثم ٤٨. وبجمع هذه الأرقام نحصل على الرقم ١٩٤ ومنه نطرح ٤٨ فالناتج هو ١٤٦؛ وكان رقم المنزل الذي تسكنه عندما حلمت هو ٦ فإذا أضيف إلى ١٤٦ كان الناتج ١٥٢. وهكذا فسر الحلم...!!

ومشكلات المريض قد "تنعكس على مرآة اللاشعور عند زوجته" ومن هذا القبيل حلم يدور كله حول "لوقا ١٣٧". وقد فسر هذا على أنه الإصحاح الأول من أنجيل لوقار والآية ٣٧. وهذه بدورها تشير إلى البشارة. وبما أن الإصحاح ١٣ والآية ٧ تشير إلى شجرة التين "وهي من

قديم الزمان رمز للعضو التناسلي عند الرجال" فهذا بدوره يرمز إلى علاقتها بزوجها العنين. وبما أن الحالمة لم تكن من المطلعات على الإنجيل فإن رقم الحلم يجب أن يفسر على أنه ذاكرة خفية أو نوع من البصيرة الثانية.

وسخف هذه النتيجة لا يفوقه إلا طريقة المنطق "البرانوي" التي أدت إليها. ومع ذلك فإن هذا المثل مسجل في موضوع علمي لباحث مشهور. وهذه العينة ليست فرويدية الطراز لأن "يونج" هو صاحب الأرقام، وإن كان فرويد لا يقل عنه في إفراطه. وبذكر هذه العينة أصل إلى ذروة نقد حجة الحلم. وقد سردتها لأوضح ما يمكن أن يؤدي إليه الإفراط في مثل هذه التحريفات المنطقية في عقل قادر مبتكر في شتى النواحي الأخرى. ومن الجائز أن يعد "علم" تفسير الأحلام الشعبي مغامرة محظورة، وأن الدفاع عن سخفها هو الثمن؛ ولكن يونج يدافع عن "أهمية الأرقام في الحلم" بالتفسير المموه التالي.

أن دراسة الخيال الابتداعي الحر "تتطلب تجارب عملية كثيرة"، ومدى واسعا من حسن التقدير فيما يختص بدقة النتائج الفردية، ولكن هذا لا يجبرنا بأية حال من الأحوال على أن نتجاهل في سكون ما هو فعال وحي خشية أن نوصم بأننا غير علميين. ويجب ألا يكون هناك أي مجال للمناقشة والتفاهم مع مخاوف العقل الحديث من الخرافات، فإن هذا الخوف نفسه هو أحد التدابير التي تؤدي إلى إخفاء أسرار اللاشعور.

وهكذا تنزل الآلهة الجنون أولا بمن تريد تدميره!... ويميل الإنسان إلى الشك في أن مثل هذا الإجراء الأولي الذي كان يتبع مع التلاميذ الذين يريدون الالتحاق بهيئة تفسير الأحلام التابعة للتحليل النفسي.

ولعله من الغبن أن نختم حجة الأحلام بمثل هذه العبارة الخيالية، فليس من الضروري أن المبادئ الفرويدية لتفسير الأحلام قد انحطت إلى هذا السخف الكبير، أو أنها قد هوت إلى ذلك العبث، بل من الجائز أن تستبقى البصيرة في التشخيص في المستوى المنطقي وفي المجال والمقبول. ولكن يبدو أن في الجو الذهني شيئاً تنتعش فيه الثقافة الفرويدية، وهذا الشيء يميل إلى توجيه المقدمات الخاطئة لتصير نتائج مفرطة في المبالغة. وأتباع فرويد يقتدون بقائدهم، ويقتحمون المشروع بمقاييس برهانية مفككة، ويعتقدون بأن الاتجاهات المعترف بها في علم النفس المستقر لا صله لها بعملهم.

وبهذا الحمل الخفيف من المنطق، وبرؤيتهم لهدفهم الخاص قائما أمام عيونهم، فإنهم ينطلقون في سرعة إلى اتجاهات بعيدة، وإن كانوا في الغالب يدورون في عدة متعرجات قبل أن يصلوا إلى هدفهم المنشود. ومن كل المنتجات النفسية تجد في الأحلام مركبا يتألف من عوامل معينة مختلفة كل الاختلاف أكثرها مبهم غامض، متعرج، ومنعدم النظام، ومتغير، وكله الغاز. فإذا ما اخترت واحداً من هذه العوامل، وليكن الصراع الشخصي، أو الخاص بالصراع العصابي على أن يكون هو المعين العام الوحيد وبعدئذ تفرض عليه قاعدة تخمينية بها مجموعة من القيم

الجنسية، إذا ما سلكت هذا السبيل، حددت مسارك مقدما، وكانت طريقتك غريبة شاذة بعيدة عن الطرق العلمية بغية تحقيق فرض فج مستتر.

وهكذا نشأت سيكولوجية الأحلام وهي مصابة بالآفات من جذورها إلى زهورها، وهكذا فإن الخطايا المنطقية لعالم نظري ضال رغم أنه مبتكر قد فرضت على الإتباع لتمتد إلى الجيلين الثالث والرابع منهم. وحتى فرويد نفسه لن يستطيع أن يجعل تفسير الأحلام شيئاً مقبولا له قيمته.

النمو النفسي الجنسي

الجنس في علم النفس:

نادراً ما تبتعد الحجة الفرويدية عن الجنس ابتعاداً كبيراً، إذا يجد فرويد منابع أعراض العصاب في التأثير المكون لانطباعات الطفولة، ولاسيما في ضروب التعلق الجنسي الشديد الباكر الذي يتم في العائلة ذاتها، وكذلك يجدها في الصدمات الانفعالية، وفي أثناء استزادة الطفل من المعرفة بالأمور الجنسية. وقد قدر لهذا الجزء المضاف إلى نظرية أمراض العصاب أن يكون حجر الزاوية في البناء كله عندما تسلم الجنس مركز السيادة. وبإضافة "اكتشاف" إلى آخر من تلك "الاكتشافات" التي نجدها في صومعة التحليل النفسي، أعاد فرويد بناء "المفقود"، أو بعثه من مرقده؛ أي أنه بعث تاريخ حياة اللبيد المكبوت كما وجده في الطفل

البدائي الأصلي، لا كما كان موجودا في إنسان الكهف البدائي. وكان هذا هو "الاكتشاف" الذي أقام عليه حظه المهني. وهكذا صار الإنسان في النظرة الفرويدية "إنسانا لبيديا".

وكلما زادت حريتنا وصراحتنا في الاعتراف بما للحياة الجنسية من أثر في التكوين البشري كان ذلك من الخير لنا، فمن الأفضل أن ننظر إلى الجنس نظرات موصولة ثابتة، وأن ندركه في جملته. وكان هذا الاتجاه قد استقر قبل فرويد. وكان هافلوكإليس" Havelok Ellis من أكبر الرواد في هذا المضمار. وكانت روح التحرير في القرن العشرين من العوامل الاجتماعية القوية للسير في هذا الاتجاه ذاته. وقد التقت هذه الروح بالمغامرة الثورية العادية القائلة بأن الحرية قد تنقلب ترخيصا يجيز عمل كل شيء.

أما في مجال علم النفس، فقد حدث رد الفعل على ما أطلق عليه هويلرWheeler اسم "سيكولوجيا زهرة الماء التي من الطراز الأكاديمي"... "والتي ولدت ونمت من ناقوس زجاجي". وهويلر هذا عالم في الحشرات، تناول في بحثه "نقائص الحشرات والإنسان". وقد عبر ستانلي هول Stanley Hall عن وجه الاعتراض هذا من قبل بمدة طويلة، إذ أدرك الدور الخطير الذي تلعبه السمات المستمدة من الجنس والمصبوغة به في مراحل تطور الخلق البشري البعيدة، والقريبة، مما يظهر في مضمار الأعمال، وفي المعاهد والمؤسسات. ويؤكد علن النفس النشوئي عند "هول" أهمية العنصر الجنسي في الشخصيات، ولاسيما

في التعبيرات الدينية. ومثال ذلك أنواع الحرمان التي تضفيها الرهبنة من حيث هي رد فعل على أنواع الفشل في الحياة المنزلة؛ وقد وجد أن أكثر ما يعيب كتاب "ضروب الخبرة الدينية" لجيمس James's Varieties of Relegious Experience هو إهماله لهذا العامل الحيوي.

وقد اتجه "هويلر" إلى التحليل النفسي بغية الاستنارة في هذا الموضوع، فعثر إلى حد ما على ضالته فيه، ولكن "في مباءة قذرة من مباءات العلم". وكان تعقيبه على النفسيين هو أن عادتهم "في الجلوس سويا، أو مع الفلاسفة، لملاحظة أيهم يكون أسرع في التخريف أو أبرع حيلة، وأقدر على صياغة فذة للنتائج في أروع أسلوب"، فقال "أن هذه العادة لن تساعدنا كثيرا في حل مشكلات الحياة الملحة المزعجة". ويصح اعتبار هذا التعقيب لوما يستحقونه. ومع ذلك فإن المحللين النفسيين في تصميمهم على خدمة البشرية، قدموا لونا من "التخريف" يعد أكثر طموحا، وأكثر خطأ من عادة الانهماك في التأمل النظري، فإن هؤلاء المحللين يقبلون ما يفرض عليهم من الالتزامات العلمية، ويعرضون ما يصلون إليه من نتائج باسم العلم. وإن أبرع البصائر لتتساوى مع فشل النيات الحسنة، إذا ما طبقت بمنطق ضعيف.

كانت مهمة إبراز الجنس، وجعله في مركز البواعث النفسية، خطوة ضرورية في علم نفس الأعماق؛ ولكن الانتقال من السرية التي كانت مفروضة على المعلومات الجنسية إلى كشفها بكل وضوح، وفي ضوء وهاج، جاء فجأة بطريقة غير سليمة؛ ومن الجائز أن يعزى فضل جزئي

في إبرازه إلى فرويد؛ وهو كذلك يعد مسئولا عن الاستنكار الذي لقيه تنفيذه لمشروعه بطريقة لا يمكن الاستمساك بها. وفي هذا المجال يحمل أتباعه أكبر الوزر. ولقد كان توكيد فرويد البالغ للبيد الجنسي، وطريقة سيادته من أهم الأسباب التي أدت إلى انسحاب يونج من جماعة فرويد. وفي كل تعالم فرويد المشكوك فيها، تعد تفاصيل معضلات النمو النفسي الجنسي بالشكل الذي أكدها به فرويد وطبقها، أكثر هذه التعاليم تعرضا للشك والارتياب.

والناحية الجنسية في الطفولة هي موضوع النزاع، والعلاقة الأوديبية موضوع آخر؛ ثم تأتي مسألة تقرير السمات الخلقية بأنواع التثبيت في مراحل النمو الجنسي، وهي العضو الثالث في الثالوث الجنسي الغريب. ولو استبعدت ألوان المبالغة والافتراض في هذه النواحي الجنسية الثلاث من أقانيم التحليل النفسي، أو لو أنها لم تضم إليها البتة، لا يمكن الإبقاء على تحليل نفسي جنسي مفيد. وتبعا للموقف الفعلي، فإنالفرويديين المحافظين المعتدلين يعدون هذا الاقتراح أكثر تعجيزا للرجولة من فقد القدرة الجنسية المخيف الذي يلعب دورا خبيثا في المأساة المحزنة، وهي مأساة يحتمل أن تصير (كما اعتقد) كابوسا فرويديا.

الجنس والطفولة

الغلطة الكبرى في علم النفس النشوئي التخميني لفرويد، هي افتراضه أن "الشكل الأولي" Primal Form في النمو النفسي هو في روحه،

"الشكل النهائي" Final Form وأن هذا الشكل الأولي يجب أن يفهم على أنه شعور سابق، أو تنبؤ بالمستقبل، وبذلك يقدم علم نفس فريد "مقلوب". ويظهر أن فرويد نسى أن مراحل النشوء غير قابلة للقلب أو التنبؤ، فالنمو طريق مرور في اتجاه واحد. ويوجد في الواقع نمو موحد يربط أوجه التعبير المبكرة والناضجة ويصلها بعضها ببعض، فالطفل هو أبو الرجل بمعنى نشوئي لا بمعنى تنبؤي، والطفل ليس بسيد الرجل كما يصر فرويد.

وكأنه أولى بالإنسان أن يفسر ضحكة الطفل على أنها ظاهرة مبكرة تنبى عن روح فكاهة دقيقة؛ أو أن يصبغها بالطابع الفرويدي، فيراها نوعا من التمتع السري الطفلي لطراز دعابة من دعابات "رابليه"؛ أو أن يضفي على دموع الطفل بسبب فقده الزجاجة التي يرضع منها، آلام مأساة ناضجة. أو أنه يتجاهل تمييزه الدوافع والمواقف، فيرى في إدمان الطفل على الرضاعة من زجاجته نبوة عن علة، أو بعبارة أخرى يرى المرحلة الطفلية لإدمان السكير. وإن تجاهلنا لكل ما يحدث بين ضمة الطفل في مهده وبين إتمام عقد الخطبة ثم الزواج، وفهمنا للشحنات الانفعالية الناضجة للزواج على أنها موجودة في ضمة الطفل ذات التأثير المهدئ، هذا الفهم بعيد كل البعد عن علم النفس، وهو بعيد بعد أي إجراء يستطيع وضعه باحث نفسي منحرف عنيد ينصح بإتباعه. فمثل هذه السيكولوجية النشوئية ليست نشوئية البتة.

وما نجده من تشابه في استثارة اللذة العامة بين استهلال الطفولة وبين الختام، ثم ما يصدر من أعمال ومناظر تعد نتيجة للنمو التدريجي

العام للنفس، ومنه مقوماته الجنسية بوجه خاص هذا التشابه لا يعطينا أية قاعدة لتكوين مأساة حب محكمة ذات تفاصيل نبنيها على أساس حادثة تافهة وقعت في الطفولة. وبما أن الحياة هي النمو، فإن الشكل الأولي لدافع ما ليس هو الشكل النهائي. والموقف الميكروبي في البويضة الأولى للجنين يختلف عن الموقف النهائي لاكتمال النضج؛ وأن أي مبتدئ في علم النفس، ليتجنب مثل هذه الفوضى، والبلبلة التي لا يمكن إغراء عقلية بقبولها إلا إذا كانت أصيلة في جرأتها على ابتداع الافتراضات السابقة لأوانها.

وإذا ما تم ارتكاب هذه المغالطة، وهجرنا كل ضمير منطقي، فإننا في الواقع نصير أحراراً في اصطناع النتائج لمثل هذه التفسيرات التي لا تستند إلى ما يبررها، والتي تطلق في حرية لتصير لبيدية. وقد كان استعداد فرويد لقبول الشاذ على أنه مقياس السوي هو الذي بهره ودفعه إلى تسمية مظاهر الطفولة في عبارات وأسماء تدل على انحراف إذا ما طلعت هذه المظاهر في مرحلة النضج. وهو لم يعتبر حالة الشواذ كنهاية المطاف، أو كانحراف من الحالة السوية، وهو الاعتبار(٩) الطبيعي. وتبعاًلهذا المنطق، فإنه صنف الطفل كمخلوق متعدد الانحرافات، وهو شيء مخيف في الواقع لا لخطيئة أصيلة بل للعدوان على المنطق.

---

(٩) أكرر أنه وفقا لإصرار الفرويديين على إساءة فهم ما يقبله الباحثون النفسيون، وما يرفضونه، فإن مبدأ سيكولوجية الشواذ التي تعد الشاذ على أنه المرحلة النهائية للسوي بما في ذلك عمليات وإجراءات التشابه والتشبيه في سلسلة التدرج بينهما، هذا التمييز لا يمت بصلة إلى اتخاذ الشاذ معياراً للسوي. ولا يستطيع الفرويديون أن يسندوا إلى أنفسهم فضل التشابه والتقارب في السلوك السوي والشاذ لأن هذا نشأ مستقلا عن تفسيرهم النوعي لهذه العلاقة. (المؤلف).

وفي هذه السن المجردة من أنواع الخبرة، لا يملك الطفل أي مجال للمسرة إلا جسمه. وقد سمي الطفل في هذا المجال "موضوع الحب" خطأ، كما أطلق على حبه لجسمه عبارة "ذاتي العشق"؛ وهي لفظة اقترحها "هافلوك اليس" لحب الذات الجنسي؛ وأطلقت أيضاً لفظة "النرجسية" على عشق الطفل لذاته، وهي زلة ضخمة يقع فيها من هم أنضج منه، وتتضمن الكثير. وبنفس طريقة الاستدلال التي لا تجد ما يدعمها، فإن أية علاقة بارزة تحدث للطفل مع أصدقاء من جنسه في سن متأخرة صارت دليلا على الشذوذ الجنسي الكامن. وسواء أكان العمر مبكراً أم متأخراً، فإن رباط الولاء والإخلاص بين طفل وأمه قد فسر على أنه مضاجعة المحارم الجنيني، وهي "سمة بشرية عامة فرضها القدر" وفرويد أيضا. وبما أن مثل هذه الانحرافات تحدث أحياناً بين الشبان الشاذين، فإنها استغلت في الاستدلال على وجودها بصفة عامة عن طريق الوراثة. ولا يوجد ما يؤيد هذا الاستدلال إلا تشابه مصطنع في أحد أوجه التعبير المشاهد في الطفل وفي الراشد، ولكنه مختلف فيهما تمام الاختلاف في أصله وقيمته.

وهذه المغالطة الفجة استدعتها مجموعة من "الفروض النظرية" المنطوية تحتها. فالمغالطة الخاصة بالنشوء وحدها لم تكن تكفي لظهور مسألة "غرام الأسرة"؛ وما حدث هو أن فرضا خاطئا أدى إلى آخر. وكان أغرب الفروض جميعاً القول بأننا نحصل على حالتنا السوية بمرورنا بما هو شاذ. كأننا نحصل على الصحة الفعلية عن طريق إصابتنا على التوالي بمختلف علل الجنون أو لأننا نحصل على القداسة عن طريق الانغمار

إلى أقصى حد في كل أنواع الخطايا. وكل هذه التعاليم الشاذة ليست إلا فروضا غير نقية وغير سيكولوجية وهي تعني أنه توجد قاعدة ملائمة لتفسير آخر مختلف كل الاختلاف، للقصة النشوئية. وإذا ما فرضنا وجود الجنسية الطفلية، فإن الانحرافات المتأخرة تفسر على أنها أنواع من "الردة" إليها؛ ومرة أخرى نجابه مدركا مقبولا، ولكن تطبيقه خاطئ. وهكذا فإن مدار المغالطة الفرويدية يتزايد دورة فوق دورة، ويتوغل في البعد عن الحقيقة في تعقيداته وحركاته الحلزونية.

ويظل مبدأ اللذة قائماً كما هو، وعلم النفس مدين لفرويد بما أضفاه عليه من معان، ولا ريب أنه توجد في أجسام الأطفال مناطق لذة هامة في حياتهم، ولسوء الحظ أنها سميت "شهوانية؛ ولو قيل عنها أنها مثيرة للذة لتجنبت "الطفولة" الوقوع في كارثة؛ ولبقيت لفظة "أوديب" مجرد اسم لخرافة لا يعرفها إلا الصفوة، واللذة في أولها بسيطة، شائعة، وأولية. فالطفل يحتضن أمه طلباً للدفء والأمان والتغذية، كما تفعل جراء الحيوانات اللبونة الأخرى. ولكن عجزها عن النمو المخي البشري ينقذها من تهمة مضاجعة المحارم الجنينية[١٠].

(١٠) من الواضح أن الحيوانات ذات الذكاء لم تكن معصومة من ازدراء علم الجنس النشوئي الذي أصيب به البشر "وعندما يلعق كلب مخلبه الجريح في رفق عدة ساعات، فليس معنى هذا أن نزعم أنه يصنع هذا كعلاج طبي لجرحه، أو لمنع التهابه، أو أي شيء من هذا القبيل. والغرض الأكثر قبولا هو القول بأن قدراً كبيراً من لبيد الكلب قد وجه إلى طرفه المصاب، ولهذا فهو يعني به في رفق وحنان، مما يدخر عادة للعناية بأعضائه الجنسية". هذا الخليط السخيف هو الرأي الجدي لمحلل نفسي كبير، وليس مجرد أقصوصة جمعت الجد في الهزل (المؤلف).

والحقيقة القائلة بأن إحساسات اللذة الأولية والمبكرة تتدخل وتشترك مع النتائج الثانوية التي تظهر فيما بعد؛ هذه الحقيقة لا تعطي ظلا من التأييد لإدراك المفهومات الناضجة في المظاهر غير الناضجة. ويصف "ف. ليمان ولز" F. Lyman Wells هذه الفوضى الفرويدية في وضوح، فيقول إنها "سوء تسمية خاطئة". وولز هذا من أكثر الباحثين في شؤون سيكولوجية اللذة. وهو يميل بكليته إلى المبادئ الفرويدية الأكثر استقراراً. ويقول إن سيكولوجية "الانحراف المتعدد الأشكال" "يحتمل أن تحتوي على تفكير خاطئ أكثر من أية مغالطة أخرى من محاولاتنا المستنيرة في سعينا لفهم أنفسنا، وإن كانت محاولات خاطئة".

وهذه "التسمية الخاطئة الكبرى" جزء من سيكلوجية "نشوئية" مقلوبة إلى حد كبير. وتبعاً لذلك فإن استخدام "الجنس" في التحليل النفسي انتشر على هيئة طبقة رفيعة حتى صار يغطي كل شيء يتصل بإثارة اللذة الجسمانية، وهذا "الجنس" رقيق منتشر حتى أننا لتكتشف آثاره في كل مكان، وفي كل شيء، حتى في جرعات العلاج الصغيرة. ورغم أن هذا العامل جزئي، فإنه يعد عاملا يقرر العدوان في جملته، كما يبرر الاسم الملائم للعمل الذي يعد فيما بعد. وفي ألوف المناسيب جنسياً حقاً. وهذا العبث المطلق بالألفاظ، إنما هو دفاع غير جدير بالنظر، فإن المغالطة المركبة أكثر جداً من أن تكون مجرد لفظية، فهي تتضمن قلبا كاملا للعلاقات القائمة فعلا للذة الجسمية عامة وللتأثيرات الشهوانية خاصة.

"أن ما يجب أن نبدأ به هو مجموعة من الاحتمالات الخاصة برد الفعل السار التي يحدث بينها نمو انتقائي؛ وبسبب أفضل دواعي التطور، فإن ما يرجح أن يعيش وينتعش، هي تلك التي تعمل مع غريزة التناسب؛ ولا ريب أن دوافع الشهوة الكامنة في الحي يحتمل أن تنمو بطرق مختلفة دون أية صلة مع المناطق التناسلية، فضلا عن النواحي الجنسية".

على هذا المنوال أقام ولز قاعدته الواضحة بشأن السيكولوجية العقلية لتطور اللذة. وينطوي تحت مغالطة "الطفولة" حليفتها، وهي مغالطة اللبيد التي تشيع الفساد بطرق مختلفة في كل علم الجنس الفرويدي. وسنعرض لنقدها في مجال آخر تال. ومن دهليز "الجنسية" الطفلية نقترب من قاعة عرش "أوديب" ملك العقد، وما يتبعه من حاشية.

عقدة أوديب:

عقدة أوديب هي عقدة العقد في الواقع، فهي قصة متشابكة، متداخلة، متعددة النسيج، يتطلب تتبع تحليلها المنطقي الصبر وطول الأناة. وأيا كان تقديرك لها فهي في رأيي عقدة ولود، وذات نسل كله فروض خاطئة في مقدماتها. وإذا قدرنا أن هذه هي الزلة المنطقية الأصلية، ترتب على ذلك تعميمها، وحلها، وأحكام نسج خيوطها؛ وإذا ما قدر لها أن تكون مصيراً محتوما، لصارت مسألة "غرام الأسرة" مهزلة أخطاء مضحكة لولا أنها مأساة محزنة، وإذا ما فحصنا جميع نواحي هذه العقدة، فإننا نجد فيها خيطا ضالا من الصواب؛ ولكن هذا الخيط في

الحقيقة أبعد من أن يجيز حبكة العقدة في كل أحوالها. ولا ريب أن العلاقات في دائرة العائلة ذات طابع تكويني، وأن قبضة هذه العلاقات على مراحل النمو المرنة قوية، وهي التي تجعل لها ذلك الطابع التكويني؛ وليس مصير نزعة ذاتية في الفرد أو الطفل إلى الانحراف.

وفي كل ذلك الفيض الدافق غير المستساغ من الكتابات والمؤلفات الفرويدية، والتي تروي مغامرات أوديب الفرويدي، فإنن لم أظفر بعبارة تحدد كيف نشأت نظرية مضاجعة المحارم؛ ومن الجائز أن تقرأ المرة بعد الأخرى إنها "اكتشفت" في التحليل. وإذا ما جردنا هذه العبارات، وقصرناها على الحقائق العارية، لكان معناها أن النظرية كانت مقبولة من بعض المصابين بأمراض العصاب ممن عرضوا أنفسهم على المحلل النفساني، وأن أحداث طفولتهم وعلاقاتها، بما فيها خيالاتهم، كان من الميسور أن توصف لهم بتلك العبارات المستعملة في إجراءات الاعترافات الفرويدية العادية التي تتفاعل فيها الحقيقة، والخيال، والإيحاء، والفروض في نشاط.

وما أن بدأت الفكرة أو النظرية حتى قبلها تلاميذ فرويد. في شغف واعتبروها شعار عقيدتهم. ويمكننا أن نصف في دقة أفضل الاكتشافات وأكثر شيوعا، بأنها مغالاة في التعليق بالأم؛ وهي حالة فطام سيكولوجي ناقص. وقد كانت هذه الحالة النشوئية معروفة في كل العصور، ودليلنا على ذلك الجملة الشائعة "ابن أمه" أو "المقيد إلى خيوط مئزر أمه". أما صبغ هذه العلاقة بالطابع الجنسي فهو في الواقع تفسير جديد.

وإذا ما أردت أن أصبغ خيوط المئزر بالطابع الفرويدي، وأعلن أن هذه الخيوط ترمز إلى الحبل السري، فإن التفسير يكون جديداً ومنطقياً على الطريقة الفرويدية. فإن شئنا أن نقلب هذا الاقتراح التافه إلى "اكتشاف" نسميه "عقدة الحبل السري"، فما علينا إلا أن نتجاهل بيولوجياً وظيفة الحبل السري، ومراحل النمو التي يعمل فيها، وكذلك نتجاهل، سيكولوجيا واجتماعياً، كل المناسبات التي تؤدي إلى خيوط المئزر واثقين بأن كل المعاني جنسية. وعندئذ، وبهذا الموضوع البديع الخالي من الذوق، أنقب في "لا شعور" قليل من المرضى، واستخرج منهم بعض الذكريات بالتداعي الحر، (ولا تنسى أنه حر، ولكنه موجه إلى العقدة)، وبهذه الذكريات أضيف ملاحظات خاصة بالمقاومات التطهرية، (البورتيانية) فاحصل على "عقدة" جديدة، وأضيف صفحات لا بأس بها إلى سجلات التحليل النفسي الذي يعد مجمع الفروض. وأن تجد نهاية لاصطناع العقد، وبنائها على هذا النمط. ولفائدة علم النفس كان يجب أن لا يكون هناك أية بداية لها.

وإذا ما انتقلنا إلى التسمية، فإن أسطورة أوديب القديمة لا تتفق ألبتة مع المناسبات الفرويدية، فإن أوديب هذا تربى مع والدين تبنياه، ولم يعرف أمه الحقيقية إلا بعد أن بلغ سن النضج، بل الواقع أنه لم يعرف أنها أمه إلا بعد زواجه منها؛ ولو عرفها لما تم تحقيق النبوة. أما المسئول عن مصير الفرويدية فهو ذلك التعلق الطفلي الشديد. ولا شأن للملك القديم أوديب بهذا كله، وكان من الجائز إلا يوصم بالإصابة بالتثبيت الأوديبي. ولو أطلق على العقدة اسم "العقدة المجهولة" لأدى

الغرض المطلوب؛ والنقطة المحيرة، هي كيف تيسر لأي إنسان أن يدرك أن مثل هذه العلاقة يمكن أن تكون ذاتية في نمو الأطفال الجنسي النفسي. ويظهر بجلاء أن نظرية مضاجعة المحارم نشأت أولا، ثم أطلق عليها الاسم بعدئذ.

ويعقب الدكتور "راموس" Ramusوهو أحد أتباع فرويد، على هذا بقوله: يخيل إلى أنه من الأشياء المفتعلة وغير الطبيعية أن تفسر العلاقة الشديدة بين الابن والأم "بأنها رغبة مضاجعة المحارم، سواء بشعور أو بلا شعور. وهي توحي بأن فرويد، أو أيا كان أول من فكر فيها على هذا الأساس، قد بحث عمداً عن أسطورة يلصق بها نظريته الجديدة بشأن مضاجعة المحارم؛ فلما عثر على أسطورة أوديب تبناها على أنها أقرب أسطورة تتفق مع هواه".

و"الجنسية الطفلية" وفقاً لتحليلي الشخصي، كانت المقدمة المنشودة لافتراض وجود "عقدة أوديب". والمخلوق الوحيد الذي تنشأ فيه هذه العقدة في هذا العمر الصغير هو الشاذ القوة من الناحية الجنسية. وبما أن حالة أوديب موجودة في كل رجل فلا مفر من أن نكون جميعاً مصبوغين بالطابع الجنسي الطفلي. ولو كان للدائرة مركز حقيقي، فإن المنطق الدائري يجب أن يحصل، على الأقل، على فضيلة من الثبات العقيم، والواقع أن البناء كله أقيم على فرض، وفرض غير طبيعي.

وعلى أية حال يجب ألا نطيل التأمل والتفكير ونحن على الباب، فإننا كرحالة مغامرين، يجب ألا نفزع من المسلك المنطقي الشاذ لمرشدنا، بل يجب أن ندخل في مملكة أوديب الفرويدية.

ويقول "جونز" أن "هذا الاكتشاف المميز والهام للغاية في التحليل النفسي كله" يتضمن الجنسية الطفلية التي "تعد أحدث وأهم مساهمات التحليل النفسي. ويقول فرويد أن عقدة أوديب هامة إلى درجة أن طريقة دخول الإنسان فيها وخروجه منها لا يمكن أن تخلفه بغير أثر".

وهكذا يزعمون: أولا أنه يوجد موقف أوديب، وثانيا أنه هام للنمو في المستقبل، وثالثاً، ولأهميته البالغة، فإن طريقة دخول الفرد فيه وخروجه منه مهمة أيضاً. وكل هذا هام لو كان صحيحاً. وإذا ما فتشنا عن الحقائق التي يتسنى ملاحظتها، فإننا نقابل حالات المبالغة في التعلق والمحبة في داخل الأسرة؛ وحاجات النضج، تؤكد أنه من الخير الخروج من هذه الدائرة. والأدلة قوية على أن فشل المستعدين للإصابة بالعصاب في الانطلاق من أسر هذه القيود، أكبر بكثير من استعدادهم العادي؛ وأن مبالغة الأم في تدليل طفلها تخلف آثاراً سيئة؛ ومع ذلك فإن قيمة هذه العقبة تتفاوت من لا شيء، إلى اعتبارها العامل الجوهري في أية حالة معينة.

ومن الفروض المضادة لمراحل النشوء القول بأن ضروب هذه التعلق الطفلي، ومنها انفعالات العقدة الأوديبية، تستعيد حياتها عند البلوغ؛ وما يحدث في هذه الفترة ليس "إحياء" لها بأية حال من

الأحوال، وإلا لتوقعنا كذلك "إحياء" حالات الزحف والحبو والرضاعة وثورات الغضب. وإذا ما تسامحنا وتوسعنا كثيراً وعزونا ذلك الأثر الثاني إلى شدة حرص الوالدين على إرشاد الطفل في كل كبيرة وصغيرة، وإلى المبالغة وتوله أحد الوالدين في حبه لطفله، فمن المؤكد أنه من النتائج البعيدة– وأن تكن غير المستحيلة– القول بأن تعلق الابنة بأبيها والابن بأمه، يمنع أو يؤثر على اختيار كل منهما لرفيق الحياة؛ لأن الابنة تريد أباها في خطيبها؛ كما يريد الابن أمه في خطيبته. وبعبارة أخرى أن الابن الذي أسرفت أمه في تدليله يريد أما في حياته الزوجية، أكثر مما يريد زوجة له.

ومثل هذه الحالات يحتمل أن تدرس بشيء أكثر من التعقل، لا على أنها نتائج لعقدة أوديب. فمن الواضح أنها استمرار لعلاقات أبوية وبنوية خاطئة دامت سنوات طويلة، ولما يؤثر على الموقف من علاقات سن المراهقة، والعلاقات، والاحتكاكات التي تحدث في الحياة العائلية فيما بعد. وقد افترض "يونج"، إن فرض فرويد بشأن الرغبة في مضاجعة المحارم، فقال إنه تعبير رمزي يشير إلى الرغبة في العودة إلى أحضان الأم أو رحمها. وقال "رانك" أن الافتراض الخاص بأن الحالة "الأوديبية" إنما هي "ميلاد خيالي جديد يردد صدى القلق الذي يصحب آلام الولادة". وكل هذه الفروض سواء في أنها فجة طائشة قامت على غير أساس؛ ولا يمكن أن تكون كلها حقيقية؛ فهي جميعاً متشابهة في صحتها، وكلها يعوزها احتمال وجود دليل لها.

أما كيف تنمو مثل هذه الدوافع الواضحة في موقفها، في لحاء مخ الطفل الذي لم يتم نضجه، فلغز محير. وهناك أيضا مسألة انتقال هذه السمات بالوراثة، فهي من المسائل التي تتجاوز نطاق الفهم، وتفلت من أية دراسة. ومثل هذه الفروض تتخذ سلما لقفزات طموح في مجال الأمور التي يمكن تحقيقها، والتي يحتمل أن تؤدي إلى ما يذهل ويثير في ذلك المضمار الذي يسميه "هنشو وارد" Henshaw Ward "بسرك العقلية" الفرويدية. "فالهلوسة" والاصطناع، والارتجال، بمعونة الألفاظ الملائمة يؤدي إلى الإفراط الفرويدي في مسألة الجنس.

وتنتج عقدة أوديب الفرويدية نسلا من العقد الثانوية؛ وكلها تفهم، وتدرك، بطريقة التناسل بغير إخصاب ذكري، وبنفس الخصوبة التي في الفرض. فإن فرض "مضاجعة المحارم" بوصفه حبا للأم، تضمن أيضا "حسد الأب"؛ وهذا بدوره خلق حالة "عداء" ورغبة في استبعاده واحتلال مكانه. ولكن الوالد شيء "مرهوب الجانب" لما يتمتع به من "سلطة"، ولأنه "يهدد" ولكن ماذا يهدد؟ وللإجابة على هذا السؤال تعمل عوامل الهلوسة نفسها؛ فالإجابة يجب أن تكون تهديدا جنسيا؛ ومن ثم تظهر في الوجود عقدة عجيبة أخرى هي "عقدة الخصاء"؛ وعنها كتبت المجلدات الضخمة بغير رقيب أو حسيب. وفي كل هذه المجلدات لا تجد أثر أي دليل إذا استثنينا خيال الطفولة، وسوء تصرف الآباء أو المربيات. ويا لها من إضافة منتقاة إلى نظرية جنسية!؟

وقد تظن أن الفرض وصل إلى غاياته، وأنه أحدث من الارتباك والبلبلة ما لا مزيد عليه، ولكن بقيت عقبة تافهة، فإن أوديب كان ذكرا، وبما أن التحليل النفسي يطبق على الجنسين من ذكور وإناث، فإنه يجب أن تستقي مادته من الجنس. ولكن هذا لم يفت في عضد المحلل النفسي، فجعل حبكته قابلة للتغير، ورداءً يصلح للجنسين. ولكل الحالات النفسية. وهنا تقدم "إلكترا" في ثياب حداد خاصة لإنقاذ الموقف؛ وما تندبه هو فقد نفس الشيء الذي يهدده الوالد؛ فإن خيال الطفولة يزعم أنها المخلوق الذي أصابه الخصاء. وهنا "تكشف" وسائل الافتراض، وقد سميت إلى أرفع مستوياتها، عن أن اعتبارها على هذا الأساس يجعل نيران الحسد تشتعل فيها من اكتمال الحالة التشريحية في الذكور.

وليس هذا أيضا بخاتمة المطاف في هذا الفرض، فإن المحلل النفسي المتتبع لأحوال الإناث يكتشف وجها اناثيا في تطور الذكور، أي انه اكتشف "عقدة الأنوثة" وذلك عندما يتشبه الفتى بالفتاة في اتهام الأم. والفتاة تلوم أمها من أجل نقصها التشريحي، وتتحول إلى والدها لتجد ما يعوضها. وحتى لا يكون المحلل النفسي المشتغل بشؤون الذكور دون زميله، فإنه يصف "عقدة الذكور" في الإناث التي تنشأ من المعلومات القتالة عن الاختلاف الجنسي الواضح؛ ولا ريب أن كشفها ليس من الإسرار الغامضة التي تؤدي إلى لغز محير أو صدمة عنيفة.

وبينما يصبغ تذلل الابن الصغير أمام المسلك الصارم لوالده بالطابع الجنسي، ويسمى "بعقدة الخصاء" (تهديداً)، فإن تصرف الابنة الصغيرة يتحول أيضاً إلى "عقدة خصاء" (قائمة فعلا). وبهذه الطريقة تعمم بنجاح عقدتي أوديب والخصاء، وتنطبقان على الجنسين. ويقول فرويد "ولقد عرفنا من اشتغالنا بالتحليل النفسي أن جميع النساء يشعرن بأنهن أوذين في طفولتهن، وأنهن، لخطأ لم يرتكبنه، كن موضع الاستهانة، كما سلبن جزءا من جسمهن. وتمتلئ نفوس كثيرات من الفتيات بالمزارة حيال أمهاتهن، ويلمنهن لسبب لا مفر منه، وهو أنهن جلبنهن إلى هذا العالم إناثا بدلا من أن ينجبهن ذكورا.

وأترك لقرائي من الإناث اختيار ما يشأن من علامات التعجب أو الاستفهام، وما يجدنه أكثر ملاءمة لهذه القطعة المنتقاة من المنطق الفرويدي. وعلى أية حال فإن مسألة الجنس عند الفرويديين منوعة. وعقدة "أوديب" تتأثر بالعامل المعقد المستمد من الازدواج الجنسي.

و"عقدة أوديب الكاملة" موجبة وسالبة أو مقلوبة، تجمع بين مختلف ألوان شدة الانفعالات (الشحنة الانفعالية النفسية) من "تقمص شخصية الأب، والحب الموضوعي Object Love للأم، مع تقمص شخصية الأم والحب الموضوعي للأب" وكذلك أيضاً "مقدار الشحنة الانفعالية (شدة الانفعال) الموزعة على الموقف الإيجابي أو السلبي، فإنها تعتمد إلى حد ما على القوة النسبية للنزعة الفطرية في الغلام أو في الفتاة، كما تعتمد على العوامل التجريبية". "ولهذه العقد" أيضا أصل في

الاعتماد على الأم Anaclitic مما لا يتجاوز معناه الاعتماد المألوف للبونات.

وتعلق الولد بأمه باعتبارها مربيته وحاميته "يؤدي إلى جعلها موضوع الحب في مرحلة القضيب" وتسير الفتاة في الطريق نفسه، ولكنها تتحول عندما تكتشف نقص الأداة الذكرية عندها. "وفي هذه الحالة لا مفر من أن ينزلق لبيد الفتاة إلى وضعه الجديد، ويتخذ من الأب موضوعا للحب"؛ وعندئذ تبلغ حالة أوديب أوجها على هيئة "رغبة طالما راودتها بأن يمنحها والدها طفلا كهدية". وهذا يؤدي إلى نشوء العداوة لأمها؛ وفي هذه الحالة أيضاً يعمل خيال الطفولة حتى في الأولاد الذكور، وتظهر فيهم "رغبة أوديب اللاشعورية فيريدون ولادة طفل بطريقة غامضة".

ولست أجد أدنى دليل في علوم الحياة، ووظائف الأعضاء والنفس على وجود مثل هذه الاحتمالات البعيدة لأي من موضوعات هذه العلاقات التي أنشأتها "الهلوسة"؛ ولكنني أجد مبادئ مستقرة تبين استحالة حدوثها إلا في أنواع الخيال التي ينغمر فيها الأطفال كمخلوقات غير منطقية، وإلا عند الفرويديين البارعين في إغفال المنطق. وكل هذا خليط من العلاقات المرتكبة التي جمعت بحرية من جميع مراحل النمو النشوئي ثم أدمجت في بعضها البعض بكل ما جمعت المراحل المشوشة من متناقضات.

أما الرد على هذا الاتهام فكان دائما، أن هذه العلاقات غيرالطبيعية، والدوافع، والآراء. إنما تحدث في "اللاشعور"؛ وهو كهف مظلم لا يرى فيه أي شيء، ولكن في وسعك أن تدعى أن أي شيء يحدث فيه؛ فيتعذر تحقيق الادعاء، كما يتعذر تحقيق ما يحدث على الجانب الآخر من القمر؛ أو هو كحلم أو خيال فرض فيه أنه يتساوى مع قوة الحقيقة. وهكذا ترى أن الحجة الفرويدية تصير مجرد سفسطة. ولقد حرصت على ذكر العبارات بعلامات الاقتباس حتى لا يرتاب القارئ، ويظن فيَّ سوء القصد في اختراع هذه السيكولوجية "النشوئية" الفريدة التي نمت على هيئة مذهب من مذاهب العلم على أيدي أناس مدربين في المجال العلمي؛ وتقدم للجمهور كطعام يثير الشهية. وقد حاولت بدوري أن أخفف من غائلة حرمانه. وحتى هذا ليس منتهى هذه السلسلة العجيبة، فلديهم أيضاسيكلوجيةانثروبولوجية نشأت بطريقة ذاتية في الحقل الفرويدي.

ويقول فيرنزيFerenczi "أن حياة نفوس أطفال اليوم لا تزال تسودها اللحظات العتيقة التي كانت غالبة على الحضارة البدائية. ويؤيد هذا الادعاء المنطق الأعرج "نظرية التلخيص" التي انتهى تطبيقها في هذا المجال من زمن طويل. ولا ريب أن التطور يترك آثاره ملخصة في الإحياء، كما أن الرجعة إلى الأصل تحدث، ولكن ليس بالطريقة المؤدية إلى تأييد مثل هذا التطبيق البعيد المدى. والمفروض في هذا المجال، أن "لا شعور" الطفل يعيد تمثيل دوافع الناضجين التي تكونت لها– بفعل الصلات الاجتماعية التي قامت في أزمان سحيقة– نظم وطقوس معقدة.

وتحريم مضاجعة المحارم (وهو موضوع اختلف علماء "الانثربولوجيا" في أصله وأهميته)، يعد كدليل على أن هذا التحريم كان "يحدث بطريقة طبيعية عامة. وإذا كنا لا نعرف مصيرنا، فهذا ناشئ عن أن "لا شعورنا" الذي يغلي كالمرجل من كبت حاجتنا إلى مضاجعة المحارم؛ هذا اللاشعور قد انتقل إلينا من أيام إنسان الكهف ووسائله. فعلم الانثروبولوجيا يوازيه علم طبقات الأرض".

"أن شؤون التربية، وشؤون التحليل كليهما يجب أن تكررا فترة الكمون، وتسيرا بها إلى ختام جديد ناجح (وقد تجرات، واعتبرت هذه الفترة كمخلفات لأنواع الحرمان البدائي التي يحتمل أن ترجع إلى عهد العصر الجليدي). وفي هذا التدبير يجب على الطبيب أن يؤدي دور الأب العصري أو البدائي على حين يكون المريض في حالة الاستعداد التي تتضمن النكوص إلى عقلية الجماعة".

وعلم طبقات الأرض يترك رواسبه التحليلية في سمات خلقية "جليدية". ولعل المرحلة التالية هي تفسير "برودة" الإناث بحجة مماثلة. والواقع أن وسائل العلماء تصير مخفية وعجيبة عندما يكون لديهم ترخيص رسمي "للهلوسة"، كما فعل "مكبث" حين توهم "أوهاما ضخمة قادمة".

وهكذا فإن أنواع الخيالات والمغالطات الفرويدية الصالحة للمناقشات الشعبية تواصل عملها؛ فتجمع حولها سحب المجد والعظمة، كلما هجرت المنطق العادي في رغام الحقائق الأرضية. ويدخل

في هذا المضمار نوع آخر من بلبلة الأفكار، وهو ليس نشوئيا، ولا عتيقا، ولكنه حديث، وسوفسطائي، وهو الموضوع المذهل المحير القائل بأن المحظور ينبغي أن يكون مرغوبا فيه كل الرغبة؛ وهو كغيره من الحجج الكثيرة ينطوي على حقيقة إذا ما طبق في مجاله الصحيح؛ ولكنه يتحول إلى سخف إذا عبر عنه في غير سياقه السليم.

وهل نستدل من العقوبات القاسية التي نفرضها على جرائم قتل النفس بأننا جميعا في صراع دائم ضد هذه النزوة؟ وإنا قد بدأنا كأطفال، وبنا دوافع القتل، ونحن في مهدنا؟ وهل معنى هذا أن القتلة الفعليين قد حل بهم "التثبيت" فيما بعد مرحلة النمو "الاجتماعي"، أو أنهم ارتدوا إليه فيما بعد؟ أو أن نقلب الحجة ونسأل: هل نستدل من عبارة "أكرم أباك وأمك" على أنها تنطوي على دافع فطري، ولا شعوري عميق يدعو إلى الحط من شأنهما؟.

أن المذهل المحير في كل هذه الخيالات المنطلقة المتحررة من قيود المنطق هو التجاهل المتعمد لمجالات الخبرة الواضحة التي تدخل في تشكيل ما استرشدت به البشرية، وما أهدرته، من الوصايا العشر، فما دونها.و يجب أن نذكر أيضا العامل الذي اكتسب الصبغة الاجتماعية في مضمار المحرمات، فكثير من أوجه التحريم والحظر سواء أكانت نبيلة أم وضيعة، وسواء أكانت منطقية أم غير منطقية، فإنها انتعشت، واستمرت بحكم التقاليد؛ وربما بحكم التحيز الشرعي. وهذه توحي بخلق مجال جديد لمزيد من بحوث التحليل النفسي.

ومن أمثلة ذلك مسألة تحريم الزواج من "أخت الزوجة المتوفاة"[١١] التي اختلفت بشأنها الآراء، وأثارت كثيرا من النزاع. وهل يعني هذا التحريم أن نفترض وجود رغبة ملحة عامة مكبوتة من الطفولة لمضاجعة المحارم الماثلة في أخت الزوجة.. ومن الغريب أن هذه المسألة لا وجود لها إلا بين الانجليز وحدهم. ولعل هذا أيضا بحث رائع من بحوث التحليل النفسي!؟ ولعلنا نذكر أيضا أن بعض القبائل القليلة الحظ من الاستنارة تكره الأخ على أن يضم إلى عائلته زوجة أخيه المتوفى وأبنائه.

ولا ريب أن كل هذا من شأنه أن يثبت النظرية بشكل ما عن طريق قلب العلاقات والكليات المسموح بها في إيراد الحجج الفرويدية. ولكيلا نترك هذه المسألة المغرية بدون اسم فإننا نطلق عليها لقب "عقدة ليا وراحيل"[١٢] ثم ننتظر من التحليل النفسي أن يؤكدها؛ فبمثل هذا المنطق نستطيع بكل سهولة إنشاء تقويم كامل من العقد للخطاة. ونستطيع أيضا أن نكرر ما فعله أحد أبطال الأساطير من ارتكاب جريمة

([١١])كان القانون الإنجليزي يحرم الزواج من أخت الزوجة بعد وفاتها إذ كان رجال الدين يعارضون في الزواج من الأقرباء عن طريق النسب، ويعدونه من المحرمات. وقد عدل هذا القانون في عام ١٩٠٧ وأبيح الزواج من شقيقة الأخت المتوفاة بعد أن أثار عدة مشكلات وعرض على البرلمان أكثر من ٣٠ مرة. وبلغ من حدة المسألة أن وافق مجلس العموم على التعديل، ولكن مجلس اللوردات رفضه في عام ١٨٥٥. وبلغ من حدة الخلاف أن القانون أباح لرجل الدين أن لا يعقد هذا الزواج، ولكنه يسمح لرجل دين آخر بأن يعقده. وقد استمرت هذه المشكلة مجال خلاف بين الإنجليز نحو قرن من الزمان.

([١٢]) ليا وراحيل الشقيقتان اللتان تزوجهما يعقوب والد يوسف الصديق. (المترجم)

قتل كل يوم في اللاشعور ليرضي قضاء قديما قدر عليه. ولعله من المغريات الأكثر طلاوة أن نكتب وصايا عشرا على لسان موسى وفرويد ونبدأها بقولنا "لا تشته أمك، ولا تقتل أباك إلا في اللاشعور حيث أيامك معدودة"؛ ثم نختم الحوار حيث لا نعرف!؟

ويظهر كأن الشعار المكتوب على البيت الفرويدي هو "أهجروا كل منطق يا من تدخلون هنا"، ومع ذلك فإن أوديب هو حجر الزاوية في العقد؛ "فسائر نتائج نظريات التحليل النفسي تتجمع حول هذه العقدة، وعلى صحة هذا الاكتشاف يتوقف قيام التحليل النفسي أو انهياره". وهذا ما يقوله "أرنست جونز" أكثر رسل فرويد شهرة في بريطانيا، فإن كان الأمر كذلك، فإن الصرح العظيم يتحول إلى كومة يرثى لها من الركام، لأنه بنى على الرمال؛ فإن عقدة أوديب تكشف عن خيال مريض حل به العطف نتيجة لاستنشاقه لنسائم مسممة بالمنطق المختمر.

وفي رأيي أن الجزء القويم من نظرية الجنسية النفسية أكثر استقرارا بدون افتراض أن عقدة أوديب مرحلة عامة في النمو النشوئي؛ وهو ذلك الافتراض الذي مبرر له. ولا يوجد إنسان يعترض على أن النمو نفسي جنسي، بمعنى صحيح هام. وإذا كان لتحليل النفسي يريد الإسهام بأي نصيب أصيل، فعليه أن ينبذ الأساطير النفسية. وفي وقت ما انطلقت الهلوسة الرزينة لتعتبر كحقائق ما يظهر كأنه متفق مع النظرية الأساسية. وأقبلت تصوغ عشرات المسائل كمبادئ وتعاليم توصلت إليها في عيادة التحليل النفسي؛ وهي مسائل تخرجها كل سنة مصانع التحليل النفسي.

ومع أنها مصانع لا تعمل في بطء فإن تخرج ما تخرج في ثوب دقيق كل الدقة.

الشخصية ذات الصبغة الجنسية:

من الجائز أن تكون رحلتنا في مملكة "أوديب" قد أوحت إلينا في وقت من الأوقات برحلة سائح يقوم بتنقلات سيكولوجية بين أناس عجيبين في طبائعهم، غريبين في تصرفاتهم. ويقوي هذا الإيحاء إذا ما أدخلنا في حسابنا مصادر السمات الخلقية لأنواع من المخلوقات الغريبة الساكنة في عالم فرويد، فمن المفروض علينا أن نرى فيها نسخا مطابقة لصورنا التي نحن عليها. ومفتاح تحليل الخلق على الطريقة الفرويدية يقبع في غير تبصر في بناء الطبيعة للجسم وتشريحه.

ويظهر هذا المفتاح بجلاء فيما يسميه رجال الطب بالجهاز "التناسلي البولي" Genito Urinary؛ فقد اكتشف فرويد مرحلة تناسلية بولية في الطفولة؛ وهي تتوسع، وتصير مهمة "إخراجية" عامة. ويخرج هذا "الاكتشاف" من الصندوق السحري للتحليل فتؤيده خيالات من خيالات الطفولة؛ ويظهر في اهتماماتها وأنواع المحرمات التي تمتد من التناسليات إلى البوليات عن طريق توزيع أجهزة الجسم ونظام تشريحه، وتمتد أيضاً عن طريق القرابة الفسيولوجية إلى الوظائف الإخراجية.

وهم يزعمون أن الإحساس المثير للذة والاهتمام يجذبان الطفل إليهما. ويجد هذا الاهتمام ما يقويه ويدعمه فيما يصحب عملية

"الإخراج" من سرية، وانفراد الشخص بنفسه، وفيما يبذل من تأكيد بوجوب ضبط أمورها، والسيطرة عليها. والذهاب إلى المرحاض أو الحمام أمر شرعي له أهميته لصغار الأطفال؛ ومن العسير أن نقول أنها القدس الداخلي للحياة النفسية في أي طفل سويٍّ؛ فإذا أدعينا أنها تؤثر على مستقبله لدرجة عظيمة، حتى أنها تشكل أخلاقه، فإننا، في الواقع، نشط إلى مدى بعيد حتى نصل إلى هذه النتيجة. ولو ظهرت هذه الفكرة بطريقة شعبية، أو كمعتقد عند مربية، لاعتبرت نوعا من الخزعبلات الغريبة؛ أما ظهورها في كتاب فرويد، فيجعلها رسالة علمية!

واستهلال القصة يقوم على أساس وطيد؛ فالكتاب الأول– التكوين– من كتب هذا النمو يتفق اتفاقا تاما مع علم النفس النشوئي؛ وأول المراكز المثيرة للاهتمام الفعال هو الفم. والحياة النفسية ذات السمة الفمية أصيلة في مستوى الطفل كالغدة "السعتريةThymus أو اليافوخ Fontanel. فالفم بحكم أسبقيته في مجال الحس، وباعتباره المنفذ إلى داخل الجسم يصير مركز الإدراك؛ وهو في ذلك يسبق اليد. واللذة هي شركة الطبيعة المغري في عالم الحس، فهي كالشهد بالنسبة إلى النحل. وإذا ما سمينا نتيجة مدى الاهتمام وما يصحبه من إحساسات "شبقاً فميا" بدل أن نسميه "باللذة الفمية"، فهنا تبرز أولى خطوات الخطأ الفرويدي؛ والزلة الأولى في المنطق تنذر، بالنتائج الخطرة كل الخطر.

ويتفق أيضاً مع المبادئ النشوئية، استمرار هذه المناطق الأولية للذة الفمية، وتطورها، وعندما يقع الشبان السويون العاديون في الحب، فإنهم لا يعودون إلى مص أصابعهم؛ وإذا أنتعش الدافع الشهوي، فإنه يستخدم المجال المبكر للذة، ويزج بالشفاه في الوسائل الشهوانية، ولكن بطريقة ناضجة. وتمر مراحل كثيرة من سيكولوجية الشفاه عند الطفل، وعند الشاب؛ وهي مراحل شائعة معروفة. ولا يستطيع تجاهلها إلا رجل عالم مغرض يتناسى كل شيء في سبيل تحقيق هدفه. ويظهر أن الفرويديين نسوا أن الشفاه تستخدم في عدة أغراض غير جنسية. وبحكم الافتراض القائل بأن كل شيء هو الجنس وأن الجنس هو كل شيء، فإنه ينشأ لدينا علم نفس نشوئي شامل، وعلم أخلاق. ويؤسفني أن أثقل على القارئ وأعرض عليه بعض سبل الفرويديين.

والخبير في "الخلق الفمي" هو إبراهام Abraham وقد اكتشف "مرحلتين فرعيتين طفليتين في منطقة الفم: والأولى في الشفاه، والثانية في اللثة والأسنان. فإذا كان "الأنت" الذي لم يفطم بعد قد أصابك التثبيت في مرحلة الرضاعة، أو انغمر بشدة فيها، فإن تأثير هذه "اللذة في الأخذ" ينمو إلى نمط عام من حيث "الأخذ"، حتى إذا ما نضجت صرت شخصية متفائلة. أما إذا كان "الأنت" الذي لم يفطم بعد يغالى في انهماكه، فإنك تنمو كشخصية "خلية البال" عديمة الاهتمام بما يجرى حولها، ومنعدمة النشاط. ومن الجائز أن لا تبذل أي جهد حتى لكسب رزقك. والاتجاه العام عند أمثال هؤلاء الأشخاص هو انتظار شخص

عطوف يمثل الأم ليغدق عليهم النعم إلى الأبد. ويحدث الكرم عادة عن طريق تقمص مكان الأم السخية" (هيلي، نقلا عن إبراهام).

وإذا كان "الأنت" غير الفطيم يخفق في الظفر "بإرضاء رغباته في فترة الرضاعة"، فإن هذه الخيبة الطفلية يحتمل أن تؤدي فيما بعد إلى المطالبة بالمركز الاجتماعي (متواضعا كان أو مزاحما)، كما تؤدي إلى الميل إلى التعلق بالآخرين، وكراهية الوحدة. وسرعة نفاذ الصبر من السمات البارزة في هذا الطراز من الناس. وهذا هو الأساس الذي يقوم عليه الشخص المتشائم الذي يصل بكل شيء إلى أدنى درجات السوء، ويجد الصعوبات في كل مكان. أما أولئك الذين يخفقون في الظفر بالإرضاء الملائم للرغبة "الفمية"، فإنهم "من الجائز أن يسايروا الناس شفويا عن طريق الفم". وهذا يؤدي إلى وجود دافع ملح عنيد لكثرة الكلام، وفرض قيمة كبيرة لكل ما يقولون، فكثرة الكلام، فضلا عن التشاؤم، والغرور، تنشأ عن رضاعة ناقصة غير كافية.

ومرحلة العض، وهي الثانية في الشهوة الفمية، "تخلف آثارها المحددة في الشخصية فيما بعد"، وتبني عن سيكولوجية مقابلة لسيكولوجية اللثة والأسنان عند الشبان. وهذا الطراز من اهتمامات الطفولة، ينبي عن التصرفات العدائية، وحالات الكره، والنمو الشاذ للحسد. وكل مسلك الفرد، من اختياره لمهنته إلى هواياته، يحتمل أن يجد "جذوره في الشهوة الفمية". وفي اللغة الانجليزية تطلق لفظة الرضيع (Sucker) على أصحاب المناصب العامة، وإنهم "رضع

متشبثون". أما كيفية تعليل حالتهم الشهوية في مرحلة الطفولة، فمسألة لم تعين بعد.

وهذه الاشتقاقات والاستنباطات مذهلة عجيبة؛ وسبق أن خدعت "جال" (Gall) من أكثر من قرن من الزمان، فقرأ سمات مماثلة في تضاريس الجمجمة!.. الواقع أن الأرض تدور ومعها يدور العلم.

وعندما يناقش طبيب يحمل أجازة الدكتوراه في الطب مثل هذه الفروض المضحكة في رسالة مؤلفة من ١٤ صفحة من الرطانة العلمية، ويملأها بفروض مثيرة للسخرية، ومما يعد أموراً صبيانية حتى ولو كانت مجرد مزاح، عندئذ يجوز للإنسان أن يقذف بالحزم والفطنة في الهواء لتذروها الرياح. وأنه لمن الأصوب أن نصف ما لا معنى له بنعته الفعلي، فنصرح بأنه هراء مثلما نسمي الأعور أعور؛ فمجال الاختيار ضيق بين قراءة الخلق بطريقة متعالمة مزهوة، وبين التخمينات اللبقة "والنبوات" المندفعة من فم نورية من قارئات البخت، أو بين تلك التصريحات الخرافية التي يطلقها منجم مخبول في نشوته. وما انطوت عليه تلك التعاليم يجعل مهنة الجهلاء أفضل، لأنهم قد لا يعرفون ما يفعلون، أو يعرفونه، ولكنهم يستغلون البسطاء والجهلاء.

وليس هذا كل شيء، وسنقدم إليك ما هو أشنع، فالكتاب الثاني في علم نفس الخلق الفرويدي هو "الخروج". وقد وقف سفر "التكوين" أو نشوء سمات الخلق عند المدخل؛ وجاءت المرحلة الثانية عند مخرج القنوات الغذائية؛ ففي النمو النفسي الجنسي ينتقل الاهتمام من

إجراءات الفم إلى إجراءات الشرج؛ والتفسير واحد، أما الاصطناع فأكثر تعقيداً، ولعله يكفي للإقناع أن نسرد النتائج.

والثالوث الأكبر الفرويدي لخلق الشرج يتألف من (ا) النظام (نظافة الجسم، والاستيثاق، وتوفر مراعاة الضمير في أداء الواجبات الصغيرة) فإن كانت من نوع متطرف، فهي حذلقة، وإدعاء علم. (ب) البخل الذي يجوز أن يتحول إلى شح. (ح) العناد ومن الجائز أن يتحول إلى تحد، ويحتمل أن ينطوي على سرعة الغضب والحقد. وهذه الصفات الثلاث للشخصية توجد معا بانتظام، وتؤلف الصفتان الأخيرتان عنصراً ثابتا.

وإذا كانت شهوة الشرج قوية في طفل، فإنه يظفر بلذة كبرى من الشهوة الذاتية والنرجسية في أثناء عمليات إخراج الفضلات؛ وهو يتأثر تأثيراًشديداً بضروب الحرمان التي تصحب تدريب العضلة العاصرة، وأنواع المحرمات التي تفرض لمنعه عن الإعراب عن الاهتمام بشهوته الشرجية. ويوجد نوعان من تكوين الخلق الشرجي؛ وهما يستمدان– بالترتيب– من اللذة في العملية، واللذة في الفضلات "ولون سمات الشخصية في المستقبل يتقرر في الغالب تبعا لنوع الاهتمام الأصلي الذي يسود".

لم يوضح فرويد عمليات التطور الحيوية البيولوجية التي تؤدي إلى نمو الصفات المخية على أساس أجهزة التخلص من الفضلات في عمليات الاحتراق الغذائي!

ومن السمات البارزة في العلاقات الموضوعية التي ظهرت في خلق الشرج، ميل "الأنا" العام إلى الاحتكار والملكية؛ ومن الميسور رد هذا الميل إلى النشوة النفسية الأصلية في عملية حبس البراز. وغالباً ما يعبر الحب الشرجي عن نفسه بمنح الهدايا، ويفضلها على إظهار الود للمحبوب. ومن الجائز أن ينفذ هذا التعبير في العلاقات الاجتماعية بوجه عام، فيتخذ في الغالب مظهر تقديم الهبات والحسنات ومناصرة الناس. وتظهر أثرة الحب الشرجي بوضوح في هواة جمع الأشياء. وهذه الأشياء ترتبط بالبراز، "فلذة الإنسان في النظر إلى مبتكراته العقلية، وفي الرسائل، والمخطوطات، وفيما ينجزه من أعمال شتى" نجد نموذجها الأول في "نظر الإنسان إلى برازه".

ولا يمكن فهم البخل كسمة للشهوة الشرجية إلا إذا أدخلنا في حسابنا عملية الرمزية؛ فإن اعتبار البراز، والهدايا، والنقود، شيئا واحدا عند "اللاشعور" يؤثر على كثير من العلاقات الاجتماعية الخاصة بالنقود فيما بعد. والاهتمام بأمر النقود يلعب دورا في الخلق الشرجي، وقد اجتذب إليه "الاهتمام النفسي الذي كان في الأصل خاصا... بمنتجات منطقة الشرج" ومن مميزات الرجل "الشرجي" كرهه للفضلات، وبذل الجهد في الاستفادة منها، وابتكار الأجهزة الموفرة للوقت، وأداء عملين في وقت واحد. ولزيادة الاحتياطات العملية، فإنه يتعرض لنسيان الديون الصغيرة. فالشخص المحافظ "شرجي" والحر "فمي".

ويلعب الإعلاء دورا كبيرا في العناية باهتمامات الطفولة البرازية ودوافعها التي تعد بالطبع من المحرمات على الكبار بنوع خاص. ويسود الاعتقاد بأن الاهتمامات المتأخرة بفنون الرسم، والنحت، والطهي، وتشكيل المعادن، والنجارة، يمكن تتبعها إلى اللذة البرازية القابعة في عمليتي التلطيخ والتشكيل. وعلى هذا الأساس، فإن اختيار المهنة والعمل يعتمد في الغالب على عملية إعلاء الاهتمامات الشرجية.

والفرد الاجتماعي اللامع الذي ظفر بإرضاء رغبته في المرحلة الفمية المبكرة يناقضه الشخص العدائي الحقود الذي يمكن تعقب سماته في هذا الصدد إلى مرحلة العض، ويتناقض الاجتماعي أيضا مع الفرد المكتئب الحاد الطبع المحب للوحدة، والكتوم الذي استمد سماته من المرحلة الشرجية.

هذه الاقتباسات ليست منقولة من نسخة غير منقحة لكتاب "صدق أو لا تصدق" ولكنها منقولة من المجموعة العلمية الرشيدة لتعاليم فرويد التي نسقها وجمعها "هيلي وبرونر وبورز"، ولا ريب أن علم الصرف مسئول، ويجب توجيه اللوم إليه لدعابته المسيخة العديمة الطعم لأن تركيب اللفظة اللاتينية للتحليل النفسي تضمنت لفظة الشرج أيضاً، وهي Psycho- anal- yses[١٣] (لفظة anal معناها شرج) ومن

(١٣) Psychoanalysesلغويا: تتألف من Psyche ومعناها نفسي وAnalysis ومعناها تحليل ولكن سخرية المؤلف جعلته يقسمها إلى ثلاثة مقاطع (المترجم).

اللآلئ الثمينة التي لا تقدر بثمن والتي تصرخ مطالبة بسردها، مسألة "تأليف شخصية القناة البولية" التي تظهر كإنتاج فرعي لمرحلة الشرج.

ويظهر أن ما اكتشف من السمات المعينة المستمدة من شهوة القناة البولية قليل جدا. ويتحدث فرويد عن الطموح "المتوقد" الذي ظهر أنه شديد الصلة بتبول الأطفال. ويدعى هيتشمانHitchman أن الطموح، والميل إلى اللعب، أو الاشتغال بالماء، كالمبالغة في الاستحنام، والغسل، قد اشتقت من شهوة القناة البولية.

ويذكر "جلوفر" Glover أن الطموح، والحسد، ونفاد الصبر، من أصل قنوي بولي. أما "أبراهام" فيرى أن الطموح يستمد من الشهوة الفمية. ويقول أنه يزداد قوة بفعل دوافع القناة البولية. ويروي فينك Fink حالة لاعب كرة كان قذفه للكرة يشعره بنفس اللذة الكبيرة التي سبق أن أحس بها في صغره عند التبول.

ويقول "فيرنزي" "أن رجلا مهذبا كان يذكر جيدا ضعف مثانته، وقد صار بعدئذ من رجال المطافئ المتطوعين والمحبين لهوايتهم. وهذا لا يدهشنا كثيرا بعد ما ذكره" أما عمله بعد أن شب، ونما، فلا يزال "مشروطا" بحالة طفولته، لأنه عندما تحول إلى مضمار الطب كان من الأخصائيين في المجاري البولية.

وهذا الفصل المبتكر حقا في علم الخلق يوحي، بأنه لو أن مريضا بالبرنويا من المرضى اليقظين المبتكرين الذين يؤلفون صفوة نزلاء

مستشفيات المجانين، دفعته تأملاته المريضة لتأليف نظرية تقول بأن سمات الخلق كالعناد، والتمرد، والبخل، والادعاء، وغيرها من السمات التي ذكرت، إنما هي نتيجة لتردد ظاهر في إخراج البراز، ويصحبه ميل إلى الإمساك؛ لو أن هذا حدث لأنشأ الابتكار فصلا هاما جديدا اسمه "بارانويا الشرج" ليضاف إلى سجلات الأمراض النفسية الحافلة. والعينة الفرويدية، إنما هي برنويا مصطنعة عن عمد؛ وهي الجنون المنطقي للعقلية الأكاديمية. ولعله من الضروري في المستقبل أن نصنف الناس في ثلاث مراتب هي العاقل، والمجنون، والفرويدي.

عرفنا الآن كيف يتألف جزء من الخلق في غرفة الأطفال؛ بينما يتألف الجزء الأكثر تأثيرا في الخدمات المنحطة الخاصة بالمرحاض. والباحث الفرويدي في نفسية الطفل يتتبع حب الطفولة في مجراه المضطرب من الفم إلى الأعضاء التناسلية؛ وهو يرى سمات الشاب حتى لو كانت معقدة كالادعاء، والتحرر. كنتاج لعمليات البنية الجسمانية التي تؤدي في الحياة الخاصة. وهذا الفصل الدخيل يسميه "فيرنزي" "ما وراء علم نفس العادة". ولا ريب أن مثل هذا الاشتقاق لا مكان له في أي أنواع علم النفس التي عرفها أبناء البشر العاقلين حتى الآن.

وللتحول إلى المرحلة التناسلية سيكولوجيته الخاصة وما يتفرع عنها.

ويقول جونز Jones أن شهوة الشرج تظهر في "الميل إلى الانشغال بالجانب المقلوب للأشياء، وبالمواقف المختلفة. ومن الجائز

ظهور هذا الميل بوسائل شتى، ومثال ذلك ما تثيره فينا الناحية العكسية من فضول واضح، فنريد معرفة ظهور الأشياء، والأماكن؛ ونرغب في السكنى على الجانب الآخر للتل لأنه يعطي ظهره لمكان معين. ومن هذه الأمثلة أيضا الميل إلى ارتكاب عدة أخطاء فيما يختص باليمين واليسار، والشرق والغرب؛ وكذلك قلب الكلمات والرسائل في الكتابة وغيرها" ويضيف أبراهام قوله "ولا ريب أن إزاحة اللبيد من المنطقة التناسلية إلى المنطقة الشرجية هو الأصل في كل هذه الانقلابات".

ونصل بسلام كثير أو قليل، إلى المرحلة التناسلية عند البلوغ وهي على أية حال يكون ذلك مصحوبا بإحياء المرحلة التناسلية الأولية للطفولة (الخاصة بعضو التناسل، وعندئذ يستعيد اللبيد سيادته، وتصير القاعدة الموجهة تناسلية كما أعلن "فيرنزي" في خيلاء وزهو؛ ومن ثم يتحرف علم النفس "النشوئي" إلى مركز تناسلي، وعندئذ يظهر مورد "جنسي" آخر لسمات الشخصية. وهو ليس الموقف الأوديبي وحده، بل أنواع أخرى للانحرافات الجنسية تهدد، وتصبغ نضج الذات التي صارت جنسية إلى الأبد. وفي هذا المضمار تشترك النرجسية (عشق النفس)، والسادية (اكتمال اللذة بإيلام الغير)، والمازوكية (اكتمال اللذة بالتألم) كل هذه تشترك مع الأوديبية في تشكيل الإنسان الفرويدي.

"والنرجسية" لفظ مفيد، ولكن الفرويديين زودوه بعلامات توحي بإهانة علمية دقيقة. وللإعجاب بالنفس مضمار فسيح عامر يتضمن لذة الفرد من عرضه لمفاتنه الشخصية، ومقتنياته وأعماله، ومن زهو الطفولة

إلى تملق الجماهير. والإعجاب بالنفس يمتد من الذات الشخصية الحمية إلى "الأنا" الاجتماعي المهني والمكتسب. والتنافس الجنسي هو أحد أوجه التنافس الاجتماعي وهذه السمة تتضمن تأكيد هذا الوضع الذي يجوز أن يسود حقا.

وإلى هذا المدى، والاتفاق مع الفرويدية عادل؛ أما المثير للنزاع في طريقة التطبيق والتشخيص، فهو فرض الطابع الجنسي على كل وجه من وجوه السمات لأنها تحتوي على مقوم جنسي، ومن ثم تنصهر جميع الوجوه في الأصل الجنسي وتتسم بطابعه. وهذه سيكولوجية خاطئة، فالنرجسية لفظ أكثر فائدة إذا ما اقتصر على اتجاهه المحدود وتأكيده. وينطبق التعقيب والتصحيح بطريقة أقوى على السادية.

ومن تحريف المنطق القول بأن كل انحراف جنسي فطري، وانه يتمثل في جملة الحياة الجنسية. ومن عوامل الفوضى "النشوئية" أن نجعل كل أنواع القسوة مستمدة من سادية فطرية، فنطوي في هذا المضمار عملية جذب الطفل لجناح حشرة، وأنواع المشاكسات والمعاكسات، ونعتبره كقسوة عامل وغلظته نحو المرضى أو المسجونين. ويظهر هذا الاتجاه الذي لا مبرر له أيضا في المازوخية أو اكتمال. اللذة بالتألم؛ ومن الجائز أن تتحول سمتها إلى عقدة "الاستشهاد". وتعميم أنواع التطرف الجنسي لا تخدم أي غرض نافع؛ ولكنها تنزل أقصى أنواع الارتباك وبلبلة الأفكار بسيكولوجية الانفعالات النفسية. والمغالطة الكامنة هنا مستقرة، لأن لفظتي سادية ومازوخية غير مألوفتين، ومن ثم

فهما تحملان قوة الشيء. المبهم، والاكتشاف العميق، وما يجرى من ادعاء.

وأصل هاتين الكلمتين هو أن المركيز أو الكونت. "دي ساد" (١٧٤٠) (١٨١٥) عاش حياة مضطربة؛ وقد اتهم باستخدام السم، وارتكاب عدة اعتداءات غير طبيعية، وكان ضحية انحراف جنسي مصحوب باللذة عن طريق استخدام القسوة الجسمانية مع موضوعات عشقه. وبينما كان سجينا في "الباستيل" كتب مجموعة قصص بذيئة، وأرسل منها نسخة إلى نابليون بونابرت. وقد نقل إلى مستشفى الأمراض العقلية، ثم أطلق سراحه، ثم اعتقل ثانية، وأعيد إلى السجن باعتباره ممن لا يرجى شفاؤهم، وأمضى الإحدى عشرة سنة الأخيرة من عمره في سجن "شارنتون". وقد ظفرت رذيلته (أو ظفر جنون) بتمييزها باصطلاح علمي هو اسمه.

وكان "زاخر مازوخ" ZacherMasoch كاتبا صغيراً، تناولت كتاباته الحياة في "جاليقيا" وتضمنت حكايات عن شهوة النساء وظفرهن باللذة عن طريق استعمال القسوة معهن في أثناء العملية الجنسية. وهذه ولا ريب سمة سقيمة نقلت أوصافها من مجال العلم بإطلاق اسمه على نوع الرذائل التي سجلها.

وتصير المغالطة أكثر وضوحا عندما تطبق على انحراف أكثر شيوعا هو الجنسية المثلية (اللواط أو السحاق) وكل إنسان يعرف أنها شذوذ، ولكنها لا تتخذ هذا الوضع في النظرية الجنسية الفرويدية؛ فهي

تفرض أن هذه الجنسية المثلية اتجاه شائع في كل الناس، وإنه لا مفر من كبته، والشبوب عن طوقه، أو تحويله، وتحليله؛ وهي تفرض أيضا أن اللبيد يحتوي على عنصر جنسي مثلي، وهو فرض غير نشوئي، كما هو منحة، تبرع به فرويد؛ فاللبيد يُفرع اتجاهات وميولا كما لو كان المحلل واقفا خلف كل منظر ليدبر حبكة المأساة البشرية. ويتبع ذلك أن عصابات الأولاد، وأندية الرجال، ومجتمعات الفتيات، ومؤسسات السيدات، كل هذا يضم اتجاهات لواط أو سحاق متسترة. أما كيف حدد التطبيق، ولم يشمل كل هذا النطاق الواسع، فيرجع إلى الرقابة التي تفرض على الفهم العام، والذوق السليم.

وبالمنطق ذاته صارت كل مودة ابن لأمه تنطوي على مضاجعة المحارم؛ وكل محبة شهوانية، وكل قسوة صارت سادية، وكل اغتباط بالألم مازوخية. وبهذا المنطق صارت كل الاجتماعات القاصرة على الرجال. أو الأندية الخاصة بالنساء، لواطا أو سحاقا. ولو كنا من الفرويديين المتشبثين لاعتبرنا كل جامعات العالم الخاصة بالبنين كليات "لواطية" رغم أن هذا الوصف لم يذكر بعد في الكتالوجات. ولو كنا فرويديين حقا لاستبدلنا كلمة التعليم المختلط الذي يضم الجنسيين، باللفظة الفرويدية الأكثر ملاءمة وهي "الجنسية المختلفة" Heterosexual.

وتظهر النتائج الخطيرة التي ترتبت على الخطوة الأصلية في تطبيقها فيما يلي من مسائل، وهي: رؤية سمات النضج في الطفولة؛

استخلاص سمات النضج من إحداث الطفولة المصبوغة بالطابع الجنسي؛ وجعل عنصر الجنس غالبا في كل ما يدخله من انفعالات وعلاقات. وتبعا لهذا فهم يؤكدون لنا أن اختيار مهنة ما يتقرر من ناحية بالإفراط في العلاقات الحبيبة؛ أو أنواع التثبيت في المراحل الشرجية، والفمية، والقنوية البولية، وبالسمات الجنسية المبكرة؛ ومن ناحية أخرى تتساوى في هذا المضمار أيضاً دوافع السادية، والمزوخية، والنرجسية. فالجنود، والحلاقون، والجزارون والجراحون والخياطون أيضاً يجدون منافذ لسماتهم السادية في عمليات التقطيع، وتناول الأسلحة المختلفة. وبفعل هذه القوى نفسها نصل إلى النتيجة القائلة بأن أبناء أولئك "القطاعين" يتعرضون للإصابة بأمراض العصابة التي تعد "مبالغة ضخمة للخوف من الخصاء". فالزلة الابتدائية أفسدت الصورة العامة كلها، وجعلت تلك الأوجه في التحليل النفسي مجرد صورة مشوهة سخيفة.

والشخصية المصبوغة بالصبغة الجنسية، تصبغ بسمات تناسلية بنفس الخطأ الذي أساء كل الإساءة إلى مدرك اللبيد؛ وبسلوك هذا الطرق اكتشف فيرنزي "عقدة كورونيليا" Cornelia Complex وقال أنه عندما أشارت أم جراكشيGracchi إلى ولديها، وقالت إنها جوهرتيها، فإن لا شعورها كان يعرض إغراءها الجنسي.

وهكذا فإن الفرويدي البارع يطبع كل عمل، وكل شيء بالطابع الجنسي؛ ويجد باعثا مشينا لكل شيء واضح في أعمال اليوم العادية؛ فيجد أحداثا، وتصرفات جنسية في وقفة لاعب الجولف، وأوضاع

قدميه، وكيف يتناول مضربه. وهو يفحص عن براعة، وعلم، إن كان التدخين فميا، لأننا نمسك السيجارة بفمنا، أو أنه شرجي لأن السيجارة تخلف رمادا، أو أنه تناسلي بسبب شكل السيجارة. وهو يهبط بكل الاهتمامات الخاصة، ويجعلها فروعا للأعمال الجنسية، ومشتقاتها؛ فالرغبة في المعرفة ليست إلا نوعا مقلوبا من التطلع إلى معرفة المزيد من النواحي الجنسية؛ والاهتمام بالحركة سواء أكان إيجابيا أم سلبيا، وسواء أكان توافقيا أم نشازا، إنما هو مستمد من الدائرة الجنسية. وممارسة الرياضة، والفن، واختيار المهنة، والهوايات، وأنواع المعتقدات، سياسية كانت أو دينية أو خرافية، وكذلك أنواع المخاوف، والخجل، والكره، والعلاقات، كل هذا إنما هو إنتاج فرعي لنشاط جنسي أولى.

كل هذا يوضح ما سبق أن قلته عن عملية الاختزال والتبسيط؛ و(خطأ) سيكولوجية "ليس إلا". وكل هذه الاتجاهات، وأوجه النشاط الفرعية سواء أكانت تافهة أم جدية هامة، فإنها حللت على أنها "ليس إلا" أعمالا جنسية عدلت، وتسترت. وإذا كانت هذه هي فكرة الفرويدية عن الإعلاء فإنهم قد جعلوها لفظة سيئة، وجردوها من كل فضائلها. فالإعلاء الصحيح هو جعل الحياة النفسية ثرية بإحاطة الدوافع بأعمال حياة مهذبة. وهذا فصل آخر في القصة التي كان يجب على فرويد أن يسردها.

ولكي أوضح عملية الاختزال وأبسطها، وكيف كانت موضع عناية جدية، فإني أذكر بحثا للمرحوم الدكتور "كارل أبراهام" الزعيم السابق

لحركة التحليل النفسي في ألمانيا. والموضوع يتألف من ٦٥ صفحة عن "قيود وتحولات السكبثوفيلية (لذة مشاهدة العراة) في العصابيين النفسيين مع ملاحظات عن ظواهر مماثلة في السيكولوجية الشعبية"(١٤).

"والسكبتوفيليا" أو لذة مشاهدة العراة رطانة طبية كلاسيكية بشأن الرغبة واللذة الشديدتين الناشئتين عن الرؤية، وهي في التحليل النفسي تشير إلى التلذذ بمشاهدة المناطق الشهوانية؛ ويعبر عنها أهل بلاد الغال بلفظة Voyeurism كما يعبر عنها الانجلوسكسون في أحاديثهم بعبارة (Peeping Tom). وعندما يوجه هذا التطلع أو الفضول إلى أي شيء آخر مهما كان بعيداً، فإنه يقال إن هذه اللذة الجنسية الأصلية تحولت. ونقلت من مكانها؛ فإن باعث الشكل الأعلى للفحص ينخفض ويصير باعثا أوليا. وهكذا فإن الكيميائيين، والجيولوجيين، والفلاسفة يعدون متطلعين متحولين.

ولكي يتيسر للقارئ أن يتتبع مجرى هذه الاشتقاقات "العلمية"، فإني أذكرها بالتفصيل، من وجهة نظر التحليل النفسي:

"إن أكبر شيء أثار اهتمامه في الكيمياء، هو حالة التكوين أو التفاعل (Status Nascendi)؛ وإذا ما فحصناها بدقة، فإنه يظهر أن اللحظة التي تألفت فيها مادة، أو التي اتحدت فيها مادتان لتؤلفا أخرى جديدة، قد جذبته بطريقة إيجابية؛ فإن اهتمامه بعملية الإنتاج (اتحاد

(14) (Restrictions and Transformations of Seoptophilia in Psycho-Neurosis.With Remarks on Analogous Phenomena in Folk- Psychology).

مادتين لتأليف أخرى جديدة)، والولادة (حالة التكوين أو التفاعل)، قد انتقل إلى الاهتمام بالمشكلات العلمية بطريقة ناجحة. وعن طريق لا شعوره، اكتشف في كل علم المشكلة الأكثر ملاءمة لتقديم ما يمثل اهتمامات طفولته بشكل مقنع.

أما مجال "علم الحفريات" (Paleontology) فقدم مثلا مفيداً بارعاً بشأن هذا الميل الإعلائي، فالحقبة الجيولوجية المعروفة باسم "البيلوسين" (Pliocene)، والتي ظهر فيها الإنسان لأول مرة، فإنها زادت من اهتمامه بنوع خاص؛ فإن السؤال المعهود الذي يسأله الطفل بشأن أصله قد حل به الإعلاء، وتحول إلى اهتمام عام بشأن أصل النوع البشري".

"ونحن مدينون لـ "فون وينتر شتاين" (Von Winterstein) ببعض الملاحظات الرائعة عن البواعث اللاشعورية في التفكير الفلسفي؛ ففي رأيه أن الفيلسوف يريد منا أن نرى آراءه هو، فإن لبيده لم يعد موجهاً إلى الغاية المحظورة (مضاجعة المحارم)، ولم يعد متجها إلى ما يجب أن لا يراه أحد، بل إلى ذلك الذي لا يستطيع أحد رؤيته؛ وهو في الوقت نفسه يعود على "الأنا" بطريقة لا نستطيع تفسيرها إلا على أنها ردة إلى موقف النرجسية الطفلي.

هذه هي تشعبات النمو النفسي الجنسي في الإنسان الفرويدي. ولا ريب في أنه يوجد نمو نفسي جنسي في النوع البشري، وأنه بالغ الأهمية في تشكيل النفس، وإن له الأهمية نفسها بالنسبة لعملية الحياة

في مجموعها؛ ولاستكمال الاعتراف بهذه الحقائق، وأهميتها، سيظل العالم دائماً مديناً لعبقرية سيجموند فرويد. وفي رأيي إن هذا الاعتراف قائم رغم ما قوبل به البرنامج الجنسي من رفض يكاد يكون تاماً؛ فإن النمو النفسي الجنسي الحقيقي، كما فسره علم النفس، يخالف ما قال به فرويد؛ وهو يتركز في مدرك الإعلاء الذي ميزه فرويد في حينه، ثم نسيه تقريباً، إذ عمل على تضخيم الناحية الجنسية وإهمال النفسية؛ فإن لم يكن هذا ما حدث بالضبط، فإنه أذاب الناحية النفسية في الجنسية؛ وصبغ النفس بطابع جنسي. وكان مجراه الفعلي هو إشباع الحياة الجنسية بالقيم النفسية. وهذا العمل يؤلف نواة القصة الحقيقية للبيد، وسيكتبها نفسيون تحرروا من عقدة فرويد القائلة بأن الجنس هو كل شيء.

الباب الثامن

طرق التحليل النفسي

تعودنا أن نستخدم عبارة "التحليل النفسي" كلفظ عام يشمل كل البناء الفرويدي، فيضم نظريته، ومبادءه، وحجته، وتطبيقاته، وتشير هذه العبارة بصفة خاصة إلى عمليات سبر أغوار الحياة الشخصية، والاعتراف، والفحص. والمريض الذي تطبق عليه هذه الإجراءات أو المحن يقال أنه قد حلل نفسيا. وبهذه الطريقة تتضح مصادر مرضه العصابي، وعلى هديها تتقرر تدابير علاجه أو تخفيف حدته، وهي إجراءات عيادية؛ ولنعرض الآن طرق هذا الفن، وعمليات تطبيقها، وممارستها على بساط البحث.

المذهب "الاسنادي" Attributism

للتحليل النفسي وسائل منطقية استخدمت للوصول إلى المبادئ التي يسترشد بها سبل ممارسته. والملخص الحالي يتحدى هذه الوسائل المنطقية باعتبارها كثيرة المغالطات؛ ومنها واحدة تتخلل صفحات ومجلدات مما يكتب في التحليل النفسي. وهي مغالطة "الإسناد" وتتلخص في قبول المفكر لمدرك عام مجرد يصطنعه بنفسه ولمصلحته الخاصة، ويجعله كحقيقة يستند إليها في تفكيره. وعندما يبعث

بيجماليون[١٥] Pygmalion "العالم" الحياة في تمثاله "جالاتيا" Galattea فإن هذا الخيال الرائع يتحول إلى وهم ختال. والمدرك عند المفكرين لا يتجاوز شأنه شأن قالب أو نموذج في معمله، ولكن "الهو" و"الأنا" "والأنا الأعلى" تحتل في العيادات الفرويدية مركز الأحياء الحقيقية، وتستمد حيويتها من الأدلة العيادية.

ومن الواضح أن "الهو" يوجد في التكوين البشري كاسم مريح لما أوثر أن أفكر فيه، وأتحدث عنه، من تجمع، وتكامل للوظائف الأولية؛ وهذه حقائق ثابتة، فإن تفكيري فيها، وحديثي عنها على هذا النمط يردني إلى أساسها في الجهاز العصبي من غير أن أقع تحت إغراء التفكير فيها كمبان عليا، أو "كموجودات" من أي نوع كانت. ولكن القوى الخيالية التي عزيت إلى "الهو" وإلى مجموعة المدركات المرتبطة به، إن هي إلا عدوان صارح على القسم "الطبيعي" Naturalistic الذي يضارع قسم أبقراط في الطب والذي يجب أن يرضخ له النفسيون ويتبعوه.

وإذا ما جعل القارئ ذلك "الإسناد" نصب عينيه، وهو يعاود قراءة ما افترض من وجود "الهو"، و"الأنا"، و"الأنا الأعلى"، وما تفعله، فإنه سيدرك أن القصة "الإسنادية" خيالية كلها. فإن كان هذا لا يقنعه فعليه أن يقرأها كلها في مطولاتها في الكتب الأصلية غير المختصرة؛ ففيها يصل

([١٥])بيجماليون– في الأساطير اليونانية– هو ملك جزيرة قبرص. وقد نحت تمثال فتاة من العاج فعشقه. وفي هذا التمثال نفحت الآلهة افروديتي الحياة فصار تمثال فتاة تزوجها بيجماليون وأنجب "بافوس". (المترجم)

"الإسناد" إلى ذروته في مناقشة موضوع البناء الأكبر، وإن كان يظهر مبكراً، وفي كثرة، فينتشر في الحديث عن اللاشعور في حالات كثيرة، وأوجه متعددة لذلك المدرك الشامل المراوغ الذي يقوم بعدة أدوار في الدراما الفرويدية. فالمرحلة "الأوديبية" "إسنادية" في شتى اتجاهاتها، وكذلك "الأمور الطفلية" والرقابة على النفس الباطنية، و"اللبيد" أيضاً في سجلاته العليا.

وعمل "الإسناد" في تكوين المدركات هو آفة الحجة الفرويدية، لأنه مجموعة من تماثيل "جالاتيا"، وقد بعثت فيها الحياة. ومع أن لفظة "إسناد" من وضعي، فإن الاعتراف بخطرها على التفكير سبق أن حاز قبولا كبيراً لدى العقول الناقدة قديماً وحديثاً. وقد استخدم اليونانيون لفظة تماثلها وهي Hypostasis، وصاغ جوته Goethe ذو العقل التيوتوني الكبير ذلك الإغراء على النحو التالي فقال:

"إن الإنسان ليكدح ليظفر بالاصطلاحات، ثم يستخدمها لتفي بأغراضه الخاصة، فيحصل على ما يؤكد فهمه للموقف، أو ليستطيع أن يقول شيئاً على الأقل... وأي شيء يمكن الاستمساك به، إذا ما انطلقنا بحرية في استخدام الكلمات مرة بمعانيها الواسعة، وأخرى بمعانيها الضيقة. أو إذا ما طبقناها بحرية، وفي معانيها البعيدة".

ويبدو من هذه العبارة كأن جوته كان يتنبأ بالنظرية الجنسية الفرويدية. ولحسن الحظ يمكننا أيضاً أن نقتبس بعض ما قاله "بروير"

بنفس الحيطة والحذر، فإن بروير يعد من أكبر رواد التحليل النفسي؛ وقد قال:

"من السهل أن ينزلق المرء من عادة التفكير السليم، فيفترض أن وراء اسم ما مادة حقيقية، وبالتدريج يفهم عن الشعور، إنه شيء موجود. فإذا كان المرء معتاداً على استخدام العلاقات المحلية بطريقة استعارية، مثل لفظة "تحت الشعور" فإن فكرته ستنمو بمرور الزمن، وينسى أنها استعارة؛ وعندئذ يسهل عليه تناولها، واستخدامها كشيء مادي. وعندئذ تكمل الأسطورة".

و"الإسناد" يغزو الجهاز المخي، ويتحول إلى عادة ذهنية خاطئة، فإذا ما زج به في حجة أفسد كل بنائها، مما يصدق عليه وصف "وليام جيمس" أنه خطة لمشروع "ليس إلا". وتبعاً لهذا فإن الباحث لا يستطيع تشريح الحجة إلى أجزاء، ويقول إن هذا الجزء أو ذاك خطأ. فالاعتراض جوهري أكثر من هذا، وهو يقرر بأن العقل المنطقي الذي تعود على التعبيرات المنطقية لا يفكر بمثل هذه الألفاظ، ولا يسمح لنفسه بالانغمار في مثل هذا الاصطناع.

وقضية الفرويديين قضية ميئوس منها، إلى أن يفكروا بمزيد من المنطق والحذر، فإن سفسطة "الإسناد" تتسرب في خبث وشناعة، وبطريقة شاملة إلى كل وجه، وكل جملة في وسائل التحليل النفسي، ولقد نسى المحلل الحقائق، ووضع مكانها أساطير لقوات "اللاشعور"، و"الهو"، و"الأنا"، و"الأنا الأعلى"، وأوديب، والليبيد؛ وجعلها في عدة

صور خفية، ومدركات بعث فيها الحياة، ثم استخدمها لتعليل البيانات العيادية التي أوحت بها. وتبعاً لهذا ضاعت الفروض، واحتل مكانها تأكيد الحقيقة، وهذا هو روح الوهم.

والبيئة الثقافية التي نمت فيها الفرويدية وازدهرت تحتوي على إغراء خاص أدى إلى مخالفاتها، رغم عدم التشجيع الأكاديمي الذي كان مبعثه زيادة الريبة في النتائج وليس في الطريقة. وكل لغة يمكن تناولها بشكل يؤدي إلى إخفاء الفكرة أو غيابها، ويظهر أن اللغة الألمانية الأكاديمية مجهزة بطريقة خاصة لتحقيق هذا الغرض. فهي تجعل الغموض المقصود يبدو في ثوب معنى هام، وباستخدام الأوضاع "غير الشخصية"، والمبنية للمجهول، وصيغ المطاوعة تنقل مسئولية عبارة إلى شيء يظهر موضوعيا ولا سيادة لأحد عليه، كالطقس مثلا، على حين تكون العبارة في الواقع ذاتية تماما، وخيالا لا مسئولية فيه، وتأملا خلا من كل منطق.

ولا يقتصر الأمر على التأمل وحده، بل هناك ميل إلى الانغمار في التراكيب المتعاظلة، والتعليمية التي كلها تفيهق مما ينسجم مع التقاليد الأكاديمية، وحتى الإعلانات التيوتونية نفسها تظهر كمقتطفات من بحث أو مقال. ويعد التأمل المطلق في بعض الأوساط ضرورة لازمة للباحث التيوتوني. ويظهر أن هذا قليل التأثر بالعلاقات الواقعية التي يصادفها الطبيب في عيادته. ومن السهل تشغيل أجهزة النسيج الذهنية؛ وكل نساج يزهو ويفخر بأن نسيجه أصلي مبتكر. وتبعاً لهذا، فإن آلاف الكتب والمقالات ظهرت في وقت قصير بشكل ملحوظ. ويتناول

اعتراضي كل الوسائل للجانب النظري من الفرويدية، فسيكولوجية التحليل النفسي شيء خاطئ، ويضاف إلى ذلك مخالفاته الأخرى الكثيرة الناشئة عن خطأ ما أسميته "بالإسناد".

العصاب

أن الطرق التي تسيطر على اهتمامنا المركزي هي تلك المندمجة في الإجراءات العيادية. وكان الأمل في فهم مرضى العصاب وتخفيف آلام المصابين به هو الأمنية العملية التي دفعت إلى الترحيب بالنظام الفرويدي. ومشكلة العصابيين في أضخم صورها هي ميراثنا السيئ الحظ من العصر المعقد الذي نعيش فيه– عصر آلي في ظاهره، وعصابي نفسي في تحليله العميق، أو إن شئت، فهو عصر التحليل النفسي، بالمعنى القديم الأول للكلمة. ولقدصار إنسان القرن العشرين حاد الشعور بما يواجهه من عقبات داخلية تقض مضجعه؛ ففي داخله توجيه نفسي مضطرب.

وفي العصور الماضية كانت التأملات الدينية وما تتضمنه من تعزية تمتص انفعالاته المضطربة، وتصرفها؛ وهي عملية التنفيس في الفرويدية. ومما يثير الاهتمام في العالم كله بالصحة العقلية، مسألة إدارتنا "لنفوسنا" المخبية لتحتفظ بالسلام في عقولنا. وكان المشروع الفرويدي قد التجأ مباشرة إلى هذه الحاجة الماسة؛ وما أن عرف ما يرجى منه حتى وجد الإتباع والمؤيدين من بين المضطربي النفوس، ومن بين المشتغلين بالإشراف على أنواع أدواء البشرية النفسية. ومشكلة العصابي التي شاء

الحظ أن ترتبط فترة باسم فرويد يجب أن تدرس على بساط بحث فسيح حتى يمكننا إدراك جسامتها الخطيرة؛ فالأمراض العصابية النفسية تعكس قسطا كبيرا من قلق العالم ومتاعبه.

وقد قيل لنا أن حالات الأمراض العقلية في المصحات وما يشبهها من مؤسسات تزيد على عدد جميع حالات الأمراض الأخرى مجتمعة؛ وتلقينا النذير أيضاً بأنه إذا استمرت زيادة الاضطرابات العقلية بمعدلها الحالي، فلن تمضي فترة طويلة حتى يكون عدد أصحاء العقول قادرين في صعوبة على العناية بمعتليها؛ ولن يكون هناك من مهنة أخرى يمارسها الناس. ولنواجه هذه النبوة الكريهة، فمن الأفضل أن نعرف مدى العجز، وما نخسره من جهد في العمل اليومي، وأنواع التدخل التي تطرأ على برامج السلوك والعمل، وألوان الشقاء الشخصي، والتعاسة البائسة، وشتى صنوف الاحتكاك، وانفصام العلاقات مما ينشأ عن الأمراض العصابية النفسية.

والمفروض أن العدد الفعلي لهذه الحالات يزيد على ما سجلته الإحصاءات التي تيسر الحصول عليها. ومشكلة الأمراض العصابية يجب أن تدرس بنفس الروح الكبيرة، والتسامح، والبصيرة التي نتناول بها مسألة نزع السلاح في العالم، فهذه الدراسة أشبه بنزع سلاح نفسي، وغزو لمدمر طاغية لسلامنا الداخلي. ولو أن فرويد تمكن من حل هذه المشكلة أو زحزحها لتقترب من الحل لكان مكانه مضمونا بين الخالدين ممن أحسنوا إلى البشرية.

وهذه الآراء يجب أن تضفي إدراكا معقولا من الإحساس بالمسئولية على المساهمين في التحليل النفسي. وهذه المسئولية يجب أن تراعي حق المراعاة أن جماعة كبيرة من أدق الهيئات تنظيما، ومن أكثر المواطنين فائدة وابتكارا معرضون بصفة خاصة لمثل هذه الأمراض؛ إلا وهي الانحرافات عن الطرز النفسية التي يتجلى بعضها في شكل أمراض نفسية عصابية. وأنا لنقدر هذا الاتجاه سواء أخذنا أو لم نأخذ برأي برجسون القائل، بأن كثيرا من أهم الأعمال في العالم أتمها أشخاص بهذه النزعة، فقد كانوا في الواقع ضحايا علل نورستانية.

كانت أول خطواتنا في دراسة الفرويدية هي تتبع فرويد في أولى حالاته عن العجز الهستري. ولقد وجد مفاتيح مشكلات العصاب في مجرى اللبيد. ومن ثم نشأ موضوعان: أولهما أن سبب هذه الأمراض العصابية النفسية هو صراع الدوافع التي تعمل بطريقة لا شعورية، والثاني هو أن الصراع لبيدي. وقد جمع فرويد الموضوعين في معادلة واحدة أطلق عليها اسم "تكوين الأعراض" Symptom- Formation؛ فكان اهتمامه الكبير بأمر الأعراض خطوة خاطئة أبعدته عن أن ينظر بنصيب أوفى من العدالة والنزاهة، إلى مشكلة العوامل التي تساهم في خلق العصاب. وهي مشكلة أكبر.

ومن الجائز أن لا يعرف المرء كثيرا عن اللجلجة، واحمرار الخجل، والأرق، والسير في أثناء النوم، أن هو أفرط في اهتمامه بدقائق ما يبدو من وقفات صغيرة أثناء الكلام، واحتقان الوجه، وكثرة تقلب

النائم في الفرش، ومسلك السائر في نومه؛ وهي أيضا من أنواع العصاب النفسي. والتكوين العام لمن تنتابهم هذه الأعراض– أو الأحداث النفسية– بالغ الأهمية بالنسبة "للأسباب"، حتى في حالة خداع الأسباب العميقة ومراوغتها لنا. وهذه الأعراض الفسيولوجية شرعية أيضا في تقدير التحليل النفسي. وهي كالأعراض الخاصة التي اختارها الفرويديون لأنها تلائم مبادئهم. ومع ذلك فإن هذه الأعراض لم تضم بعد إلى مجال المحلل.

والطريقة الفرويدية لا تعاون على النظر الواسع إلى المشكلة الأساسية لأمراض العصاب، ولا إلى حلها حلا مرضيا؛ فهي تلقي بضوئها على وجه واحد هام من الأعراض الهامة. ولا ريب أن وضع الجزء موضع الكل في مثل هذه المشكلة الهامة، إنما هو بداية خاطئة. وفي وسعي أن أكرر قول فرويد الذي سلم فيه بأنه بعد عشرات السنين من البحوث التحليلية لا يزال محتارا في أمر "العامل المسبب للأمراض العصابية"، وهذا ينطبق أيضا على بقية أعضاء المهنة. وهو على أية حال اعتراف تناقض فيه مع نفسه في أثناءممارسته للتحليل، وفي عدد آخر من الأقوال. وهذا الاعتراف هو قوله بأنه يوجد عامل مسبب لأمراض العصاب لا يزال لا يدري ما هو على الرغم من مضي ثلاثين سنة على التحليل النفسي؛ ولنفرض أنه يوجد عامل مسبب للمرض، ولعله اندماج عدة أسباب مصحوبة باختلافات كثيرة معقدة. أما كيف تؤلفها الطبيعة فهذا هو السر الغامض للأمراض العصابية.

ولعل عبارة المحلل النفسي جونز تصلح كاستهلال في هذا الشأن إذ قال:

"كانت هذه الحالات تفسر في الماضي على أساس التعاون بين عاملين: عامل الضعف الوراثي للبنية العصبية، وعامل بعض العقبات التي تحدث، ومنها خيبة الأمل في الحب، وإرهاق العمل؛ مما كان يعد أكثر النماذج شيوعا. وبين هذين العاملين أدخل فرويد عاملا ثالثا هو "تأثير بعض التجارب المعينة في أثناء فترة النمو الجنسي المبكر". وهو لم ينكر أهمية العاملين الآخرين بأية حال من الأحوال، بل بالعكس أنه صنع الكثير ليعرف الطبيعة الجوهرية للعوامل الثلاثة في جلاء أكثر، وليقدر بالضبط ما يقوم بينها من استمرار.

فهل صنع هذا؟ أن العامل البنائي في الجسم يعد المعين الأكبر عند الأطباء "الأرثوذكسيين" للأمراض النفسية. وهم يأملون أن يظهر في المستقبل عبقري في علم الأعصاب ليكتشف الأساس الكيميائي الحيوي الذي يجعل الناس أكثر تعرضا للإصابة بالأمراض العصابية. ومصدر الاستعداد للإصابة بالمرض إنما هو مشكلة واحدة؛ وظهور المرض نفسه مشكلة أخرى؛ وكلتا المشكلتين واجبة الدراسة. وتصنف الأمراض العصابية النفسية في عالم الطب تحت اسم "اضطرابات عصبية وظيفية" Functional Nervous Disorders؛ ولم يحدد لها أي أساس عضوي. فالجهاز العصبي عند المريض بالعصاب لا يعمل عمله كما يجب. وبما أننا لا نعرف السبب أو الكيفية، فإن احتمال تناول الأمر من

هذه الناحية ضعيف. ومن السمات السائدة في العصابي أن أعراض الاضطراب تتغير بطريقة مقررة بواسطة التأثيرات النفسية (الانفعالات).

وتوجد أدلة مقنعة بأن الاضطرابات العصبية الوظيفية تمثل طرزاً معينة من الاستعداد للإصابة بالعصاب، ولا سيما في حالات الهسترياوالنوراستينيا التي لا تعد مرضا واحداً رغم تشابه أعراضها وتدخلها. ولفظة هستريا[١٦] في حد ذاتها من الجائز أن تتضمن مراتب معينة من العجز الوظيفي، ولكن الاتفاق لم يتم بشأنها بعد وما ينطلق على حالة الحصار العصابي (القلق) لا ينطبق على حالة "القهر" Compulsion. وكلا النوعين يظهر في الحالات العيادية عند فرويد.

ويجب أن نلاحظ أيضاً أن العاملين المسببين الذين يسبق ذكرهما، هما الفشل في العمل، وفي الحب، واضحان أيضاً. فالعمل يشير إلى التعب، وهجوم التعب على المصادر العصبية إنما هو عامل وظيفي محدود؛ ولكن القلق أكبر تأثيراً من إنفاق الجهد؛ وكلاهما إرهاق، وإذا ما مارسنا العمل، ونحن مرهقون، تزايد الإجهاد عدة مرات.

والعمل لا يعد صراعا إلا إذا كان الفرد مشمئزاً منه، أو به رغبة قوية إلى عمل سواه. والإخفاق في الحب ليس تعباً، ولكنه من الجائز أن يعرقل مسار عمل مفيد. والمعادلة العصابية معقدة؛ والعوامل، وقيمهما

---

(١٦) أن البحث القائل بأن الأمراض العصابية النفسية تنشأ من صراع جنسي، يؤدي إلى اكتشاف الأجهزة والمحركات التي تثير الأعراض وتدفعها إلى الظهور. وقد درست هذه الأجهزة والمحركات في المواقف، وأخطاء كل يوم، والأحلام، والعصاب. وهذا الجزء من الحجة يجب تذكره في الحكم على صلف قاعدة العصاب عند فرويد. (المؤلف).

من المسائل التي يغلب أن تكون غير معروفة ومتغيرة. فعنصر التأكيد لا سبيل إليه في هذا المجال.

وبرغم الاحتجاجات المتكررة هنا وهناك، فإن التشخيص الفعلي لحالات العصاب عند الفرويديين، يكاد يقتصر على أن الناحية الجنسية في الطفولة هي وحدها المسببة للأمراض، وأن أشار إلى العوامل الجسمانية. حتى ألمسات الخلقية التي تظهر عند العصابي قدمت كنتائج للانحراف المتعددة الأشكال، وكنتيجة للتثبيت الجسماني القادم عن طريق تسلسل الجهاز التناسلي البولي. ويتعذر على أي قارئ لفرويد أن يخرج بأية نتيجة بشأن الدور الحيوي الحاسم الذي تلعبه العوامل المزاجية الجسمانية في اتجاهها إلى تكوين الأعراض؛ وعلى هذا الأساس فإن شخصية هاملت[١٧] تظفر بنصيب ضئيل أقل من نصيب حفار للقبور.

وتواجهنا الآن مسألة التاكيدالليبيدي، فتحط من قدر الموضع الذي يجب أن يكون لعامل العقدة الذي يؤلف العمل الجوهري الذي أسهم به فرويد؛ ومن أجله سيذكر اسمه دائماً، ولا سيما عندما ينسى العالم تشخيصه[١٨] الذي اقتصر على جانب واحد.

---

(١٧)هاملت هو بطل إحدى مسرحيات الشاعر الإنجليزي شكسبير. ويقول بعض شراحها أن الشخصية التي أضفاها عليه الكاتب تمثل شخصا مريضا بالعصاب وقد دفعته أوهامه إلى ارتكاب كثير من الأعمال. (المترجم)

(١٨) أدعو القارئ، ولاسيما من كان مطلعاً على أوجه النظر السائدة الخاصة بالعصاب، إلى أن يعتبر النوراستينياوالهستريا كأنهما يثيران بطريقة عامة إلى اضطرابات من هذا الطراز، ودون أن تنطويا على الأشكال النوعية الخاصة للأمراض التي يقال عنها أنها كذلك. وكانا يعترف بالحاجة إلى ألفاظ كالتي وضعها كرتشمرKretschmer مثل كلمتي Schizoid .Cycloid اللتين تشيران إلى طرازين من الشخصيات، وتشتملان على مجموعات من السمات الخليقة الموجودة في كل منا من غير أن

وهذا التحديد يحول بطريقة ما دون التشخيص الصحيح حتى من وجهة النظر الفرويدية. وفي هذا المجال نجد أن يونج قد اختلف مع فرويد؛ فإن أنواع الصراع من مراتب كثيرة؛ وما هو حاضر منها يسود رغم ما في الماضي النشوئي. وقد أصر يونج على ضرورة تفسير أمراض العصاب، من حيث النضج. وعندما حلل ريفرز– وهو فرويدي محدث– حالة "كلوستروفوبيا" أو الخوف المرضى من الأماكن المغلقة، وهي حالة سبق أن حللها أحد أنصار فرويد، وبحث فيها عن مفاتيح جنسية بدون نتيجة، فإن ريفرز وجد مصادر الحالة قابعة في اختبارات الطفولة، ولكنه لم يعثر على أي مفتاح جنسي لها، وتبعاً لهذا فإنه قال "أن قصر الاهتمام كله على الناحية الجنسية يحتمل أن يفسر عن عرقلة فعلية تعترض سبيل اكتشاف خبرة الطفولة التي تمدنا بمثل جيد لما هو مطلوب من خبرة اللاشعور، ومن احتمال استعادتها إلى الذاكرة الظاهرة".

ويسجل ريفرز أن المبادئ الفرويدية كانت دائمة النفع له في أثناء عمله في الطب النفسي خلال الحرب. وهو يسجل هذه الخبرة ليبين نقص النظرية الفرويدية في أمراض العصاب؛ فإن الحرب أظهرت مجموعة كبيرة من أنواع العجز الهستري التي يمكن مقارنتها بما أكده فرويد. فهناك ظهر الصراع النفسي. وكان هجوما على غريزة عميقة جوهرية مشحونة بالانفعالات الحادة؛ ولكنه لم يكن جنسياً، فإن أزمات

تتضمن أنا سنبدي أعراض جنون المراهقة أو "الخبل الهبوطي" Dementia Praecox وذهان الجنون الانقباضي أو "الهوس" Manic Depressive Psychosis ولجعل هذه الفكرة شعبية، فإن "أوفرستريت" Overstreet تكلم عن الاتجاهات أو عن الأشخاص الذين يصفهم بأنهم Micromanic وdepressive -Miero وأرى أنه من الأبسط أن نترك هذه الألفاظ، ونوسع المعنى ليتضمن ما في الشخصية من النظم والاتجاهات الصغرى وأمثالها.

الحرب والسلام تُظهر بوضوح أنواع صراع مختلفة. والواقع أن ريفرز لاحظ أن العوامل الجنسية في العصابيين من الجنود لم تكن هي العوامل الشائعة[١٩].

وغريزة الشعور بالخطر، وتهديد الحياة نفسها أبرزت النكبة العصابية؛ وفي هذا المجال انطبق أحد المبادئ الفرويدية؛ فإن هذه العوامل أظهرت أعراض عجز جعلت المجند غير صالح للخدمة العسكرية. وفي هذا السبيل فإنها تكون وسيلة هرب لاشعورية بانتحال المرض. ومن الواضح أن عقدة أوديب الخامدة لا يمكن أن تظهر فجأة تحت تأثير أصوات طلقات الرصاص، وانفجار القنابل، والحرمان، والتعرض للموت. وقابلية الإصابة بالمرض التي أخرجت المصابين بصدمات القنابل من بين صفوف الجنود لم تكن "تثبيتاً" إلى الأم؛ أما قاعدة الصراع، فتظل قائمة، وكذلك مسألة أجهزة التحول، وهما تقودان ريفرز إلى التحدث عن الهستريا كأمراض عصاب "استبدالية". وقد أيدت أمراض العصاب في الحرب مبادئ معينة في التحليل النفسي؛ ولكنها

---

(١٩)لا أستطيع أن أزج بمسألة كبيرة مثل اضطرابات الحياة الجنسية– ولاسيما الإخفاق في التعبير الجنسي– فاجعلها من أسباب الأمراض العصابية، كما تدعى تعاليم فرويد العامة. وأن العصاب مستحيل الحدوث حيث الحياة الجنسية السوية العادية. ويقال أنه سمع ذلك من شاركوه الذي يظهر أنه وضعها في صيغة إيجابية (ليس نفس الشيء بالضبط)، ولعله قال ما معناه أنه يوجد دائماً شذوذ جنسي يصحب الأمراض العصابية. والنظرية الأقرب إلى العقل، هي القائلة بأن الميل العصابي قد يمد اضطرابه إلى النشاط الجنسي. وهذا شيء طبيعي لأن هذه الاضطرابات مشحونة إلى حد كبير بالتوتر الوجداني. ومع ذلك فإن هذا لا يستبعد العلاقات الأخرى في أسباب المرض.

ويعقب بك Peck وهو أحد المحللين النفسيين فيقول "أن قولة فرويد بأن الحياة الجنسية السوية تمنع ظهور الأمراض العصابية، يمكن أن تتغير إلى القول، بأن الحياة الجنسية السوية دليل يبين غياب الأمراض العصابية" وتوجد أدلة متعددة على حدوث الأمراض العصابية بين الأفراد السويين في الحياة الجنسية، لأن بين الأفراد الذين يتمتعون بالحرية في علاقاتهم الجنسية من يصابون بالعصاب وهذا البحث جدير بالعناية والفحص الشامل من معهد بحوث عصبية، فعندئذ فقط يمكن تكوين قاعدة يصح الاعتماد عليها والثقة بها، أما عبارة فرويد الحاسمة فتعد سابقة لأوانها. (المؤلف)

تعارضت في جزم مع أنواع التشخيص المحدود الذي تغلغل ليؤلف القاعدة الأساسية لوسائل التحليل النفسي بين تلاميذ فرويد المعتدلين.

وقد لاحظ ريفرز وسواه أن مدرك الصراع، واعتباره عاملا قوياً في العلاقات السوية، وفي تشكيل العقبات العصابية، ليس من الأمور الجديدة؛ وينطبق هذا أيضاً على كلا مرتبتي الصراع اللتين تثيران الاضطراب في السلام الداخلي، أي الصراع بين الدوافع وبعضها البعض، والصراع في أجهزة الرقابة الشخصية التصاعدية أي بين الهو والأنا وبين أنواع الدوافع الفردية، وتقاليد المجتمع وقيوده أي بين الهو والأناوالأنا الأعلى.

ويقول ريفرز أن السمة التي تجعل نظرية فرويد جديرة بالعناية هي مشروعه بشأن طبيعة "الخصوم" في الصراع، وبشأن الحيل التي توجه هذا الصراع. وهذه السمة، في رأيي، تجعل المشروع مثار شك وارتياب، بقدر ما تجعله جديراً بالعناية؛ فإن صبغ "الخصوم" بالطابع الجنسي صبغاً كاملا من حيث تثبيت الطفولة، يسيطر على النظرية الفرويدية للعصاب سيطرة تامة حتى أنه ليغلب على كل شيء آخر. وبمثل هذا الغموض، فإنه يحجب ما في نظريته من أضواء. والواقع أن الأدلة قليلة على أن الفرويديين درسوا مشكلة العصاب في مجالها الواسع دراسة تقدر المسئولية.

إن الفرويديين يتجاهلون الأعراض الفسيولوجية الشائعة في العلل العصابية تجاهلا يتسم بعدم المبالاة مما لا يتفق مع مهنة عيادية. وقد حدث أن قليلا من هذه الأمراض شائع حتى أنه يبدو بجلاء، فالنوراستينيا

تحدث في نحو ٩ حالات من ١٠ صداعاً حاداً في قاعدة المخ. فهل درس أطباء الأمراض العصبية من الفرويديين ما يحدث في مأساة أوديب– مما يستدعي ظهور الآلام في الرقبة في مختلف جميع حالات الرجال والنساء، في شتى الأعمار؟ وهل درسوا حالتهم السابقة؟ ولماذا لم يصب كثيرون بهذه الآلام رغم أن خبرتهم في الطفولة تشبه إلى حد بعيد خبرة أولئك الذين أصيبوا بهذه الآلام التي تعد في الغالب من العلاقات المميزة للنوراستينيا؟

ومن الظواهر التي يمكن اعتبارها مفاتيح للأعراض، ظاهرة العجز الذي يصاب به مرضى النوراستينيا في الصباح المبكر. فإن العارض يزداد سوءاً عند اليقظة؛ فأي عامل خفي ينم عن رغبة مكبوتة في الطفولة، أو في "غرام الأسرة" ينتعش في الصباح؟ إنا لنرجو أن يتقدم فرويدي من العبقريين لحل هذا اللغز، رغم أن حله سيكون عن طريق علم الصنعة النفسي، ذلك العلم العجيب الذي لا أساس له، مما يجعل من تشخيصه مجرد عرض هزلي في ميدان العلم.

ومن مجموعة الأعراض الكثيرة المعهودة للهستريا "ابتلاع الهواء". وهو إحساس خانق، وابتلاع تشنجي[٢٠] يشعر فيه المريض كأن كتلة تصعد من معدته إلى حنجرته، فبأية مؤامرة اتفق ضحايا "أوديب" من

(٢٠) ربما كان تفسير فرويد لهذا العارض من أحسن التفسيرات؛ وقد عزاه إلى تمدد هستيري في المعدة، وهو يستجيب للإيحاء، أو التنويم المغناطيسي. وقد فسر هذا التمدد على أنه توهم حمل. فإن كان الأمر كذلك صدق التفسير الفرويدي. ومع هذا فمن الجائز أن يكون التفسير من نفس مرتبة ابتلاع الهواء. والتشخيص مليئ بالريب. (المؤلف)

الجنس الناعم على أن يستبدلن بوجه من وجوه صراعهن الانفعالي هذه الظاهرة الشاذة في قصبتهن الهوائية؟ وأكثر أنواع "التحول" فردية حتى أنها تحتاج إلى تحليل للعثور على مصادرها؛ ولكن العارض السابق يتبع نموذجاً شائعاً، وليس لدينا من خبرة عاملة لتعليله. وما تبينه هذه الأعراض فعلا، إنما هو استعداد عام في الجهاز العصبي للإصابة بالمرض. ولا نزاع في أن بعض الأعراض التي تظهر كوظيفية إنما تظهر بفعل الأجهزة النفسية التي فسرها فرويد تفسيراً هاماً له دلالته، ولكن أهم من ذلك أن كثيراً من الأعراض ليس كذلك.

ولم يقتصر فشل قاعدة فرويد على تعليل أمراض العصاب، بل أخفق أيضاً، وبطريقة مماثلة في تعليل مدى الأعراض كله، فإنه اختار الأعراض التي تنطبق عليها قاعدته، كما انتقى الحالات التي يمكن أن تنطبق عليها نظريته. فلا عجب أن كان أطباء الأعصاب والنفس المحافظون ينظرون إلى هذا المشروع الطموح بحذر، فيرونه خطوة ضالة، وحدثاً منكوداً في طريق تقدم مهنتهم.

التحويل

تظهر في نطاق الإجراءات العيادية "حقيقتان" يعتبرهما فرويد بمثابة دعائم[٢١] للتحيل النفسي، وهما: التحويل، والمقاومة. والواقع أننا نجد

---

(٢١) اذكر في هذه المناسبة أن فرويد أشار في آلاف الصفحات التي كتبها إلى كثرة من تعاليمه على أنها "دعائم" نظامه. وعلى هذا الأساس فإن بيته يصير بهو أعمدة. ولعل الداعي إلى هذه النزعة الفرويدية هو خصوبة الابتكار، والنظرة المتغيرة إلى الموضوع. (المؤلف)

"حقيقة" خلف المدركين، كما نجد قدراً طيباً من الناحية النظرية. والمقاومة تشير إلى الميل الطبيعي إلى إخفاء الذات الخاصة، وحجبها خلف ستار. ومن الجائز أن لا نكون مغمورين في الآثام، ولا مثقلين بكثير من أوزار الماضي؛ ولكننا نحرص على أن لا نظهر ذاتنا الدفينة في مظهر غير مقبول، حتى لأصدقائنا الذين نثق بهم. ولعله من الأفضل أن نتجاهل مسألة تشكيل الذات بالشكل الذي تريده القيود الاجتماعية، أو نسلم به كما هو، وفقاً لرغبتنا.

ونلقي مطالبة الفرد بالاعتراف في صراحة تامة تكريماً، وتأييداً، سواء تمت في انتهاكها أو مراعاتها. ولا ريب أن عنصر المقاومة النفسية حقيقي، وأن سبل الإصرار على ضرورة التغلب على هذه المقاومة لها ما يبررها.

وهذه السبل فن جدير بالنمو الصقل، فإن اكتشاف المخبؤ، ومراكز العدوى النفسية المكبوتة تكون في الغالب محجوبة بطريقة لا شعورية، ولكن كثيراً مما يسمى بالمقاومة النفسية، إنما هو في الواقع نسيان عادي، وليس بكبت يعترض طريق التحليل. وبهذه التحفظات نسلم بمبدأ المقاومة الفرويدي في الاعتراف، وإن كنا لا نقبل العذر الشائع القائل بأن سبب عدم وجود العقد هو شدة المقاومة التي حالت دون اكتشافها، فهذا العذر يجعل النصر الدائم من نصيب الفرويدي على الناقد أيا كانت "أوراقه وأدلته".

ومن الجائز أيضاً أن نسلم، ونرحب بالفكرة النيرة القائلة، بأن كثيراً مما ننساه الآن، ومما نرفضه، كان في وقت ما فعالا ومقبولا، ولاسيما في حياة الخيال الحافلة التي خلفها كثيرون منا وراء ظهورهم، ولكن فريقاً آخر لم يرها البتة. ويوجد فينا طبقات مقاومة مختلفة تطوق سرائرنا الداخلية المقدسة الماضية منها والحاضرة. وهذا التمييز مفيد، وبغيره لا يمكن إجراء أي تشخيص نفسي. وقد كان معروفا من قبل، ولكن وضوحه لم يصل البتة إلى المرتبة التي وصل إليها في الصياغة الفرويدية. ومن أجل هذا الوضوح لها الشكر والامتنان.

"والتحويل" مسألة أخرى. "والحقيقة" فيه هي علاقة الثقة بين المريض ومحلله. والتحويل، أما أن يكون ذا معنى نوعي محدد واجب التبرير، وإما أن يشير إلى ما هو معروف جيداً، فلا داعي عندئذ للفظة خاصة ولا لتأكيد. وينطوي مبدأ "التحويل" عند الفرويديين "الأرثوذوكسيين" على نظرية من المقرر أنها مثار نزاع وريبة، وهي نظرية "النكوص" Regression و"الأحياء" Reanimation وهي تطبق بشكل تعسفي معين[٢٢]. والتحويل جزء من "الوسائل" الفرويدية، ومثله التداعي الحر، وتحليل الأحلام والتفسير العام للعقد للمرضى.

والتحويل هو، على التحديد، قيام علاقة شهوانية؛ وهو باللغة البسيطة يوجب على المريض أن يعشق محلله، باعتبار أن هذا العشق

---

(٢٢) تستخدم لفظة "التحويل" في التعاليم الفرويدية لتعني أيضا تحويل المشاعر الشهوية من شيء أو شخص إلى آخر. ولهذا التحويل يفضل فرويد استخدم لفظة "نقل" (Transference). ويقصر التحويل على العلاقة بين الطبيب والمريض (المؤلف)

مرحلة من مراحل العلاج؛ ثم يخرج المريض من هذا العشق، ويفصم العلاقة لإتمام العلاج. وأنا أعرف جيداً أن العلاقة بينهما توصف غالباً بأنها عاطفة حارة وتقدير كبير؛ ولكن أينما اتجهتُ أجد أدلة قليلة على وجود ظلال عاطفة عذرية في التقديرات الجنسية عند الفرويديين. والتعقيدات، والمضاعفات التي تنشأ عن العلاقات بين رجل ورجل، أو بين رجل وامرأة، إما أن تهمل في سذاجة وحسن نية، وإما أن تتخذ أوضاعاً محايدة بحكم الموضوعية الحذرة الملازمة لمهنة؛ ومع ذلك فإني ألاحظ وجود "التحويل المضاد"، وفيه يستجيب المحلل النفسي لما يقدمه المريض من مقترحات أو يعرضه من مفاتن. وهكذا فإن "علم الصنعة" الانفعالي يظهر كفن، مرن؛ فقد قيل لنا من قبل أن كل العواطف (تقريباً) من أصل أو اتجاه جنسي، أما الآن فعلينا أن نعرف أن علاقة انفعالية قوية يحتمل، بل يجب، أن تتم بدون مثل هذا الاتجاه الجنسي.

ومرة أخرى نواجه السؤال الطريف عن كيفية ظهور هذا العامل في "الوسائل" الفرويدية. وهو ليس من البيانات المستخرجة من ماضي المرضى المخبوء، ولكنه عامل خُلق، وشجع على الظهور لمواجهة العقبات القائمة. ولا يخفى أن هذه العلاقات سرعان ما تنجلي بحكم طبيعة الجلسات الحميمة. ويظهر أن هذا الموقف كان أحد العوامل التي دعت "بروير" إلى الانسحاب من أول "حالة" تحليل نفسي.

وروى "ويتلز" Wittels القصة بعد مضي سنوات كثيرة، وأفصح في تفسيره عن مفتاح الموقف، فقال أن "بروير" كان الشخص الوحيد الذي

كان يعرف، اللغة الإنجليزية، في الوسط المحيط بالمريضة حين اقتصر كلامها على هذه اللغة؛ فكانت هذه العلة التي أنستها لغة بلادها، الألمانية، بمثابة حيلة من لا شعورها لكي تنفرد بطبيبها المحبوب الذي تم إليه "التحويل". ونفس هذه الأعراض التي ظهر أنها "تشكلت" خلال تجارب الطفولة، تخضع أيضاً لهذا التفسير الإضافي ولكنها فسرت على أساس آخر. وهكذا تؤثر الوسائل العيادية تأثيراً سيئاً في تشخيص العلة.

ويشرح فرويد الموقف بصراحة فيعترف بأن هذا الاهتمام النسوي أذهله في أول الأمر، ولكنه ما لبث أن أدرك أن سره لا يعزى إلى مفاتنه الشخصية في اجتذاب النساء، بل يرجع إلى أنه اتخذ بديلا من غيره ليكون موضع الغراميات العلاجية للمريضة. وكل هذه تفرعات مثيرة للعجب والفضول.

وعلى أية حال، فلنعد إلى موضوعنا، ففيه ما يصح أن يكون مثارا للنزاع؛ فالفكرة كلها، ومنها تلك الألعاب البهلوانية العاطفية، تقوم على أساس نظرية إحياء العاطفة، وهي نظرية تثير المشكلات. ولا ريب أن المصابين بالهستريا يعانون من ذكرياتهم العاطفية كما قال فرويد. والقهر حقيقي لا شك فيه، ويمكن تعليله بطرق شتى، كما وجد "هولنجورث" Hollingworthفي نظرية "إعادة التكامل"[٢٣] فالندب النفسية يجب أن

(٢٣) إعادة التكامل Redlintegration اصطلاح اقترحه سير "وليام هاميلتون" W. Hamilton لمبدأ أو قانون التداعي Assoeiation الماثل في إعادة صياغة شيء كامل من إدراك جزئي أو فكرة جزئية.ويدعى بعض النفسيين أنه مبدأ جوهري يمكن تفسيره على أنه يشمل كل القوانين الأولية. (المترجم)

تفسر بطريقة ما. ومن الميسور الدفاع عن فكرة الإحياء أو البعث، ولكن يتعذر استخدامها لتأييد وسائل التحويل.

ويقوم التعليل المنطقي للتحويل على أساس مبدأ الأحياء. ولا يكتفي التحويل بعودة المريض إلى إحياء ذاكرته، بل يتطلب أيضاً عودته لوجداناته السابقة، فيميز من جديد العلاقات الشهوانية التي سبق أن خبرها في طفولته أو في حياته المبكرة؛ والفرق الوحيد هو أن المحلل يحتل مركز موضوع الحب الأصلي. وهذه السيادة على الانفعالات تشبه مسألة الإيمان بأكسير الحب. ولكن فرويد يثق بهذا الإجراء وبالغرض العجيب القابع وراءه، وهي ثقة بعيدة كل البعد عن الأوضاع النفسية، كما تجمع بين البدائية والخطورة. وهي من أغرب معروضات المجموعة الفرويدية الخيالية كلها.

"ويتم الجزء الحاسم من العلاج الشافي بواسطة التحويل، فعن طريقه تظهر نسخ جديدة من الصراع القديم. وفي ظل هذا الموقف يود المريض أن يسلك نفس السبيل الذي سلكه من قبل، ولكننا نستدعي، أو نثير كل قواه النفسية "لنكرهه على اتخاذ قرار آخر مختلف. وبهذا يصير التحويل ميدان المعركة، حيث تلتقي كل القوى المتنازعة؛ ومن ثم تتركز قوة اللبيد الكاملة، وجميع القوى المقاومة لها، وتحشد في العلاقة بين المريض والطبيب، ولهذا فلا مفر من كشف أعراض اللبيد".

"ويظهر المريض اضطرابات التحول المصطنعة بدلا من اضطراباته الأصلية؛ وبدلا من أن يتجه اللبيد إلى موضوعات شتى غير حقيقية، فإن

المريض لا يجد أمامه إلا فرداً واحداً هو الطبيب، وهو أيضا يعتبر شيئاً خيالياً. وعلى أية حال فإن الصراع الجديد على هذا الموضوع يرتفع إلى أعلى المراتب النفسية بمعونة الطبيب؛ ثم يستمر كصراع نفسي عادي، فإذا ما تجنبنا كبتاً جديداً، فإن النفور بين الأنا والليبيد ينتهي؛ وتستعيد الشخصية وحدتها النفسية. وإذا ما عاد الليبيد، وانفصل عن الموضوع المؤقت. وهو الطبيب، فإنه لا يمكن أن يعود إلى موضوعاته السابقة، بل يستمر تحت إمرة الأنا".

وهكذا يتألف فرضان: الأول هو أن الصعوبة الأولى بعثتها كلها صدمة مبكرة، والغرض الثاني، هو أن فرداً ناضجاً عاقلا يمكنه بإجراء ما أن يعيد أي موقف انفعالي مر به في مرحلة الطفولة، ثم بمجرد مشيئته، أو بالجهد يستطيع أن يغير أدوار المأساة التي يمثلها. والفكرة من الناحية السيكلوجية مضحكة. بقدر ما هي عديمة الفائدة من الناحية العيادية. ومهزلة التحويل أو مأساته "تمثل أدنى مراتب الانهيار المنطقي التي انحط إليها الفرويديون المتزمتون" فإن تخبط "فرويدي في بلاد الخطأ" لأقرب شبهاً بالقصة الخيالية "أليس في بلاد العجائب".

إن المحللين يندفعون في هلوستهم الكثيفة في سرعة، وكل يضيف إلى الوصفة، وكل يبتكر وسائله الخاصة بتحويل العواطف الخسيسة إلى ذهب ثمين مقبول. وهم يتناقشون بلسان العارف في مسألة المحلل، إن كان يجب أن يكون فعلا موضوع الحب، أو أنه يجب أن يحتفظ بنفسه موضوعياً، بعيداً عن الناحية الغرامية تماماً، ويعتبر نفسه مجرد "لوحة

بيضاء تعرض عليها صور حياة الطفولة عند المريض"؛ أو أن يعتبر المحلل نفسه "تمثالا خفياً ليضفي عليه المريض أوهامه وخيالاته؛ وهل على المحلل من البداية أن يتخذ دور الأب، ثم يتحول ليمثل دور الأم، وهل يولد المريض فعلا من جديد لأن خيالات الولادة في هذه المرحلة يمكن اعتبارها أكثر من مجرد استعارة".

لم يقبل يونج شيئاً من هذا السخف، ويتناول علاقة المحلل بمريضه كصلة سيكلوجية، هي "موضوع علاقة بشرية يتمتع فيها كل فرد بضمان احتلاله لمركزه الملائم"، فيحس المريض أنه مقبول كما هو، وأنه سيُرشد لينسجم مع نفسه بطريقة أفضل مما هو عليه، ليستعيد ذاته السوية العادية، ويتكيف بالظروف القاسية في حالته.

ولكن هذه الواحة المحبوبة لما فيها من سلامة الذوق والمنطق تختفي في عجلة وسط سراب التخمينات عندما يقدم لنا "اللاشعور الجماعي"، وما شابه ذلك من ألوان خياله؛ فلا يزال يلازم وسائله إحساس مصطنع بشيء يعد ابتكاراً فنياً في علاقة تستلزم قدراً كبيراً من اللياقة والمستلزمات العادية التي تقتضيها استقامة عقلية ومسئولية مهنية. والواقع أن مجرد الاعتراف "بالتحويل" كجزء من الوسائل يلقي ضوء قاتماً على العيادات التحليلية، وكان من الأجدر أن يقبلوا بدلا من العلاقات الوثيقة على أساس ما هو مقدر لها حتما.

وفي هذا المجال بالذات يدخل عنصر الخطر. ولا أستطيع أن أغمض عيني وعيون القراء بشأن القصص عن سوء استخدام العلاقة بين

المحلل والمريض مما يروي عن البعيد والقريب، وفيها ييسر "التحويل" وسائل سوء الاستعمال. ويضاف إلى مسألة التشبث بالجنس كسبب لأمراض العصاب، مسألة الوسائل المتبعة لإيجاد علاقة شهوانية، ولو من ناحية الشكل، ففي هذا المجال يجب أن نذكر أن كل المحللين، أو حتى الأطباء من حملة شهادات الطب، لا يتمتعون بالقداسة؛ ولنذكر أيضاً أن جميع المرضى لا يلزمون جانب الحذر. أما يزيد على هذا فإني أتركه لتقدير القارئ وبغير تحديد أو رقابة على خياله.

وأؤثر في هذا المجال أن لا أتحدث طويلا عن أخطار الوسائل العيادية؛ وهي وسائل بغير أساس على الرغم مما لبحثها من أهمية لتقدير الخطر الكلي الناشئ عن شيوع تعاليم خاطئة، وتطبيقات خرقاء، مما يحيط بالتحليل النفسي بالشكل الذي هو عليه، فأنواع السفسطة، والشرور الكامنة في وسائل هذا التحليل وروحه، إنما هي أجزاء من نبع خبيث واحد. وليس في مجال العمل الذي اخترت أن اضطلع به أن أوجه التهم إلى ممارسي التحليل أو أرضى عما وجه إليهم من تهم، رغم أني لن أتجنب الحديث في شأنها.

وأؤثر في هذا المضمار أن أؤكد، أن هذا اللون من الممارسة يشبه كثيرا سواه من المهن التي لم يصقلها العلم والحقيقة. وهذه الممارسة تصير سليمة العاقبة أو سيئتها تبعا لما يمكن أن نسميه بالمستوى الأخلاقي لممارسي المهنة، أو شرف المهنة نفسه. وقد وضع المحلل الفرويدي نفسه باختياره في هذا المركز المزعزع. واعتقد أن هذا الوضع

نشأ نتيجة لسيره في طريق الفروض الضالة، ومحاباة الناحية "الجنسية" التي يمكننا أن نضيف إليها أيضا مدى الانحطاط الشاذ الذي بلغ الحضيض بابتكار "التحويل"، وجعله إحدى الوسائل المقدسة.

والمريض لا يحتمل أن يحب أي محلل؛ وهذا مما دعا إلى اتخاذ التدابير لإنشاء "التحويل السلبي" أو النقل ليتبادل فيه المحلل والمريض البغض سواء أكان أيهما من الذكور، أم من الإناث. (ففي مهنة التحليل اليوم سيدات)، أم كان كلاهما من جنس واحد في عملية خلط عادلة من الجنسين، والعلاقات؛ وفي هذا المجال لا يسعنا إلا أن نتساءل كيف يستطيع محلل مشغول في عدة حالات أن يتتبع كل ما لديه من عمليات "تحويل" ويعرف مدى ما وصل إليه مع كل مريض من مرضاه في طريق العواطف المستقيم، أو الملتوي، فمثل هذا العمل يبدو كأنه يحتاج إلى أكثر من الحصافة الدبلوماسية التي يتمتع بها زير نساء من ذوي الميول المدربة على السطو عليهن).

والتحويل السلبي أو النقل يمتص قصة البغض في "غرام الأسرة" أو يعيد عرضها. أما "التحويل" نفسه فإنه يؤدي إلى حالة عصاب يحتل مكان العلة الأصلية التي تعد منحلة ومنتهية. ومن الواضح أنها تشفي بنفس مبدأ طبيب بيطري تحرير في استخدام الدود، ومن ثم حول علل حيواناته المريضة لتدخل في دائرة اختصاصه التي يعرف دواءها الأكيد! فإن أردنا تشبيها أكثر احتراما فإننا نجده في عمليات "مسمر" Mesmer في المأدبة (وهي كالتحويل فيما يحيط بها من ريب)، وكانت هذه

العمليات تتألف من أحداث أزمات، ثم تسويتها بالملاطفة، والملاينة، وإيجاد الثغرات. ويظهر أن قاعة أزماته قد وجدت لها خليفة في عيادات التحليل النفسي.

"وجهد المحلل من البداية في سبيل شحن الموقف بالانفعالات يتجه إلى زيادة صبغة بألوان الطفولة؛ ومن ثم فإن ألوان الخيبة والسادية التي منى بها المريض فترة ما قبل التناسل تتحرك من مكانها وتطفو، فيعمل المريض على ربط كل هذه الانفعالات بالمحلل"، وهكذا ينشأ التحويل العصابي. وهو القائل أيضاً "أن تاريخ نمو المريض يعاد تمثيله في غرفة التحليل"... فهناك يعاد إحياء "رغبات مضاجعة المحارم وخبرتها وعقباتها".

ويعاد الاعتقاد الواعي عن طريق الخبرة العقلية بحقيقة أوديب الطفلية بكل ما فيها من قوة ورعب.. وهذا مما لا يمكن حدوثه في أي مجال آخر من الخبرة البشرية.

ولا شك والحمد لله أن الأمر ليس كذلك.

ولا أستطيع أن اختم موضوع "التحويل" بهذه الملاحظة المتسامحة المسلية بشأن نكهته الوهمية، فإن مذاقه غير مقبول بأي معنى كان؛ وبما أنه يقع في دائرة نقدي فإن تفاهة طرقه المتبعة المستمدة من مبدأ سخيف تضع ممارسة التحليل النفسي في مركز قريب جدا من أعمال الشعوذة التي يدعيها من يطلقون على أنفسهم اسم "السيكولوجيين

التطبيقيين" الذين يهرفون بأنواع القوة والذبذبات والعواطف المتبادلة بين المشتغل بعلم النفس وبين مريضه أو تلميذه. وهؤلاء أيضا احتضنوا التحليل النفسي وأضافوا مسألة التحويل إلى مستودع دجلهم. وعلم النفس الطائش لا يقتصر على صفوف الدعاة والانتحاليين.

التحليل

من الخير أن نصل إلى قاعدة فرويدية تحظى من حيث المبدأ بالقبول في غير تحفظ، فالدراسة التحليلية عن طريق الفحص العميق للتاريخ الشخصي ولاسيما من حيث ما فيه من أزمات وصراع، ستظل إسهاما قيما خالدا من البصيرة التحليلية النفسية التي عند فرويد؛ وعلى أية حال فهي ليست الإسهام الوحيد، فالتحليل طريقة فنية كبيرة القيمة لفهم أنواع العجز العصابي وضروب النقص الخلقي، في نشوئها، وفي عملها، وعندما تفصح عن أشباهها في النفس العادية السوية.

ولا غنى عن الدراسة التحليلية في هذا السبيل، لأن معلوماتنا ناقصة عن الأسس السيكولوجية للاضطرابات العقلية بصفة عامة، وعن العصاب النفسي بصفة خاصة. وقد عرفت الدراسة التحليلية من زمن طويلة، من حيث هي عون على تشخيص العلل، وكفصل هام في قصة المريض الدفينة. وكان نصيب فرويد أنه وضعها في مكانها المناسب في مجموعة الطرق الفنية المتبعة. وقد تثبت أنواع الصراع ومجالاتها في النهاية أنها مضاعفات أكثر مما هي أسباب، وهي أشكال مخارج للسلوك المنحرف وتعبيرات عنه أكثر مما هي المصادر النهائية لذلك

السلوك الذي يحتمل في بعض الحالات أن يكون اضطرابا في وظائف الغدد (أن أردنا فرضا محسوسا). وهي على أية حال على جانب كبير من الأهمية. واكتشاف هذه الأعراض المرضية وإزالتها يؤلف جزأ لا يتجزأ من مهمة الطبيب النفسي.

ويعد التحليل الشخصي الطريقة الوحيدة الميسورة لكشف كثير من أنواع الاضطرابات العقلية الخفيفة والخطيرة؛ ولا يمكن أيضا الاستغناء عنه كعامل مساعد للكشف عن هذه الاضطرابات واقترح أن نستخدم عبارة التشخيص النفسي Psycho- Diagnosis لتجنب التعقيدات والمضاعفات التي تضفيها قصة فرويد والفرويدية على التحليل النفسي، والعبارة التي اقترحها محايدة وشاملة لإجراءات التحليل؛ وتبين هدفها وتنظمها في صفوف الإجراءات الأخرى للتشخيص؛ وتترك وسائل التحليل حرة لتنمو وتصقل وفقا لتقدم المعلومات العامة.

أما المحلل النفسي الفرويدي فإنه مقيد بلون واحد من التشخيص النفسي؛ وهو للأسباب التي ذكرناها غير مقبول في مجموعه من عدد كبير من الباحثين النفسيين وأطباء الأمراض النفسية. ويرحب التشخيص النفسي بمبدأ التحليل كل الترحيب وسيتحرر خلال نموه في المستقبل ليضم كل ما هو مستقر مقبول من النظم التحليلية عند فرويد ويونجوادلروالفرويديين الحديثين ومن تبعوهم.

ونلتقي في برنامج التشخيص النفسي بوسيلة "التداعي الحر" عند فرويد، وهي أيضاً إجراء ثمين. وقد اتبعها كثيرون من المحللين الذين

يعدون أنفسهم فرويديين مع شيء من التحفظ، ولأن مجالها في عمليات تشخيص الأمراض أكثر اتساعا من طريقة يونج؛ ولهذه الطريقة أيضا ميزاتها التشخيصية الخاصة. ولكن المسألة تتوقف على استعمال طريقة التداعي الحر بشكل يتجلى فيه الحذق والموضوعية، وأنا أؤكد أهمية الاثنين معا. ولقد قيل لنا مرات في عبارات جازمة بن "الحقائق" تظهر في التحليل، وأن من أهم موارده "التداعي الحر"، ولهذا فإن القيمة الاستدلالية لطريقة التحليل كلها إنما تكون في صلاحية إجراء التداعي هذا.

وأنا لا أرضى عنه بالشكل الذي استخدم به، فلست راضيا عن أسسه، ولا تعميم استعماله، فإن التداعي الحر كما يسمى ليس حرا كاملا الحرية، بل يخضع في جملته لتوجيه الموقف الذي يتخذه المحلل، ولأسئلته، ووجهة نظره المعروفة، ثم بعلاقته بالمريض؛ وفرص الإيحاء في هذا السبيل متوفرة، وهي تتسلل في خبث مهما كان الإنسان حذرا. ولست أشير بهذا إلى أشكال الإيحاء الفجة التي تنشأ عن العلاقة بين الطبيب والمريض، والتي خدعت طبيبا نفسيا بارعا كشاركوه، فجعل يدعى "اكتشاف ثلاث حالات معينة للنوام المغناطيسي. ولست أشير أيضا إلى ألوان الإيحاء الأولية التي دفعت الدكتورة "ليس" Luys السريعة التصديق إلى "اكتشاف" أن العقاقير الموضوعة في أنبوبة مغلقة إذا ما وضعت على رقبة مريض بالهستريا أو عرضت في حضوره، أدت إلى حدوث نفس الأعراض التي تنشأ عن حقنه بها.

وما أعنيه هو أن عملية سبر الغور والفحص العميق يحتمل أن تؤدي إلى تأثير إيحائي إن كان وراءها نظرية ابتسارية، كما هي الحال في الحالات التي ذكرت؛ كما يحتمل أن تؤدي إلى إدراك المرضى لما هو منتظر منهم. ويحتاج تحرير تسلسل خواطر المريض وانفعالاته وخيالاته من التأثير بتفكير المحلل ومبادئه إلى كثير من الحذر والتحفظ، والرقابة على شكل التشخيص النفسي.

ومن الواضح أن طريقة التحليل هي أفضل ما وصلنا إليه. وليس لدي ما اقترحه كبديل لها. واعتقد أنها يمكن أن تنقى بوسائل رقابة مناسبة لتعطي أدلة يمكن الاعتماد عليها بشأن أنواع الصراع الداخلي وأجهزته مما يحتمل الظفر به. ويؤسفني أن تعوزني الثقة بطريقة استخدام الغالبية العظمى من المحللين للتحليل النفسي، وغزارة إسهامهم في مؤلفات التحليل النفسي مذهلة، فالأحوال التي ينتقلون بها من المبادئ التي يضعونها إلى تطبيقها تزيد عدم ثقتنا بالنتائج التي يصلون إليها؛ فخطط العملية صحيحة، ولكن تنفيذها خاطئ.

ويجدر بالقارئ أن يلاحظ في عناية ودقة الدائرة المنطقية الأثيمة التي تسير فيها الحجة الفرويدية، وليكن مثلنا في هذا السبيل مسألة الأدلة "الأوديبية"، فهم يزعمون أنها مستمدة مما يقدمه المريض إلى التحليل، ولكنها ما كادت تظهر حتى فسرت الأعراض المرضية، والخيالات، وأنواع القهر، والعقبات والأحلام، والسمات الشخصية على أساس وجود عقدة أوديب هذه. فليس هناك من رقابة أو ضبط حتى في

تحليل الحالات المتحررة من أمراض العصاب مثلا، وليس هناك من موضوعية ولا معايير ثابتة. ومن المعروف أن قيمة التسلسل إلى النتيجة تقدر بقوة أضعف حلقاتها، وهذه القيمة مصابة بضعف فتاك هو التدخل الذاتي.

والأحلام بالشكل الذي تعرض به خالية في الواقع من التدخل، ولكن "التداعي الحر" بالشكل الذي يطبق عليها يتعرض للاعتراضات نفسها؛ ويسري ذلك أيضاً على مسألة تفسير العقد على أنها سمات خلقية. ومع ذلك فإن كلا من طرق التداعي الحر، وتفسير الأحلام، وتشخيص الخلق كلها طرق قيمة، وتنطوي على مبادئ قويمة، ولكن التطبيق المغرض يجعلها تؤدي إلى نتائج غير صحيحة. وفي رأيي أن وضع نظام لإصلاح التشخيص النفسي في المستقبل سيلغي جانبا كبيراً من الاكتشافات الفرويدية؛ وبرغم هذا الإلغاء فإن فرويد سيعد مؤسس طريقة نفسية عظيمة القيمة.

ونعود الآن إلى عامل آخر في طريقة التحليل، وهو "العلاج الكلامي" أو "التنفيس" Catharsis ويقصد به كشف العقد وإظهارها في وضح النهار بغية طردها كما لو كانت أشباحاً. وقد اكتشفه في الأصل "بروير"؛ وكذلك أثار السؤال الناجم عنه؛ وهو "لماذا يتم الشفاء في حالة الشعور؟" وهذا السؤال الجوهري تحكم في توجيه كل إجراءات العلاج النفسي، ومع ذلك لم يتعرض له أحد حتى من المحللين النفسيين من

طائفة فرويد، ولكن "شمالهوزن"[٢٤] Schmalhausen ناقشه في براعة. و"شمالهوزن" من المشتغلين بعلم النفس وممن يرحبون بالآراء الفرويدية المنسقة في أوضاعها المنطقية.

ومن العسير عرض رأي شمالهوزن "في مناقشة مختصرة لأنه شديد التعقيد، إذ يتضمن الراحة من التوتر، وحسن التقدير، وإعادة التربية، ودفع الفرد إلى التحكم في عواطفه وانفعالاته عن طريق الموضوعية الذهنية التي تنطوي إجراءاتها على أن مختلف الموضوعات لها قدرة مختلفة وأن تكن محدودة في العادة، ولكن الناس الذين تتوافر فيهم أكثر من غيرهم يحتمل أن يكونوا أقل الناس حاجة إلى خدمات المحلل النفسي. وليس كل شعور شاف بل أن الحالة التي نسميها بالشعور إنما هي مرض فعلي، وعمليات التنقيب في جذور النوامي الحساسة مؤذ، وهي جميعاً تنطوي على عملية التنفيس أو العلاج الكلامي البسيط عند "بروير" ولكنه نما وتضخم إلى جلسات يومية منظمة تستغرق شهوراً وأعواما وتدر إرباحاً طيبة، وفي هذه الجلسات تضخم أبسط الحوادث وتحبك لتكتسب دلالة واهية خيالية.

والتحليل الطويل الذي صار دعامة مهنة التحليل النفسي بأكثر من معنى، إنما هو إسهام أشخاص يعبدون الطقوس. فبأي حق وجب أن تستغرق عملية التحليل عدة أشهر أو سنوات في المسامرة، وأن يدفع فيها أجر المحلل بالساعة؟ ومن الطبيعي أن يثير هذا الإجراء كثيراً من

---

(٢٤) في كتابه "طبيعتنا المتغيرة" Our Changing Human Nature في فعل "هل حالة الشعور شافية؟".

الريب بشأن العلم، وعما إذا كان وسيلة سخية لجلب الدخل الحسن. وقد علمت وأنا أكتب هذه السطور أن حصن التحليل النفسي في "فينا" قد اقتضب فترات التحليل بسبب الأزمة المالية. وعلى أية حال، فالعلم ليس قليل التبصر في مطالبه كما يظنه الناس.

ويجيبون على هذا الاعتراض بتحويلنا إلى مسألة المقاومة وطبقات التغليف الكثيرة في اللاشعور. وهي طبقات تجب إزالتها بالتدريج، وبعناية قبل الوصول إلى النفس "الحقيقية" العارية المتسمة بطابع الطفولة، ويقول أحد المحللين أنه لا يجرؤ على المغامرة بفحص تعقيدات حياة الأحلام قبل الشهر الثالث من بدء التحليل. ولكل محلل وسائله وقواعده الخاصة، وكلها تعسفية توحي بأوهام هذه الفئة وعبادتها للطقوس.

وهناك أيضاً من يدعون إلى التحليل المختصر، ولكنهم غير محبوبين من زملائهم في المهنة. أما آدلر فكان واثقاً أن أقسى العقبات– في الأطفال على الأقل– يمكن أن تشخص في جلسة واحدة. وكان من الأفضل عنده أن لا يشاهد المريض، ولكن أدلر يعد مرتداً كافراً. وعلى أية حال فإن هذه قصة أخرى. أما نقطة الضعف المركزية في طريقة التحليل النفسي فهي تعسف إجراءاته القائمة على فروض مغرضة، وهذا مما يجعل الفرويدية إحدى النحل التي تتبع مذهباً خاصاً له طقوسه، ولكنها ليست علماً.

"حالة فرويد"

من الواجب أن نتخيل بطريقة ما مشهداً لعملية تحليل كاملة ونعرضها في الصورة العيادية. وتتضمن حالة أي مريض تفاصيل مطولة مملة، أما تحليل فرويد نفسه فعملية ممتعة حقاً، ولاسيما أن صراحته في الكشف عن سماته الخاصة أتاحت له أن يضع نفسه على المشرحة. فمن كتاب تاريخ حياته استخلص أحد المحللين المواد اللازمة لكتاب "عقد فرويد الدرامية"[٢٥].

The Tragic Complex of Freud

ويقول "مايلان" مؤلف هذا الكتاب إن المأساة تتفق في كل تفاصيلها مع الدراما التحليلية النفسية التي ينطوي عليها "غرام الأسرة" فهي تبدأ في الطفولة– وقد خلقت الصدفة التي حدثت له فيها ندوباً نفسية دائمة. وتلك هي العقدة المحزنة؛ فعندما كان الغلام "سيجموند" في الحادية عشرة أو الثانية عشرة من عمره، قص عليه والده ما وقع له في يوم عيد بحي اليهود. وكان هدفه أن يوضح له في جلاء كيف أن عهده أفضل من عهد والده. قال الأب "عندما كنت شاباً ارتديت أفضل ملابسي في مساء يوم سبت، وكنت أسير على أفريز الطريق، فأقبل

---

(٢٥) مؤلف هذا الكتاب هو "تشارلسمايلان" Charles E. Maylan من مدينة ميونخ وقد طلب إلى فرويد أن يتقبل كتابه العدائي بروح الصداقة الأبوية، وهذا التقبل غير محتمل الحدوث لأن موضوع الكتاب انتقى مسائل مثيرة للبغضاء، ويجد لذة خبيثة في الحط من شأن التفسيرات المختلفة.وإذا ما نظرنا إليه من حيث هو مثال يوضح الفضائح المحتملة، فإن الكتاب يعد شرعياً إذا ما قورن بكثير من حالات التحليل التي لقيها المرضى على أيدي ممارسي التحليل. (المؤلف)

مسيحي، وطوح بقبعتي المصنوعة من الفراء، وألقاها في الطين، وهو يصرخ. ابتعد عن الإفريز أيها اليهودي".

وكانت معرفة فوريد بأن والده "القوي" استسلم بغير أي احتجاج على هذا الاعتداء المشين سبباً في نشوء صراع في نفس الابن الذي كان يخشى والده بقدر ما كان ينقم منه ويكرهه. وأدى به التأمل في هذا الحديث مع ما يعتمل في نفسه من التناقض العاطفي الذي جعله التحليل النفسي من السمات البارزة– أديا إلى نمو الخيال "الهانيبالي" أو التعاون معه، وفيه كانت روما عدوة هانيبال[٢٦] الذي تقمص فرويد شخصيته. وكانت روما تعد رمز المسيحية بما تضم من منظمات قوية تقف كلها على طرفي نقيض من اليهودية المتواضعة. وقد لازم هذا العداء فرويد في حياته حتى أنه عند زيارته لإيطاليا رفض أن يزور روما الممقوتة وسافر مباشرة إلى نابولي.

وفي مناسبة أخرى زار فرويد روما، فأخذ بالنظرة العابسة التي رسمها الفنان ميشيل أنجلو لتمثال موسى: فهو في رأيه يمثل تهديد الأب، وهو التهديد المعروف عنده بعقدة الخصاء. وقد ظهر تمثال موسى "لميشيل أنجلو" كشيء مجهول، وهذه مسألة كبت لها دلالتها،

---

(٢٦) هانيبالHannibal (٢٤٧– ١٨٣ قبل الميلاد) وهو من أشهر ملوك قرطاجنة، ومن الغزاة الفاتحين. وكان قد أقسم وهو إلى جوار فراش موت والده أن لا يكن لروما إلا كل عداء. ونازلها بالفعل في عدة مواقع عسكرية هامة بعد أن اجتاز جبال الألب في حركة حربية بارعة خلدت اسمه في التاريخ. وقد توغل في إيطاليا مسافة طويلة، ولكنه لم يتمكن من مهاجمة مدينة روما نفسها، فإن حاكمها كان مراوغاً شديد الجذر حتى أنه آثر ألا يشتبك مع هانيبال في معركة حاسمة. وأخيراً اضطر هانيبال إلى العودة إلى أفريقيا بسبب المنازعات التي نشبت فيها. (المترجم)

فإن تحليل فرويد لوقفة التمثال تدل على الخطيئة الكامنة في ضمير فرويد، رغم أنه كان في الثامنة والخمسين من عمره، وهذه الخطيئة تكشف عن آثامه الجنسية في صغره، فإن سبابة اليد اليمنى لتمثال موسى كانت تمسك بالجانب الأيسر للحيته وتوجهها إلى ناحية تلفت النظر إلى اللوحة اليسرى للوصايا العشر، وما هو يساري في عرف فرويد هو المحظور؛ ومعنى هذا الوضع الفني للتمثال في رمزية التحليل النفسي هو أن اللحية تمثل الأم، والرأس يمثل الأب، وأن رغبة الإبن في أمه، ثم نظرة الخوف الدالة على الخطيئة في مواجهة لوم الأب وتقريعه هما مبعث التأثير الانفعالي في التمثال.

وفي مناسبة أخرى تقمص فرويد شخصية "هاملت" [أحد أبطال مسرحية الشاعر الإنجليزي شكسبير وكان والده يظهر له كشبح يطالبه بالثأر لمقتله] إذ كان شبح والد فرويد يتدخل في حياته، فينزل به رعباً يشل حركته، ويحدث به صراعاً عصابياً. ويتكشف سر حياة فرويد الخاصة، ومهنته، وما يقال عن نظامه الموضوعي في التحليل النفسي، فتعرض كلها بشكل يجعلها تفصح عن وجود مركب درامي يتألف من أوديب، وهانيبال، وهاملت، والتشيع للسامية، وتأييدها، وعقدة التضحية، وكل ما في هذه العقدة من حقد مرير، وحب في الانتقام. وهكذا تضاف الأحداث الواحد إلى الآخر مما يقع في الحقيقة أو في الحلم؛ وفي عالم الواقع أو في عالم الخيال، ثم تفسر من الناحية الجنسية أو بالتحقير من أمرها.

ويُفسَّر كتاب فرويد "الأنا والهو" على أنه عملية انفعالية عصابية لتبرئة ساحة الذات، وفيه يمثل "الأنا" فرويد، ويمثل "الهو" أمه، والجزء الهام في الكتاب هو "الأنا الأعلى"، ويمثل الأب؛ وعدم ضم "الأنا الأعلى" إلى المجموعة هو كبت يدل على رغبة فرويد في أن ينفرد بأمه، ولو على صفحة عنوان كتاب[٢٧] والواقع أن تدبير صف حروف الطباعة كان بطريقة ماكرة خبيثة حتى أنه لم يخلف فراغاً لإضافة لفظة أخرى.

وفي هذا المجال يتلاقى التحليل الجدى، مع التهكم المغرض الخبيث، والمعارضة الساخرة، فيسير كل منها كالآخر حتى يتعذر تفريق حالة عن الأخرى، ومن ثم نعثر على العقد في كل مكان. حتى اختيار فرويد لمهنته لم يكن مسألة تقدير عقلي، بل جاء نتيجة عاطفة عميقة، ومرض نفسي شخصي؛ أو بعبارة أخرى جاء نتيجة لتدخل شيطاني من "اللاشعور". وهكذا نجد أن الدافع الذي حفزه إلى احتراف الطب يحتاج إلى تفسير. وهو يقول "بعد مرور إحدى وأربعين سنة على ممارستي للطب دلتني معلوماتي عن نفسي على أني لم أكن طبيباً حقيقياً في الواقع". ويقول عن فترة اتخاذه لقراره، "لم أكن شاعراً بالحاجة إلى معاونة البشرية في آلامها، فإن ميولي السادية لم تكن قد ظهرت، ومن ثم فإن السمات التي تستمد منها لم تكن تتطلب أي نمو".

وتبعاً لهذا المحلل فإن الباعث الفعلي لدراسته للطب كان رغبة منه في الظفر بما يرضى فضوله بشأن ما يدور في الحياة الخاصة بين والديه، إرضاء مؤيداً بالأدلة.

([٢٧]) يلاحظ القارئ أن فرويد أطلق على كتابه "اسم الأنا والهو" ولم يضف إليه اسم "الأنا والأعلى" (المترجم)

وخلاصة الموقف أن فرويد. وكل أعماله، لست إنتاجاً ناشئاً عن براعة علمية، أو فضول ذهني، أن هذه الأعمال في جوهرها إنما هي إنتاج فرعي نشأ عن عداوة فرويد الخاصة لكل ما هو عظيم ومرح وحر؛ فهي نتيجة حقده على والده وكل من يشبهه، ثم بغضه للمسيحية و"يهود"[٢٨] بسبب اليهودي التائه. وإذا ما تحدثنا مستندين إلى النصوص المقدسة، وإلى التحليل النفسي في وقت واحد، فإن هذا الإنتاج "نشأ عن رغبة اليهود الملحة في تحقيق الوعد البعيد المنال ليرجوا إلى الأرض الموعودة"، المعروفة جيداً لهم، ولكنها ظلت مرحلة "تناسلية"، ولكنها بعيدة المنال؛ فيراها مركب "موسى– فرويد" من بعيد مكتفياً بأن يرشد إليها الشعب اليهودي دون أن يدخلها موسى[٢٩] أو فرويد بسبب الخطيئة الوراثية التي ظهرت كحب جنسي يتمثل في خوف رهيب من الأب، واتجه إلى الأم، ثم انحرف، وتحول إلى ممارسة العادة السرية.

والغرض من ذكر هذا المثل الفج الطائش من التحليل هو أن نوضح ضروب التلاعب المختلفة بالألفاظ والحقائق عند قراءة بواعث اللاشعور ودلالاتها؛ ومعنى هذا أن قليلين منا سيكونون أفضل حظاً أن هم عنوا بتسجيل بواعثهم الدفينة، وألوان سلوكهم في لحظات الغفلة المختلفة. وهذا يعزينا عما نحس به من غموض. حقيقة أننا جميعاً نعيش في بيوت من زجاج، ويحتمل أن نغتبط لأن الأشعة الفرويدية لا تخترقنا وتتغلغل فينا إلا بموافقتنا ورضانا.

---

(٢٨) Jehovahيهوه: أحد أسماء الله عند اليهود وهو مذكور في التوراة. (المترجم)

(٢٩) تروي التوراة أن موسى لم يدخل أرض فلسطين، وإن كان قد رآها من بعيد لأن الله حرمه دخولها بعد أن كسر لوحة الوصايا العشرة حين غضب على قومه لعودتهم إلى عبادة الأصنام (المترجم)

ومن الواضح أن الهر "مايلان" يعد أشد تطرفاً، وأقل احترازاً مما لا يمكن أن يكونه ممثل للحركة الفرويدية. ومن الجلي أن هدفه الظاهر هو الاستهانة بأمر فرويد، ولكن من العسير أن نجد منطقة أكثر تكلفاً من منطق فرويد في بعض الحالات، ولاسيما حين يشرح فرويد نظامه لمرضاه، وحين يطبقه على نزواتهم الخاصة، أو على متاعبهم. وعملية تشويه شخصية فرويد بيد أحد النقاد المغرضين ليست في جوهرها أكثر شناعة من السب العلني الذي وجهه فرويد إلى البشرية، وهذا ما أرفضه على أسس من علم النفس العلمي لا على أسس أخلاقية.

ومجال هذا النقد هو تحدي المبادئ الفرويدية، فإن كانت سيكولوجية فرويد خاطئة، فإن خطأها يشيع في كل ما أنتج فرويد، لأن الدافع على نشوء مشروعه كان القول بأن علم النفس لديه مفاتيح الاضطرابات العقلية. ومصير الطرق الفنية التي استخدمها فرويد يتقرر بالمبادئ التي قامت عليها. ولقد ركزت اهتمامي على معتقدات المحلل وأسبابها، لأنها تؤثر على تصرفاته حيال المريض. وطرق التشخيص النفسي يمكن تطبيقها بحرية على الشخص السوي العادي، وعلى سماته الخلقية؛ كما تطبق أيضاً على المريض العصابي. أما مسألة العلاج فمشكلة أخرى، فإن الطرق التشخيصية هي التي تسود سيادة تامة في الإجراءات العيادية، وبهذا يستطيع الإنسان أن يميز في الحال أنه سيجد من يصغون إلى فحص التحليل النفسي. ومن ثم نصل إلى نقطة إلتقاء المبادئ وتطبيقها، أو بعبارة أخرى إلى نقطة إلتقاء هندسة البيت الذي بناه فرويد بالأعمال التي تجري فيه.

وتقع على عاتقي الخاص نتيجة حكمي على محاسن كل منهما وهذا الحكم يتخذ هيئة نبوءة بمستقبل هذه الحركة الخطيرة في التاريخ الذهني. وسأبدأ نبؤتي بالوجه الخاص بالعلاج، وبالمزاج السائد في عمليات التطبيق، فإن المبادئ والحجة والوسائل والعلاج كلها من طبيعة متساندة. وهنا ينتهي ما في جعبتي.

ولقد رأيت أنه من الهام أن أعرض منظرا عاما لمجموعة البناء الفرويدي بما يضم من ابتكارات رائعة، وبما فيه من تحد لعلم النفس المعاصر. ولما وضعت الفرويدية في الميزان، وجدتها تنقصها المادة التي تجعلها طبيعية؛ فعن طريق هذا النقص، وبمعونة التحرر من السبل المنطقية الجوهرية التي قامت على أساسها العلوم الطبيعية صارت الفرويدية قلعة من الأوهام. ورغم تناقض النتيجة– وهي ظاهرة ليست فريدة في نوعها– وأن تكن جائزة في مضمار الأهمية، فإننا نجد كنزاً ثميناً في قصر التيه الفرويدي، ومسالكه الملتوية. وهو كنز جدير بأن نواصل البحث عنه باستمرار.

الباب التاسع

مستقبل فرويد

المزاج

إن القوة التي دفعت حركة التحليل النفسي إلى موجة عاتية من الظفر بانتباه السواد الأعظم من الناس والتي خلقت لها عدداً كبيراً من الأتباع ممن لم يقنعوا بالسبل التقليدية واتجاهاتها، هذه القوة تكمن في التوجيه الصريح للأدوات السيكولوجية الفاحصة بغية حل مشكلات العلاقات البشرية الحميمة الملحة. وسواء أكان التحليل النفسي خاطئاً أم مصيباً في نتائجه، وضعيفاً أم قوياً في حجته، وناجعاً، أم قاصراً، أم مدمراً في تطبيقه، فإن رسالته كانت إنسانية إلى مدى واسع. ولقد عرض التحليل النفسي على أنه منهج للنجاة والخلاص. وبغير هذه الإغراء، فإن علم النفس ذاته ما كان ليظفر بمكانته الحالية من التمجيد والإجلال.

ويظهر أن رسالة فرويد كانت تدعو المرء وتقول آمن وبرهن في نفسك بالذات، تظفر بالراحة والخلاص، فالأقل في المعونة الشخصية كباعث ودافع نفسي أقوى وأكثر تغلغلا وانتشاراً من التحمس للفهم والغيرة على حسن الإدراك؛ فمن يحسون بالعقبات الكأداء تعترض سبيلهم، ومن يشعرون بالخطر النفسي المؤلم، سيستمعون لأي صوت، ويشتركون في أي مشروع يعدهم بفك قيودهم؛ وأولئك الذين لم يتلاءموا

مع بيئتهم، وفي الوقت نفسه يحسون بانحرافاتهم مستعدون لتقديم كل تضحية ليتساووا مع غيرهم؛ وأولئك اليائسون والمنزعجون واليائسون يحنون ويتحرقون شوقاً إلى السعادة، ويشتد حنينهم حتى أنهم ليبذلوا آخر قطرة من جهدهم.

ولقد جاءهم العلاج الموعود في التحليل النفسي، فكان أحدث أنواع العلاج وأقواها أملا، وأكثرها إطلاقاً للمرضى من أسر أنظمة العلاج التي سجلها تاريخ علاج الأمراض العقلية. وكان موقف التحليل النفسي من الاتجاهات المعاصرة في علم النفس هو اللوم والتحدي واعتبارها فاشلة، وفي حاجة إلى تكملة؛ أما تصرفاته الفعلية، فانطوت على تجاهل تلك الاتجاهات في غير لباقة.

ولم يكن للتحليل من صلة مباشرة بالأغراض العملية المتجهة لدراسة مدى القدرة البشرية بواسطة علم النفس التطبيقي، ومن ثم فلم يحدث بينهما صدام؛ ولكن هذا لم يكن إلا فتات المأدبة وكانت الحلول التي عرضها المذهب السلوكي تسعى أيضاً إلى نيل التقدير والاستحسان الشعبي بالدعوة لفكرة خفض عملية التلاؤم مع البيئة إلى برامج الأفعال المنعكسة الشرطية، فكان من الضروري أن تجده غريباً بعيداً عن المطلوب؛ وعلى هذا وجد السلوكيون أن تعاليم التحليل النفسي غامضة، وخيالية، وافتراضية إلى حد بعيد. حتى مبادئ الصحة العقلية القريبة منه– كما مر الحال في صلاتها بمجالات علم النفس المتصلة بها– فإن التحليل النفسي لم يتخذ أية خطوة في سبيل التوفيق بينه وبينها.

وكان موقف التحليل النفسي من طب الأمراض النفسية عدائياً رغم القرابة الواضحة بينهما؛ وكان بكل صراحة يعرب عن اشمئزازه من قريبه غير التقدمي. وامتدت الخصومات بينهما حتى تناولت العقل وأمراضه، ووصلت إلى الذروة في العمليات التطبيقية. وكان التحليل النفسي حدثاً جديداً في تهجمه، وثورياً في إجراءاته، ومطلق الروح يفكر ويعمل كما يشاء؛ وهذا هو الذي قرر مزاج المعركة الكلامية. ومن طريقة استقلال هذه الحركة في ماضيها وحاضرها، يجب أن نستخلص معياراً لتقدير مستقبلها. واصطدام الفرويدية بالنظم المستقرة يعد أساساً للتنبؤ عن هذا المستقبل، ويضع العلاج التحليلي النفسي في الخطوط الأمامية للهجوم والدفاع.

ولقد سارت الفرويدية في طريقها الخاص منذ نشأتها وفي أيام كفاحها المرحين كان أنصارها قلة متناثرين، وظلت محتفظة بحريتها حتى بلغت أوج عظمتها، فكانت تتناول بعض المشكلات والاهتمامات التي كان علم النفس الأكاديمي ينظر إليها شذرا، ولكنه كان في الغالب يهملها؛ وقليلا ما تحدث علم النفس المألوف عن الأحلام والفلتات وأمراض العصاب. وكان ثاني الأسباب الهامة لما خلفه التحليل النفسي من أثر، هو تمييزه لعلم "نفس الأعماق"، وذلك منذ ظهر وصمد لمقاومة الأكاديميين الذين هاجموه، فالتحليل أوثق صلة بالنفس من تحليل العوامل العقلية وتركيب عناصر العقل.

وبهذا قدم التحليل النفسي لعلم النفس مركزاً جديداً من المرجح أن يحتفظ به؛ فالتحليل النفسي في جملته سيبقى، من حيث ما يرجى منه، ومن حيث ما ألقاه من أضواء. وسيظل العمل الذي بدأه فرويد نقطة تحول في تاريخ علم النفس، وفي زيادة المعلومات عن منابع السلوك البشري، وكيفية إدارتها، وضبطها. وهذا المستقبل مضمون لفرويد، ومن الجائز أن نتنبأ به.

والمزاج الذي وجه الحركة الفرويدية في الماضي والحاضر عامل هام في التنبؤ عن مستقبلها، وخاصة عن المستقبل القريب؛ فإن تصرفات المدعى عليه، كما هي الحال في المحاكمات القضائية، لها قيمتها إلى جوار أدلته وحججه. وستظل قضية الفرويدية تعرض للحكم المرة بعد المرة رغم أنها غالبت حركة التحزب ضدها لمنع النظر في أمرها في حياد وعدالة، ورغم ما تتمتع به من سعة الانتشار في السنوات الأخيرة.

والرأي العام المعاصر يتألف على أساس الخبرة الشخصية، وانتشار ما هو حسن، أو سيء، من فم إلى فم. وهو يسير في هذا الطريق إلى أن يصدر حكمه، فتقوم السمعة على أساس أنواع العلاج أكثر مما تقوم على النتائج المنطقية. والحركات المماثلة للحركة الفرويدية تنتعش وتضمحل بحسب مدى انتباه الشعب إليها، وانصرافه عنها لأسباب غامضة يصعب تحديدها. ولهذا فإنه من المناسب أن نقدر المستقبل أولا وفقاً لمدى تأثره بالنجاح الذي تلاقيه عمليات ممارسة التحليل النفسي، ووفقاً لصداه في البيئة العامة المحيطة به.

وتلهج السنة أكثر المعتلين بالشكر إذا ما ارتاحوا من عللهم دون أي فحص أو اختبار انتقادي للنظريات التي شفوا بها. وأي مطلع على وسائل العلاج سواء أكانت ناجحة أم فاشلة– ومنها تلك الأدوية المزعومة، والعلاجات السخيفة التي يذيع أمرها بين الناس بواسطة الدعاية البراقة التي اتسم بها العصر الحاضر– فإنه ليس في حاجة إلى من يخبره بأن الأساس العلمي لأي نظام علاجي، إنما هو أقل العوامل أهمية في هذا الشأن. وينشأ كثير من هذه النظم– وهي تؤلف مجموعة خاصة– على هدى التجارب والخبرة في أثناء الممارسة لأنها تعطي نتائج إيجابية فيما يبدو لنا.

ومن الجلي أن هذا لا يصدق على حالة التحليل النفسي الذي ينتمي إلى مجموعة النظم العلاجية التي تستمد إجراءاتها كلها من نظرية نشأت في أصلها وفي مراحل نموها من إيحاءات صدرت عن الملاحظات التي يتم الحصول عليها في العيادة الطبية. وفي هذا المجال يقول مبدأ سيكولوجي ملائم: أخلق اعتقادا في النظرية تخلق الحقائق نفسها. وقيمة هذا الرأي تختلف بالنسبة للتحليل النفسي عن قيمته بالنسبة للروحانيات، ولا نزاع في أن تقدير التحليل النفسي تقديراً وافيا، وذا أثر ناجع سيكون على أساس المبادئ التي يقوم عليها. ومع ذلك فسيظل مصيره معلقاً على ما يوفق إليه في نواحيه التطبيقية نحو عشر سنوات أو أكثر. ولا أملك إلا أن أكرر بأنني لا أرى في هذا السبيل ما يدعمه، بل أرى كثيرا مما يضعفه؛ فأزمة التحليل النفسي قريبة الحدوث

حين تصل موجة نقده وتقديره إلى ذروتها، بل أن النقد الذي أقدمه الآن إنما هو من وحي هذا الاعتقاد.

ولقد ظهر العلاج بالتحليل النفسي في برنامجي في هذا الكتاب لأنه يوضح بعض وجوه التعاليم الفرويدية، ومنها عملية التنفيس أو العلاج الكلامين، وهي إجراء قديم عرفناه في مسألة الاعتراف الديني. ولها فائدة راسخة؛ فإن العقول الملتاثة عندما تبث أسرارها إلى خشية نومها الصماء، تستطيع أيضاً تتخلص منها بطريقة أقوى. وأكثر تأثيرا، بالإفضاء بها إلى مستشار حصيف.

وفي عمليات الفحص الفرويدية تحول الاهتمام إلى الكشف عن العقد؛ وهذا بدوره تحول إلى البحث عن أنواع التوقف في مراحل الطفولة؛ وكذلك تحول العلاج إلى القضاء على المقاومة أو إلى مداورتها؛ ثم تحول مرة ثانية عندما أدخل مسألة العلاقات المعقدة الخاصة "بالتحويل". وفي كل من هذه التحولات زاد تغلغل إجراءات العلاج في المقدمات الافتراضية. وفي رأيي أن هذا أبعده عن القاعدة السليمة التي يمكن تحقيقها. وعن أن يكون فناً له مستقبله.

وهكذا صارت الإجراءات موضوع نزاع ونقاش، ودخلتها البدع. وأثار الموضوع المنازعات والمناقشات– وهي مناقشة خطيرة في نتائجها– فتناول الناس مدى خضوع إجراءات إعادة تكوين الخلق، والتلاؤم مع البيئة– ونحن جميعاً نتفق على هدف العلاج– إلى العامل الذهني الخاص بالتذكر، وإلى أي مدى تحتاج إلى عامل الانفعال الخاص

بأن يحيا الإنسان تلك التجارب من جديد، فيفصح عنها، ويستبدل ما يرضيها بغيره، أو أن يستسلم لنفوذها.

وقدم لنا "فيرنزي" "علاجاً فعالاً" حدد فيه أوجه نشاط معينة تعمل على إطلاق البواعث النفسية المكتومة، وهذا يتفق مع المبادئ المقررة للصحة العقلية، ولكن ما قدمه "فيرنزي" كان حافلاً بالفروض الخيالية مما أخرجه من نطاق الأمور المعقولة. وكذلك قدم "رانك" نوعاً من الفوضى عندما جعل كل ألوان العلاج الخاصة تتوقف على نظرية "إعادة إظهار الحالة التي داخل الرحم". ومن الواضح أن الأمل ضعيف في الوصول إلى علاج منطقي ثابت في هذا النوع الكثير النزاع من التحليل النفسي.

أما "يونج" فيؤلف إجراءات علاجه في اتجاه مختلف كل الاختلاف. فإذا انتقلنا إلى "أدلر" فإنا نجده يخرجها من مجال التحليل النفسي، رغم أن هذه الإجراءات موجودة فعلاً في العلاج النفسي العام. والتغيرات التي استحدثها تعد ذات أهمية عظمى، فهو يجعل العلاج النفسي قوي الصلة بالبرنامج الأخلاقي التربوي، ويدمجه فيه إلى حد كبير حتى أنه ليفقد مميزاته، ويتخذ مظهر دعوة تبشيرية؛ وهذا الاتجاه ينتشر انتشاراً كبيراً، ويصير أشبه بالطقوس الدينية. وهو يصر كذلك على إتباع طريق واحد، وحل معين للصعوبات العصابية؛ وهذا الحل جعل الشعور بالعظمة– وهو دائماً ما يخفي النقص أو يكون تعويضاً جيداً، أو سيئاً له– هو الأساس العام الشامل: وهو أساس ضعيف قلق، وغالباً ما

يكون عديم القيمة، سيء التكوين شأن أي دواء يوصف لشفاء جميع الأمراض.

وخطأ موقف أدلر جسيم في أنه يبسط بطريقة خاطئة مشكلة من أكثر المشكلات تعقيداً، حتى أنها لتكاد تفقد كل مادتها وقوتها. ولا تترك إلا القليل الغامض مما لا يمكن تناوله أو استخدامه كأساس للعلاج. فليس في وسعك أن تحول مهربا إلى مبشر ديني مخلص بمجرد لفت نظره إلى "نمط حياة" خاطئ صحب تربيته بوصفه أكبر فرد في الأسرة. وفي هذا المجال يسود اتجاه النحلة الطقسي مرة أخرى، ولكن ناحية واحدة مرموقة من النواحي التي تأكدت ظلت باقية. وإذا ما سرنا في الطريق الدائري عند أدلر، فإننا نصادف أولاً "النقص العضوي" ثم "النقض النفسي" ثم "التعويض" ثم "نمط الحياة" الذي يسود. ومن هذا الطريق الدائري أكد أدلر أهمية "الهدف" واعتبره كالدليل المرشد للعلاج، وعليه حشد كل وسائل علاجه.

ونتج عن هذا علم نفس "أهداف" يؤكد أهمية "الغايات" ويتناقض مع علم نفس "الدوافع" الذي يوجه اهتمامه إلى "المنابع": ولا ريب أن النهايات ضرورية ولا غنى عنها. وفي مجال علم النفس "الحديث" لا توجد فكرة واحدة ذات نتائج جوهرية أكثر من هذه الفكرة. ولا يمكن لأي علاج أن يستمر بطريقة فعالة منتجة بدون التركيز على الأهداف؛ وسيوجه علم النفس في المستقبل اهتماما متساويا إلى كل من الأهداف والدوافع. وأني أقدم هذه الصورة عن حالة علاج الأمراض النفسية لأبرر

تقديري الضعيف لهذه الناحية، أما العلاج في المستقبل فسيعتمد على إدماج منطقي للمبادئ التي تبدو اليوم بالغة الفوضى والتناقض.

وسيتحول التيار وفقاً لتحول الاهتمام الشعبي بطريقة مشروعة بفعل ما يحققه العلاج بالتحليل النفسي. ويجب أن نعي في عقولنا الخبرة العيادية في مجال أمراض العصاب النفسي بصفة عامة. وإذا ما قدرنا الحالات الاستثنائية، فلهذه الأمراض فترة حددتها بنفسها؛ فلها فترة حضانة تكثر فيها المتاعب، وأنواع القلق، وتفاقم اليأس والإرهاق إلى أوجه، وأن تخللته حالة تذبذب؛ ثم تأتي فترة استسلام، ونقه، وتدرج في استئناف ومزاولة حالة الانسجام السوي العادي بأوضاعها؛ فالنموذج يشبه تدفق الموجات وانحسارها، وهو يختلف باختلاف الأمزجة، وبين الفترة والأخرى، يحدث فيه تحول مفاجئ، ولكن المريض يجتازه.

وجدير بنا أن نقدر بواعث الراحة الواضحة الناشئة عن التأكد من أن متاعب المريض تبحث بطريقة جدية، فإن هو انسجم مع هذا اللون من العناية، بالارتياح المشجع. إذ يجد نفسه مركز الاهتمام؛ وإذا ما أدخلنا في حسابنا الفترات الطويلة التي تحتاجها عملية التحليل، ثم قدرنا الاستعداد وهو– في الواقع– قابلية الايحاء في بعض ألوان الأمراض العصابية (الهستريا)، ثم قدرنا أيضاً أنه لا يوجد نظام لا يتضمن لحظات فعالة من الناحية العلاجية أيا كان اتفاق هذا النظام أو تنافره مع النظم المنطقية؛ والواقع أنه لا يوجد نظام علاجي أيا كان بعده عن المنطق العلمي أو استحالة تنفيذه إلا وهو ضار، ولكن هذا لن ينفي أن

له أرقاما وإحصائيات تبين قدرته على العلاج وإحداث الشفاء؛ إذا ما قدرنا كل هذا وسخونا في تقدير النجاح الفعلي الذي ظفر به التحليل النفسي فإننا لا نجده أعظم أو أفضل مما قدر له.

ولا ريب أنه يوجد حالات كثيرة تتلاءم مع مختلف طرق التحليل النفسي في أشكالها الدقيقة المحبوكة. أما القول بقابليته للتطبيق على أمراض العصاب عامة، أو على مجموع منها بنوع خاص، فهو أحد الإجراءات الكثيرة التي أقيمت على نظريات مختلفة أو أفكار تعسفية صريحة. وفي هذا السبيل يقول "هولنجورث" "أن فرويد أخفق في أن يوضح سبب نجاح طرق العلاج الأخرى المغايرة لوسائله. وإذا كانت نظرياته تعرض وفقاً لعلاجه، فماذا سنقول عن نجاح العلاج الذي سجله "بابينسكي" وهرست وروزانوف[٣٠] وهم من غير الفرويديين بلا جدال".

ولا يوجد في الخبرة العلاجية ما يبرر الوسائل الفرويدية أو يدحض متناقضاتها وعدوانها على النظريات القويمة أو المعلومات المستقرة. ويجدر بنا في هذا المجال أن نكرر أن معلومات كثيرة عن أنواع أمراض العصاب النفسية المختلفة، والعوامل الكثيرة التي تؤلف صورها المتباينة– كثير منها معلومات حديثة– قد تجاهلها فرويد تجاهلا تاما. وفي هذه الدراسات المتنافسة تقبع لمح إيحائية تفسر بالضبط الظواهر التي لفتت نظر فرويد، وفيها كثير من المقنع إلى حد كبير.

---

(30) Babinski, Hurst and Rosanoff.

ولن نظفر بمعيار نزن به الصلاحية الفعلية للتحليل النفسي إلا إذا أعلن المحللون النفسيون على اختلاف مذاهبهم إحصائيات محايدة دقيقة عن حالات فشلهم ونجاحهم، وهو إجراء لا يُحتمل تنفيذه في حركة التحليل النفسي الآن لما يغشاها من تعصب كل مذهب لشيعته. وأفضل أن أترك مسألة الحكم في هذا الموضوع إلى المحترفين في علم الأعصاب والطب النفساني.

ولكن لا أعفي نفسي من نقد أرى ضرورة تقديمه وتأييده. وهو الاعتراض المألوف القائل بأن إنسانا لا يستطيع الحكم على نظام التحليل النفسي، وتقدير مزاياه إلا إذا مارسه مدة طويلة بصبر وجلد، فعاش فيه حتى صار جزءا شديد الصلة من مهنته. وهذا دفاع أعرج، ونوع من المراوغة يستخدمه أنصار الشيع والنحل والشعوذة باستمرار، كما يذكر المنجمون أن في الأرض والسماء أكثر مما تحلم به فلسفاتنا، غير مدركين ما تحاول هذه الفلسفات أن تفسره على أساس من العقل والمنطق.

وتوجد عدة مهن مربحة تبرر هذه التضحية المنطقية، ولكن الناقد العميق، صاحب النظرة الفاحصة، يستطيع من برجه المنعزل أن يرى ما يحقق فائدة. ولو ضوعفت حياتي تسع مرات، وفقاً لما تردده بعض الأقوال، فإني لن أحس بأن التزام لكي أخصص حياة منها لممارسة كل من علوم فراسة الوجه، وفراسة تضاريس الرأس، والتنجيم، وعلم الإعداد، وعلم الشفاء بالإيمان و"الفكرة الجديدة"، وعلاج الداء بمثله، وقراءة

خطوط الكف، والتحليل النفسي الفرويدي؛ لو تكررت حياتي تسع مرات فلن أغامر بواحدة منها في ممارسة أي من هذه العلوم بغية تبرير الوصول إلى تقدير القيمة الجوهرية لمبادئها وتطبيقاتها، أو بغية إظهار ما تعرضه من عدوان أثيم طاغ على المنطق والسلامة العقلية.

ومن الواضح أنني لن استطيع تدوين هذا الكتاب أن كنت أو من بغير هذا؛ ولا أستطيع ان أوافق بأية حال من الأحوال على إخلاء سبيل أولئك المؤيدين والأنصار من التزامهم ووجوب إثباتهم ونظرياتهم بما يرضي قضاة من ذوي العقول العلمية. ولا ريب أن عرض الدليل والحجة هو الذي يبرر صدور أي حكم.

وقبل أن نترك هذا الموضوع يحسن أن نتناول عاملا آخر، باعتبار التحليل النفسي علاجا هدفه تخفيف الآلام عن طريق الاعتراف بحقيقة العلل النفسية. وهذا العامل هو علاج رجال الطب لأمراض العصاب النفسي بشيء من الاستخفاف والتهاون. ويظهر هذا العامل بجلاء في علاجهم الأشكال الخفيفة للمرض مما يحدث لأكثر الناس فطنة أرجحهم عقلا، رجالا كانوا أو نساء؛ فإن كثيرين من ممارسي الطب في مختلف فروعه تصرفوا كلهم بغير فطنة أو حصافة حيال المرضى الذين يقدموا إليهم، وليس فيهم أثر لاضطرابات عضوية، فعندما فحصوا أعضاءهم لم يعبأوا بإخفاء تعبيرات العطف والرثاء والتعالي والسخرية.

وكثير من الأطباء يعالجون حالات واضحة تثير فيهم اهتماماً خاصاً بها لأهميتها، ولكنهم يفشلون في تمييز مراتب الذكاء والضمير

والشجاعة بين مرضاهم ممن أمضوا ساعات طويلة من القلق والآلام وهم جالسون في غرف انتظار كئيبة لا أثر فيها لما يبهج.

ويروى أن طبيباً مشخصاً كبيراً فحص مريضاً له مركزه الخطير دون أن يجد فيه أي أثر لمرض، وعند انصرافه شيعه بملاحظة أبوية، قال فيها أن إنساناً في ذكائه يجب أن تكون معلوماته أفضل من أن تجعله يستسلم لأعراض أمراض العصاب النفسية. ومثل هذه المعاملة الحمقاء غير المميزة تتكرر عدة مرات في كل يوم إذ توجه إلى مواطنين جديرين بكل احترام عادة.

ومهنة الطب مسئولة إلى حد كبير من إلتجاء المرضى اليائسين إلى الدجالين والمشعوذين بغية معونتهم، فإن أولئك المرضى كافحوا طويلا بشجاعة، وكان من الممكن أن يبلغوا مرحلة النقه والشفاء لو استخدمت معهم وسائل طبية أكثر عطفا وفهما مما أتبع. ولعل التواضح يوحي إلينا بحل أفضل لإنقاذهم فيعترف الأخصائي في تشخيص الأمراض بأنه ليس من البارعين في مثل هذا الداء، وأن على المريض أن يلجأ إلى استشارة من تخصصوا أكثر منه في علاجه. وهذه المشكلة موجودة أيضاً بين أطباء الأمراض النفسية، فإن أولئك القادرين على تشخيص الأمراض العصبية الوظيفية إنما هم قلة منتقاة.

وليس في وسعنا أن نتجاهل خطر الفحص التحليلي النفسي، بل أن هذا التجاهل غير جائز، فإن أحد وجوه القصة، هو أن "الأثرياء الخاملين" أخذوا بالبدعة الجديدة، فوجدوا فيها "مودة" جذابة. وأن

أصحاب الآراء الشهوانية والشخصيات القلقة تلقوا هذا الفحص كعامل مثيل للجنس أو عشق الذات والنرجسية. وتروى أنباء فينا[٣١] قصص الأزواج الأمريكيين الذين لجأوا إلى أقسى التدابير لينقذوا زوجاتهم من عملية "التحويل" في التحليل النفسي. وهي تروي أيضاً قصص مرضى أجبروا على اعترافات أثارت جراحهم العاطفية أكثر مما شفتها. وتقص هذه الأنباء أيضاً حكايات عن مرضى استولى عليهم اليأس بسبب إثارة انفعالاتهم.

ومثل هذه القصص يمكن أن تروى في نيويورك، أو في أي مكان يمارس فيه المحللون النفسيون مهنتهم، أو حيث يسترعى التحليل انتباه أمثال هؤلاء المرضى. ولقد كان من أيسر الأمور لأي محترف أن يمضي أشهراً قلائل في فينا، فإذا ما عاد أعلن أنه محلل نفسي يجوز له العبث بقدس الأقداس في حياة المرضى المشدوهين. وهكذا تجمعت الشائعات الكريهة لتروي قصص التجرد من الفطنة، والخروج على الآداب، والفضائح، ولتتناول أحاديث ألوان الحياة المحطمة، وما تبعها من حوادث الانتحار.

وهكذا فتح باب الاتهام على مصراعيه، وكان التحليل النفسي من أكثر المهن تعرضا للاتهام بسوء استخدام الثقة[٣٢]، وبالحط من قدر الجنس، بما فسر خطأ بأنه من قبيل الاستزادة بمعلومات جديدة. وكانت

---

(٣١) كتاب جورج سلدGeorge Selde "هل يمكن حدوث هذا؟" Can These Things Be? الذي صدر في عام ١٩٣١ (المؤلف)

(٣٢) نشر الدكتور. تاتبوم. حادثة لو أعيد نشرها في هذا الكتاب لتعرض ناشرها إلى عقبات محيرة (المؤلف).

أخطر التهم هي الانهيار التام الذي حل ببعض المرضى المحترمين ممن قست الأمراض العصابية في تعذيبهم فأجهز التحليل النفسي عليهم.

وحسبي في هذا المجال أن أشير إلى قصة واحدة مما ورد في بريدي. والكاتبة امرأة منيت بالمتاعب المؤلمة في زواجها، وحصلت على الطلاق من زوجها. وقد كتبت تقول "أقنعني طبيبي الذي أثق به على حد كبير بأن أجرب التحليل النفسي. ولم أكن أشعر بأية حاجة إليه، ولكن جهلي التام بالاضطرابات العقلية، وما منيت به من يأس، دفعاني إلى قبول اقتراحه مما سبب لي اليأس من الحياة. واستمرت عملية التحليل أكثر من سنة. ودفعت أسرتي آلاف الدولارات كنفقات لها، فكانت النتيجة أن صرت في أسوأ حالات المرض. والواقع أن إحدى صدمات التحليل أدت إلى اختلاف في توازن عقلي حتى أن ميولي صارت انتحارية" وإذا ما عدنا إلى شقشقة المحلل وسألناه لماذا يعتبر اكتشاف "صدمة نفسية" مفيداً في حالة أزمة نفسية؟ فإذا يجيب بأن الأزمة إنما هي "هرب من الواقع"؛ ثم يستمر ليجعل الحقيقة أسوأ مما يمكن أن تكونه.

والواقع أنه من الصعب أن نميز النعاج من العنز عندما نعتبر ما تنطوي عليه نظريات الإخفاق الجنسي كنصيحة مشروعة، بينما هي في الغالب مهزلة سخيفة، وإهانة لا تغتفر للمريض إذا ما لاحظنا مركزه الاجتماعي وظروفه؛ ولعله من الغبن أن نضع أوزار المحللين النفسيين المزيفين، أو الأغنياء الذين لا يتقيدون بأي مبدأ، على كاهل الأتباع

المحترمين. وليس معنى هذا أن قادة الحركة أبرياء من نتائج المغالاة والإفراط، ولاسيما إذا شاع بينهم كثير من العبارات المجردة من تقدير المسئولية، ثم كثرة ترديدهم لمسألة الانحرافات الجنسية.

وفي الحركة الفرويدية كثير من عمليات التحليل الطائشة التي تتفاوت في خطرها لتشمل كل المراتب والدرجات في مهنة التحليل النفسي. وبأي منطق نتوقع مزيداً من التعقل في ممارسة المهنة إن كانت المبادئ نفسها في حاجة إليه؟ ويقول شمالهوزنSchamlhausen "أن ألوان الجراحات الفجة التي يرتكبها المحلل العادي المتوسط القدرة "تدل" على أن إجراءاته يجوز أن تحدث أضرارا لا حد لها". وموقف "شمالهوزن" إزاء تشخيص الأمراض النفسية موقف عام نقدي فاحص لا يمكن إتهامه بالتحيز في مناقشة المسائل الجنسية.

وهو يقول: "والحق أن الأضرار الفادحة التي أنزلها بعض جراحي النفس غير المدربين– ممن يطلقون على أنفسهم اسم المحللين النفسيين الحقيقيين– قد وضعت في المرتبة الأولى، عملياً ونظريا، ضرورة اختبار قدرة العقل على احتمال عمليات الفحص التي يجب أن يجتازها بأي ثمن، وعلى حساب انسجام الشخصية؛ فإن المحلل بتأكده من تعاليمه تأكداً تحكمياً، يرضي أن يتخذ قرارات تنزل المحن بعقل يقاسي فعلا من آلام تعذبه وتتجاوز نطاق قدرته المعقولة على الاحتمال".

"ولو تذرع الخبراء الذين يمارسون التحليل بالشجاعة الفلسفية، وقدموا تقاريرهم عن الحالات التي أساءوا تدبيرها، أو لم يستطيعوا فهمها (والمحلل لا يعدو أن يكون إنساناً كغيره من البشر) فإن علم التأهيل الجديد، والذي يبشر بمستقبل باهر، سيظفر بفائدة ضخمة من اعترافاتهم الصريحة".

ومما يعزز التهمة تلك الحجة التي ينطوي عليها كثير من عوامل انعدام ثقتي بوسائل التحليل، مما يوازي اعتراضي على المبادئ بأنها غير قويمة من الناحية المنطقية، وغير طبيعية من وجهة النظر السيكولوجية. وهذه التهمة عبر عنها شمالهوزن بصيغة موجزة محدودة إذ قال:

"وتوجد في وسائل التحليل "الأصلي" أساليب إجراءات تقضي على الغايات السامية المرجوة، إذ تعبث بالاحترام الشخصي للمريض، وتضعف ثقته بنفسه، وتثبط من شجاعته. ولهذا فلا غرابة في أن يصير التحليل في الغالب كثير التعقد والخلط، حتى أنه ليجرح مشاعر المريض وآراءه الحساسة ويهيجها، فيخرج من التحليل وهو في حالة أسوأ بكثير مما كان عند بدايته".

"وحالات الأمراض العصابية النفسية من الحالات التي يجب أن تتوفر في تناولها الدقة واللباقة، وهذا العامل لا وجود له في الغالب في إجراءات التحليل. ومن الحقائق المرة التي تضعف من قوة العلاج بإجراءات التحليل النفسي، ما أنطوى عليه من تحكم، وإرهاب، وسلطة

سحرية، وتفسير لبق لا معنى له، ثم صمت مثير، وألفاظ ضخام جوفاء، والتشدق بعبارات فرويدية مبهمة لا تعني شيئاً على وجه التحديد".

وإذا ما حاولنا أن نضع ميزانية حسابية للتحليل النفسي فيجب أن نوجه اهتماماً خاصاً إلى الجانب المدين فيها، فقد يمر الناس به في غير احتفال بأمره، بل أنهم لا يدركونه بسبب التعصب التام للتعاليم، وأكثرها خيالي، وبسبب المواقف الضالة والحمقاء من جانب المحللين الذين حاولوا أن يرتفعوا إلى ما هو أرقى من مستواهم الثقافي، والمزاجي؛ وهم في ذلك كسواهم من المهن الأخرى. وفي هذا المجال يجب أن نذكر أن أكثر المهن احتياجاً إلى أكبر قدر من اللياقة والضمير الحي هي مهنة من يصلحون النفوس المريضة ومن يعملون على شفاء العقول المعتلة.

وكثير من المحللين النفسين في الوقت الحاضر يسيرون في إجراءاتهم دون اتخاذ أية احتياطات لوقاية النفس من التلوث بأدران جديدة؛ وهم يندفعون في عملهم بمزاج ينفر ذوي العقول الحساسة المفكرة. وبما أن الهدف المنشود هو إحلال السلام والانسجام في النفس، فمن البديهي أن واجب المحلل النفسي، هو أن يتأكد من صلاحية وسائله وجودتها للصحة. ومن الجائز أن تكون الوقاية الطبيعية للحياة الداخلية هي إنتاج حالة الإعلاء الحقيقية؛ ولكن الحفر عند الجذور من الأعمال الخطرة، فإن تولته أيد غير خبيرة صار قاتلا.

ومما يدعوني إلى توقع انهيار سريع للتحليل النفسي، مزاجه في التطبيق، وحاجته إلى ما يبرر إجراءاته، وإلى مراعاة نمو الاعتراف

بالاعتبارات العملية والاجتماعية الخالصة؛ ولكن هذا الانهيار يمكن درؤه بإصلاح المعوج من معالمه. ومن العوامل الحيوية التي تعمل أيضاً على انحطاطه امتناعه عن إيجاد صلات تعاونية مع الجماعات المهنية التي ينطوي تحت لوائها. وتدل جميع العلامات التي سبق أن طبقت على حركات مماثلة. عندما انتعشت ثم اضمحلت، على أن التحليل النفسي في طريقه إلى السقوط، فإن مزاجه الأرعن قد عجل بكره الناس له.

ولا استطيع أن أتجاهل تهمة أخرى تميل إلى جعل المحلل شخصاً غير محبوب، وغير مقبول في المهنة؛ فإن هذا الاستعلاء لسوء الحظ من السمات السائدة في مزاج المحلل نفسه، فإن تعصبه لمذهبه ناشئ عن التجاهل أو الجهل الآثم بكل تأكيد. ووفقاً لخبرتي الشخصية استطيع أن أقرر مسروراً أن أحسن المحللين النفسيين براء من هذه القيود والعيوب، فإن الطريقة التعليمية للملمين بالتحليل النفسي، وتقديمهم التعليمات بشكل فيه استعلاء إلى غير المطلعين، تظهر في مطبوعاتهم، وفي خطبهم، بل وفي المؤتمرات مع زملائهم من الأطباء.

أما العبارة التي يكثر ترديدها وهي قولهم "نحن معشر المحللين نعرف"؛ فما هي إلا عدوان على أصول الجدل بين الأفراد المتساوين، ولعلها تنطوي على شيء من السذاجة والقحة؛ أو بعبارة أكثر تسامحا، هي مناعة ضد آداب الجدل في هذا الموقف الاستعلائي؛ إذ يبدو مرتكبها غير فطن إلى موقفه. ويظهر هذا الاتجاه في ما يروى من قصص عن مدارس التحليل واختلافاتها.

ويظهر هذا الاتجاه فيما بين طوائف مدرسة التحليل النفسي وأحزابه من احتكاكات؛ كما يتجلى أيضاً في الحيرة التي وقعت فيها مضيفة عندما دعت محللين معروفين للغداء على مائدتها، وكانا من مدرستين متعارضتين؛ وما أن وجهت الدعوة حتى عرفت أن كلا منهما يرفضها إذا حضرها الآخر. ولو عمم هذا المسلك بين شتى النحل والطوائف الدينية أو الاقتصادية المتعارضة الاتجاهات، لا سفر عن عقبات واحتمالات غير منتظرة في فن التشخيص النفسي. والواقع أن المحلل النفسي يحتاج إلى فن الدبلوماسية إذا ما نظرنا إليه من حيث هو صاحب رسالة ودعاية.

ودعوى الابتكار و"الاكتشاف" تظهر في شتى نواحي النظام الفرويدي. وعليها عقب "دنلاب" بقوله:

"يقال أن الأهمية العظمى للجنس في الحياة البشرية ظلت مجهولة تماما إلى أن وضحها فرويد؛ ولعله مما يدهش تلاميذ، وأتباع طبيب فينا أن باحثاً نفسياً يحتمل أن يميز أهمية الجنس، بل ويؤكد الدور الجوهري الذي تلعبه الآراء الجنسية، ونواحي النشاط الجنسي في العقل، حتى أنها تسيطر عليه وتقوده؛ ورغم هذا، فإن هذا الباحث لا يكون من الشيعة الفرويدية. حتى مبادئ تداعي الخواطر صارت من منتجات التحليل النفسي بالتلميح إليها بأنها كذلك في كثير من العبارات".

"وهناك أيضاً الحقيقة القائلة أن كل تفاصيل التصرفات الشعورية قد توجه أحياناً بفعل نتائج الخبرة السابقة. هذه الحقيقة وفقاً للتحليل

النفسي لم تكن معروفة البتة قبل ظهور كتاب فرويد عن "علم النفس المرضي في الحياة اليومية". ولا ريب أن غير المطلعين على علم النفس، والذين يحصلون على أول معلوماتهم العامة عنه من مصادر فرويدية، يعدون فرويد المؤسس لعلم النفس الحديث".

وحتى مثل هذه النتيجة الجوهرية قد تظفر بالقبول العام الشامل، فتجدها في كلمات عالم أمريكي جيولوجي معروف[٣٣] اشتهر بدعوته الإنسانية بفضل خلقه ومزاجه، ولكنه يجهل فرويد كل الجهل؛ فيقول:

"ليس من الإسراف، أن نقول أن كل الأخطاء الهامة في تصرفاتنا، وكل أعباء الناس والجماعات إنما حدثت بفعل عدم الانسجام في الترابط بين الانفعالات الحيوانية البدائية، وبين تلك القوى العقلية التي نمت بسرعة في النوع البشري". وهذا هو جوهر الصراع.

وأذكر مثلا آخر، ولكن في اتجاه جديد؛ فأردد عبارة قالها أحد ممثلي[٣٤] التحليل في حديثه عن التحليل النفسي "واكتشافه للرمزية"، فعزا إلى التحليل أنه أول من ميز البنية الجنسية النفسية في الإنسان. وأدعى أيضاً بأن التحليل قد "فتح المجال لتطبيق نظرية التطور في تفسير العمليات العقلية". وقال أيضاً "إننا نتعلم كيف نطبق وجهة نظر العلوم الطبيعية في دراسة مشكلات العلاقة التي بين العقل والجسم بدلا

---

(٣٣) "ناثانيالشالر" NathauielShaler في كتابه "الجار" The Neighbour (المؤلف)

(٣٤) فان تسلارVan Teslaar في كتابه "هيكل التحليل النفسي" An Outline of Psychoanalysis ١٩٢٥. (المؤلف)

من الإغراق في التأملات الخاملة فيما وراء الطبيعة مما هو متبع حتى الآن.

وقد تجاهل إدعاء التحليل النفسي هذا جانباً كبيراً من علم النفس الذي لم يسمع البتة عن فرويد. وعلى عاتق هذا الإدعاء تقع مسئولية تفسير أن "ما وراء علم النفس" هو تعبير لوجهة النظر الطبيعية. وليس من الواضح قوله أيضاً "أننا معشر المحللين النفسيين نشهد في كل يوم الصراع الناشب بين الغرائز الأولى للإنسان، وبين اتجاهاته العليا "مما يوجب أن نكون بغير استثناء قادرين على الظفر بهذه البصيرة.

وقد سجل الكاتب الإنجليزي هـ. جـ. ولز H. G. Wells مقال مديح يتألف من أربع صفحات عن قيمة علم النفس وتطبيقاته لخدمة التقدم البشري وفيه لم يشر الكاتب مرة واحدة إلى التحليل النفسي، كما أنه لم يستخدم اللفظ البتة، مما يدل على أن هذا الكاتب المعروف عبر عن نفسه أصدق تعبير بصدد موضوع التحليل النفسي، وما يرجى منه لإسعاد البشرية.

ولا ريب أن هذه النغمات الشاذة الناشزة هي التي تعبث بمدلولات الحجة الفرويدية، كما تبين في جلاء تنافرها مع حقائق القضية. وهكذا فإن تحديه بقية مبادئ علم النفس لا يصل إلى احتقار هذا العلم أو الإقلال من شأنه.

ولقد كانت نزعة الطائفية، والتقديس، والتعصب الأعمى، بعيدة الأثر في استقبال الحركة الفرويدية. وقد ظل أثرها واضحاً فترة طويلة. ويكفي في هذا المضمار أن أقتبس فقرة واحدة لأحد الأنصار إذ قال "لم يطرأ ما يدعو إلى التخلص من شيء ما مما صاغه الأستاذ فرويد من البداية". وهذا يدل على إجلال بابوي لا يتفق البتة مع مغامرة علمية من الواضح أنها لا تعدو أن تكون محاولة.

وخبرتي واسعة بمزاج الطوائف والنحل؛ فمن سمات أعضائها وطقوسهم أن يشتركوا في ترديد ما يضعه الزعيم من النصوص. وعندئذ يخطئ الناس، ويظنون أن هذا التكرار المستمر أدلة جديدة؛ فالطقوس تؤدي إلى الطائفية، وإلى انشقاق الصفوف. وكل منها لا يرى في غيره إلا الزندقة التافهة. وقد كان هذا حالها في أقدم الأيام حين اختلفوا على مركز الابن من الأب فانشقوا إلى طائفتين يسمى أنصار أحداهما Homoousians ويسمى الآخرينHomoiousians. ومن طبيعة النحل أن تبتعد وتتخلف عن ركب التقدم.

ولقد سمعت أحد المحللين يبدى ملاحظته، فقال أن الفرويدية ستصير مقصورة على أتباعها الفرويديين بسبب صلاتهم الاجتماعية والمهنية. وقال أن بقية العالم لن تفهمهم لا هم ولا وجهة نظرهم. ولقد كررت مراراً أن المقومات الفرويدية تحتوي على لب علمي سليم، ولكنه يكاد يضيع في وسط ما طرأ عليها من الطقوس الطائفية. وهذه الطائفة في التحليل النفسي هي التي تنذر بانهيار بيت فرويد.

أحكام

تؤلف الأحكام الصادرة من الأكفاء المخلصين قاعدة أخرى للتنبؤ عن مآل الفرويدية، وسأعرض هنا لمجموعة مختلفة الدراسات من شتى الزوايا والملاحظات؛ فالتحليل النفسي يقدم نفسه كحل لمشكلات ضخمة معينة تواجه علم النفس الذي يراه المهتمون بالعلوم الطبيعية جزءاً من علم الحياة الواسع؛ وإذا ما أهمل هذا الأساس، أو أسئ وضعه، فإن كل خلل في مبنى واحد سيكون خللا أساسياً في كل منشآت علوم الحياة. ويتمسك "هالدان" Haldan الأخصائي في علم وظائف الأعضاء، بأن هذا الأساس يسري أيضاً على التحليل النفسي فيقول.

"أن نوع الكائن الذي تصوره فرويد ليس ألا من إنتاج خياله... أما عن سمات النشاط الشعوري، فإن فكرته لم تقدم أي دليل عنها... وكل بينة لعلم نفس من هذا القبيل تقوم على أساس رديء من "الفيزيقيا" وعلم وظائف الأعضاء، فضلاً عن أن فكرته غير كافية البتة من وجهة النظر الخاصة بعلم النفس، فهي تسئ تمثيل أعمالنا لأنها تسئ تمثيل كل من مدركاتنا الحسية وعواطفنا.

ويصر الباحث النفسي "دنلاب" على اتخاذ موقف أشد صرامة في رفض التحليل النفسي، ويقول أن حاجته إلى الأساس الطبيعي "جعلته اعتداء على لب علوم الحياة، فهو يتستر بلباس العلم كي يتسلل إليها، ثم يخنقها من الداخل، وتشبثه الشديد الملح باتجاهه التأملي ليس بالاتجاه الوحيد الذي يضايق كل عالم ينحو إلى الاتجاه التجريبي.

أما الباحث النفسي المتسامح "دودج Dodge فيقول بصراحة، "أن الحقائق بغير فروض شيء ميت"، ثم يضيف قوله والفروض التي لا يمكن تحقيقها أولى بها أن تعد ميتة".

ويظهر غزو الفرويدية لبيت العلم على هيئة تدخل سافر وعدوان. أما سبب هذا الاعتبار وكيفيته، فمسألة يتعذر شرحها، فإن مكان التحليل النفسي لا يبدو بين العلوم، إذا يحمل جوا أجنبياً عنها. ويوضح الباحث الاجتماعي "تروتر" Trotter مسألة بعد التحليل النفسي عن العلم ببراعة، فيقول:

"من الجائز أن يؤخذ الإنسان إلى حد كبير بعظمة الصرح الذي شيده فرويد، فإذا ما غادر جو العلوم البيولوجية المنشط، ودخل بيت فرويد، فلابد أنه تضايقه رائحة الإنسانية المنتشرة في البيت كله. وأينما ذهب يجد ميلا إلى قبول معايير بشرية: وفي أحيان أخرى يميل إلى قبول إدعاءات إنسانية. مما يحتم خلق نوع من القلق بشأن صلاحية الصيغ التي وصفت فيها مبادؤه. ولعله يصاب بالقلق من أجل المبادئ عينها. ومن أصعب الأمور التعبير بألفاظ محدودة عن الخاصية التي أريد وصفها من غير مبالغة فيها أو تحريف لها".

وإذا ما انتقلنا من رافضي التحليل النفسي إلى مؤيديه، طالعنا رأي العالم النفسي هولت[٣٥]، فقد كتب في عام ١٩١٥ يقول أن ما قدمه فرويد يعتبر بداية عهد جديد من حيث أنه زود علم العقل بفصل عليّ وقال أيضاً.

---

[٣٥] E. B. Holt في كتابه "الرغبة الفرويدية" The Freudian Wish– ١٩١٥ (المؤلف).

ولقد كان أول مفتاح ظفر به علم النفس. فكان مفتاحاً ملائماً له، وأني لأعتقد أنه المفتاح الوحيد الذي يحتاج إليه علم النفس. ومع أن أساتذة المدرسة القديمة الجالسين في راحة واسترخاء يمكنهم أن يطعنوا هاتين العبارتين بعنف، فأنهم قد أصيبوا بشيء من الذهول من جراء عمل فرويد. وهم يعانون من خوف غير مريح لهم، لأن فرويد قد صنع شيئاً. والواقع أنه أظهرهم أيضاً بمظهر غير الأكفاء الذين لا رجاء منهم".

وبعد أن قال هولت هذه العبارات، تدفق الكثير من النبع الفرويدي؛ ولما سألته أن كان لا يزال محتفظا برأيه، كانت إجابته العامة بالتأكيد، ولكنها كانت سلبية في مسائل معينة.

فهو يستمسك برأيه فيما يخص "الرغبة، وصراع الرغبات، وتدعيمها المتبادل" وهذا في رأيه هو روح المبادئ المقبولة في الفرويدية "ومن الجهة الأخرى، فإني قليل الاهتمام بالتحليل النفسي، من حيث هو علاج؛ واعتقد أن مدركات "اللبيد" والإعلام خاطئة، ومضللة بالطريقة التي استخدمت بها فعلا" وختم هولت رأيه بقوله "أن فرويد لا يستحق الحملات العنيفة التي وجهت إليه، ولا ما أضفى عليه من تقديس وعبادة جنونية".

وأني لاستمسك بهذا الرأي كنقد بنائي مبكر له أهميته، فقد رأي هولت، حتى في ذلك الوقت، الحاجة إلى إعادة تفسير فرويد، وصور الجسر الذي يمكن بناؤه على الدعامات والأعمدة الفرويدية".

وكانت مهمة الرغبة الفرويدية عند "هولت" تنشيط الغرض أو

المشروع لتحقيق برنامج من الأعمال سواء أكان لا يزال في العقل، أو منفذاً فعلاً. وهو تمييز قليل الأهمية في الواقع؛ ورأى "هولت" هام من الناحية العملية أو الاجتماعية، وإن كان لا يرقى إلى مجال تشكيل الموقف، وكان من الجائز أن "تستبدل رغبة هولت الفرويدية الاتجاه إلى عمل ما بالغرض أو المقصد سواء كان ذلك الاتجاه مجرد فكرة تختلج في العقل أم عملا ينفذ فعلا- وهو تمييز ليس بذي أهمية تذكر" من حيث تشكيله لموقف الإنسان وأن يكن هاماً من الوجهة العملية والاجتماعية. وكان من الممكن أن تجمع بين الغرض، والنية، والميل، والتحزب لها أو عليها، وكذا الرغبات، وعوامل الجذب والطرد، والدوافع الجنسية؛ وسيان في هذا إن كانت طاقتها المحركة تجري فوق سطح الشعور المتماوج أو تحته.

وهذا القصور جوهري لسيكولوجية الصراع، سواء أكان مجرد نزاع منزلي أم مناقشة منطقية حاجة في مداولات هيئة الأمم. ولو سارت الفريدية في نموها داخل نطاق الخطوط التي رسمها "هولت" لكان مستقبلها- وهو الآن ماضيها- شيئاً آخر مختلفاً كل الاختلاف عما هي عليه في محتوياتها ونزعتها؛ وكان من الجائز أن يتسع مدرك الصراع ليشمل شتى العلاقات البشرية في نواحيها المتعددة، وفي اختلافها وانسجامها، وفي كل ما تتحمس له أو تكرهه؛ ولكان من الميسور عندئذ أن تندمج العوامل الفرويدية في القوى المحركة في اللاشعور؛ ولكان القول "بالعودة على فكرة هولت" هو الصيحة الملائمة في الوقت الحاضر، ولكن هذا لم يقدر له أن يكون.

وعندما تحدث "هولت" عن موقف نوعي محدد، فإنه اضطر أن يسجل قوله "أن فرويد لم يثر البتة هذه المسألة بمثل هذا الوضوح" وقال مرة ثانية "اعترف أن ما سأقوله أكثر مما قاله فرويد؛ وهو على أية حال، وكما اعتقد، الاستنتاج المباشر الذي لا مفر منه لما قاله".

والواقع أن ما سجله هولت لا يقتصر على أنه "أكثر"، بل هو مع الأسف شيء مختلف كل الاختلاف عما قاله فرويد منذ ذلك الوقت. ولا ريب أن ابتسار غيري لموقفي والنظر إليه من زاوية أخرى ليلقى مني ترحيباً خاصاً، فإن "بوتنام" J.J. Putnam في دفاعه عن وجهة النظر الفرويدية، أدلى بملاحظات كالتي أبديتها، ولكن من الناحية العيادية. وأنك لتجد في ملاحظاته عطفا على الغرض السليم من إجراءات التحليل النفسي ومزاياه. أما رأي الدكتور "بوتنام" لو أنه عاش. وشاهد نمو الحركة. وتجاوزها لرسالتها العلاجية التي ظفرت بتأييده، فمسألة تخمينية؛ ولكني استنتج أنه كان يتخذ موقفه مع موقف الفرويديين المحافظين[٣٦].

وانتقل الآن إلى وجهات النظر النقدية كما ظهرت في ألمانيا[٣٧]، فهناك أثيرت المسألة حول ما يمكن أن يبقى ويسود، فقيل:-

"أن المعلومات الحالية الجديدة المقررة، ذات الأوجه المتعددة عن الحياة العقلية للإنسان، ومنها التحليل النفسي كطريقة وكنظرية، هذه

([٣٦]) اقتبسها "فان تسلو"، وسبق ذكرها. وهي رأي نشره بمناسبة زيارة فرويد ويينج لأمريكا (المؤلف).

([٣٧]) Prinzhorn: Die Krisis in Der Paychoanalyse ١٩٢٩ (المؤلف) (م١٥- الأحلام).

المعلومات تجد لها مكانا مع سواها؛ وكلها معلومات صحيحة نسبيا؛ ولكن هل يبقى التحليل النفسي وحده بتعاليمه التي تتناول جانبا واحدا، وتتمسك بوجهة نظر واحدة تجعلها شيئا نهائيا مطلقا؟

وقد نعى كثيرون من المحللين على التحليل النفسي ضروب الافراط التي تطرقت إلى نظرياته وممارسته، وما جرته من اهتمام شعبي بها، واعتبروها "زوائد" شاذة لا تؤثر على ما فيه من لب الحقيقة الحيوي. ونعود مرة ثانية إلى اقتباس وجهة نظر ألمانية:

"إن القشور تحيط بالتعاليم وتغطيها. وهذه التعاليم تتخذ باستمرار مظهر علم من علوم الأسرار، ولاسيما في المسألة الخاصة بتفسير الأحلام؛ فإن ضروب الإفراط، والمغالاة في الماضي والحاضر واسعة كل السعة حتى أنها لتجعل الإنتاج كله أمراً لا يمكن قبوله؛ وهذا كله يقبع في المقدمة، ويقرر ما يتركه في المرء من أثر، ولكنه ليس بروح التحليل ولا جوهره.

ومن جهة أخرى يعترف "كرابلين" Kraepelin فيقول: "ورغم كل ما بذلته من جهد ورغم ما توفر من حسن النية، فإني لم استطع تتبع خطوط فكرة "ما وراء الطب النفسي" هذه، فهي تبدو كعقدة تكتنف طريقة الملاحظة العيادية الرشيدة"، ونلتقي أيضاً "ببلويلر" وهو من المؤيدين لكثير من تعاليم فرويد، ولكنه كثير الاعتراضات على بعضها، ورفض كثيراً منها، حتى أن فرويد قال: "أنه ليدهشني أن أعرف ما نبقى بعد ذلك من ولائه وتقديره". وتحدث "ريجر" Rieger عن المشتقات

الشديدة التطرف، فقال: "كنت دائما اعتبر هذا النوع هراء مخيفا لا معنى له". وردد بومكة[٣٨] أنه إذا بقى التحليل النفسي قائما، فإن "ما ظهر منه حتى الآن كعلم سيختفي؛ ومن الطبيعي عندئذ أن عملي المتواضع كطبيب أمراض نفسية سينتهي".

ويعد "ريفرز" كريماً في حكمه؛ وله عدة تصحيحات للتعاليم الفرويدية. مما يَعد إعادة صياغة لها، وقد قال:

"وعلى أية حال، فإن إتباع فرويد انغمروا في الجانب الفج من الحياة الجنسية، حتى أن مؤلفاتهم يغلب عليها أن تكون إسهاما في التصوير الداعر أكثر مما هي إسهام في علم الطب. وقد انهمك بعض أتباع فرويد في المسائل الجنسية إلى مدى بعيد، حتى أن الميول والآراء الشهوانية صارت ترى في كل فكرة تطرأ لأي مريض يعنون بأمره سواء واتته الفكرة في نومه أو في يقظته".

"والخطأ الذي يرتكبه الآن كثيرون، هو اعتبارهم هذا اللون من الإفراط كجزء ضروري من الخطة الفرويدية، وأجدر بهم أن يعتبروه زائدة منكودة الحظ: ولعل هذه الزائدة قد نشأت بسبب البيئة الاجتماعية التي شهدت نشأة الفكرة".

---

(٣٨) Oswald Bumke: Die Psychoanalyse. EineKritik صدر هذا الكتاب في عام ١٩٣٠. وهو نقد حديث هام لطبيب أمراض نفسية معروف. وقد تناوله بالنقد الدكتور ساشSuchs في مجلة الصحة العقلية عام ١٩٣٢ (المؤلف).

وهي ليست في نظري سوى مجرد فرض وضع كأي فرض آخر ليدفع إلى الفحص، وليقدم لنا العون في عملنا عندما نتلمس طريقنا إلى الحقيقة بشأن طبيعة الاضطرابات العقلية. فهل يجوز أن نرفض بازدراء معونة تقدم لنا لأنها في بعض الأحيان تقودنا إلى اكتشاف نواحي غير سارة في الطبيعة البشرية، ولأنها قادمة من فينَّا؟".

ومن أطباء النفس الأمريكيين الذي كتبوا في الموضوع نفسه الدكتور "موس" Moss وهو يقول: "لا يوجد شيء أشد فتكا بالتقدم في المستقبل، وبالفهم العلمي الصحيح للاضطرابات العقلية، من التسليم العام بنظرية تفسر الأمراض العقلية بعبارات غامضة عن أسباب نفسية عضوية نشأت من كبت ذكريات التجارب الجنسية في الطفولة".

وكتب "ميرسون" Myerson يقول: "ومن أغرب المسائل في تاريخ العلم، أن ترقى وتسود بعض النظريات العلمية التي تسعى لاختلال مكانها كاعتقاد حتمي يعوق حرية نمو المعرفة".

ومن الآراء الهامة في نقد التحليل النفسي ما كتبه "ليرى[٣٩]" وهو محاولة منسقة إنشائية، لإدماج التحليل النفسي في نطاق تفسير معقول يساير الأوضاع الطبيعية. وهو يقول:

---

(٣٩) Damel Bell Leary: Modern Psychology: Normal and Abnormal "علم النفس الحديث: السوي والشاذ" وقد صدر في عام ١٩٢٨. وفيه وصل "ليري" إلى كثير من الأحكام الشديدة الشبه بأحكامي، ومن ذلك التنبؤات. وعمليات التنقيح، والتصحيح؛ ولهذا فإني أسجل أن أحكامي تكونت بدون علم بآرائه. وإني أرحب وأزكي الفصل الذي كتبه عن التحليل النفسي (المؤلف)

"ظل التحليل النفسي، ولا يزال في حالة ميئوس منها من الارتباك بسبب سوء الفهم، وقلة المعلومات، والتحزب، والمنافسة؛ ويضاف إلى هذا... اهتمام شعبي ضخم... مما أدى إلى زيادة حالة الارتباك".

"وكثير من منطق حركة التحليل إنما هو من الطراز الذي تسميه تعاليمه نفسها بالاجتراري، أو الخيالي، أو البدائي، ومما قبل المنطق، أو غير المنطقي؛ ويعبر عنه بأوضاع الرغبات، والارتباطات، والمصادفة، وضروب التمثيل، والغرض، والغاية، بدلا من أن يعبر عنه وفقاً للحقائق، والملاحظات والعلاقات المتبادلة؛ والتجارب، والتوافق مع الاكتشافات الأخرى.

أما هو لنجورث[٤٠] فيعرض المسألة بطريقة أبسط، بأن يجعل عنوان الفصل الذي قدم فيه التحليل النفسي "قصص فرويدية". وهو يطلق بطريقة عامة، كاسحة، على كل المحاولات التي ترمي إلى إقامة التفسيرات على أسس افتراضية عبارة "التمثيل النفسي" Psychoanalogical. "وهي في بعض الأحيان تسمى بالدراسة التحليلية النفسية، وهي تسمية لا معنى لها".

---

[٤٠] في كتابه "علم نفس الشواذ: مدركاته ونظرياته" Abnormal Psychology: Its Concepts and Theories: H. H. Holngworth. 1930

ويعد هذا الكتاب أهم عرض نقدي لكل مدركات المشكلات التي يشملها مضمار الاهتمامات المتبادلة لعلم النفس والطب النفسي. وفيه يوضح "هولنجورث" بالتفصيل كيف أن تعاليم فرويد كررت ما سبق أن قاله "هربرت" Herbert بما في ذلك الرسوم البيانية للقوى، ولكن في عبارات بيولوجية فعالة دينامية أو تبدو شبه حقيقية أو انتحالية (المؤلف).

ويوافق "ليري" على أن ألفاظ "الرقيب" و"التنفيس" "وتفسير الأحلام" و"اللبيد" و"الإعلام" و"اللاشعور" إما أن تكون أشياء خيالية، أو فروضا غير منطقية؛ ولكنها جميعاً تحتوي على لب حقيقي يمكن أن ينتظم مع الحقائق الطبيعية بل والسلوكية أيضاً.

وقد عرض "هولنجورث" بطريقة مقنعة لموضوع مجافاة التفسيرات الفرويدية للمنطق مجافاة تامة في نفس المقدمات التي بنيت عليها التفسيرات. وفي التفسيرات التي تقررت للظواهر نفسها والتي وضعها الفريديون أنفسهم. وبين هولنجورث في تحليله النقص البالغ في تفسيرات فرويد من بدء قصة التحليل النفسي إلى آخرها، بما في ذلك أول حالة تحليل نفسي؛ والمراحل المتسلسلة والعبارات التي حولتها الجعبة الفرويدية من "الفروض البسيطة" إلى "التعاليم المفرطة التي تتسم بأوسع حرية غريبة يتخيلها المرء" وهو يقول:

في وسعنا أن نستغني عن "اللاشعور"ن وعقدة أوديب، "والاسقاط"، كما نفعل بالجنيات، والشياطين وسانتا كلوز... "فالتمثيل النفسي" كله مفسر في نظرية المحلل، وليس في مادة الحالة. وهذا يتناقض كل التناقض مع الفروض، ويمكن تفسيره في يسر بدونها... وكل هذه "التمثيلات الأدبية" خطرة، وقد يعدها السذج وصفاً لشيء يحتمل حدوثه حقاً. والتفسيرات المنطقية ذات المدركات البسيطة يحتمل أن تحتل مكاناً ما في التحليل النفسي وما يضم من روحانية وخفايا.

والتفاصيل خاطئة كذلك؛ فمدرك تحويل الانفعال مثلا إلى رعشة أو ساق متوترة يمثل صورة تحول العناصر إلى شيء آخر ليس في طبيعتها. ولا يملك معه أبرع خبراء الراديوم، وأكثرهم علماً، إلا أن ينسحب". وهكذا فإن الحقائق العادية الشائعة عن الانفعالات الممنوعة أعيدت صياغتها في مبدأ يحمل الاسم المنذر: التناقض الوجداني.

"فمن الجائر أن يعجب طفل بجمال أمه، ورقتها، ولكنه يحس نحوها بعدم الاحترام لجبنها وضعفها الجثماني. ومن الجائز أيضاً أن تكون فطائر الطباخة شهية، ولكن مزاجها "مكروه". وفي مجال التطبيق إذا جاز لفرويد أن يقول أن الهستريا صورة كاريكاتورية للابتكار الفني، وأن القهر العصابي كاريكاتور آخر للدين، وأن البارانويا صورة فجة لنظام فلسفي، إن جاز هذا فتفسير فرويد للقهر العصابي صورة فجة لقصص "أيسوب".

وقد كتب ليرى نبوءته المماثلة لما حاولت التنبؤ به فقال: "أنها جديدة، ولكن جدتها ليست بعيدة المدى فيما يتعلق بما تنطوي عليه من الحقائق المنفصلة؛ فهي جديدة من وجهة النظر الدينامية المحركة، والنشوئية، والموحدة، وفي نظرتها إلى سلوك الشخصية؛ فهي توجه الانتباه، في هذا المجال الموحد لوجهات النظر، إلى تلك العوامل التي استخف الباحثون بأمرها عادة، أو لم يعرفوها، أو أهملوها عن عمد".

وعلى أية حال، فلكي نظفر بإعادة صياغة التحليل النفسي صياغة تكفل له أن يقف في صف واحد مع المعلومات الأخرى التي عن الطبيعة

البشرية، فيجب أولا، أن نلخص تاريخ التحليل النفسي ونموه، ثم نبدأ عملية تقدير الفروض المختلفة، والنتائج الداخلة في نطاقها بطريقة عادية، على أن يتم هذا في مجال النظرة العامة التي نسعى لإيجادها".

أما فيما يتصل بالنتائج العملية للحركة، فإن خصما عنيداً مثل "دنلاب" اعترف بأن "النتيجة النهائية للحركة الفرويدية يحتمل أن تكون مفيدة رغم أن التأثير العاجل سيكون خداع عدد كبير من الناس، وتعطيل البحوث السيكولوجية مؤقتاً؛ وكما أن علم الشفاء بالإيمان زاد في سرعة تقدم الطب العلمي زيادة كبيرة، فكذلك سيفعل التحليل النفسي، إذ يضطر علم النفس إلى أن ينظم بيته، ومن ثم يساعد على صقل علم النفس العلمي الذي يهدف التحليل إلى طرحه جانباً".

وعبارة "تنظيم بيت علم النفس" أكثر من عبارة لبقة؛ فهي تدل على مهمة نشيطة؛ فإن الغزو الفرويدي أكره الأنظار على أن تتجه إلى المشكلات الحيوية للبواعث، والشخصية؛ تلك المشكلات التي كانت بعيدة عن متناول أوجه الاهتمام التجريبية المبكرة؛ ومع ذلك فإن علم النفس كان يسير مستقلا في طريقه لاستكمال أهدافه. ومن الجائز أن فرويد حفزه، وأثاره، ودفعه إلى الأمام، أو رده إلى الخلف. وعلى أية حال فإنك لن تجد في كل القصة الأكاديمية لعلم العقل سيرة أكثر إثارة من تلك التي اقترنت باسم فرويد.

ولعل هذا الاقتباس المنتقى يكفينا لتوضيح الاختلاف الحاد في داخل صفوف علم النفس، وما يتصل به من علوم، وليبين أيضاً ظهور

المزاج الانتقادي في تقدير ما أنطوت عليه المدركات الفرويدية من صواب وعدوان مما يبدو لي كأنه يؤكد انتشار عدم الثقة، ويعزز الرفض، ويشير إلى سرعة تدهور حركة التحليل النفسي، رغم ما لقيه من نجاح.

وإني لأعرف حق المعرفة، أن الفرويديين سيقرؤون هذه العبارة، ويفسرونها كلها تفسيراً آخر، رغم أنهم نادراً ما يتخلون عن مهمتهم المفضلة، وهي إضافة تفسيرات ضعيفة إلى فروض، ونظريات لم تختبر، ولم تحقق بعد. فهم لا يتخلون عن هذه المهمة المحبوبة منهم، إلا ليزاولوا أخرى تتساوى معها في الظفر بغرامهم، والإفراط في التأمل بغية نمو مجموعة مؤلفاتهم: ثم التحدث في ثقة، وإيمان، وإصدار التعليمات إلى غير المطلعين. وإذا ما نظرنا إليهم، وهم في أحسن أوضاعهم، رأيناهم يتجاهلون أمر الثائرين عليهم، والمناوئين لهم؛ فإن ذكروهم هزوا أكتافهم بشكل لا ندري معناه؛ وأنه لمن واجبنا أن نذكرهم في حزم وتسامح– ولا ننتظر منهم مثيله– بأن موقفهم ليس إلا موقف دفاع. وأن أزمة التحليل النفسي يمكن أن تواجه بموقف واحد، هو الاعتراف باحتجاجات النقاد الذين يعطفون عليهم، وتمييز مداها وقوتها: فإن التحليل النفسي يجب أن يسير في صفوف علم النفس وطب الأمراض النفسية. وإلا فإنه يغامر بابتعاده عن تيارات التقدم.

المستقبل

تتجمع علامات الزمان وتسجل حكمها علناً بحروف بارزة: وليس في وسع الحكم النهائي إلا أن يتأثر بحالات العدوان على النواحي

الأساسية في علم النفس، وعلى قواعد المنطق، في مختلف مراحل البناء من أساسه إلى نهايته. وإذا ما فحصنا البيت الذي بناه فرويد على هذا الضوء، فإننا نجده مشيداً على الرمال، وبالأسمنت القابل للتفتت. ومن عملوا على رفع مستوى علم النفس، من نظام غير ثابت إلى مكانة مضمونة بين العلوم، يقولون إن بيت الخيال، والأساطير، والأحلام لن يجد في المستقبل مكاناً لنفسه في مملكة علم النفس.

ولو استقر هذا الحكم وساد، لكان مصير محاولتي للتنبؤ عن مصير الفرويدية ومستقبلها: هو لاشيء؛ كنبوات كثيرين، إذ أن التحليل النفسي سيعلن طريداً من القانون ودعياً، مغتصباً: وعندما يخبو السعير الذي أشغله، فلن يكون لسيادته من أثر في الأيام التالية. وإذا صح هذا القرار، وصار نهائياً. لكانت الفرويدية أروع الأوهام في عصر ساده العلم، ولكانت سراباً حديثاً بين مهن الإنسان الكثيرة التي تستشف الأشياء بوضوح.

وإني لأؤمن بأن النتيجة ستكون مخالفة لما قالوا. وأعتقد أنه من الممكن إنقاذ ما له قيمة في هذا البحث الواسع، الشامل للإنسان، وأعماله من زاوية جديدة. وفي كل الحركات الذهنية المماثلة في الماضي، لا أجد حركة واحدة تضارع الحركة الفرويدية؛ فعلم الفراسة خبا، واندثر بعد لمعة خاطفة. والواقع أنه لم يعش البتة؛ فلا مجال لمثله في عالم طبع عقله بالطابع العلمي. ولم يبق من أثر "للمغناطيسية الحيوانية"، سواء في التنويم المغناطيسي، أو في الإيحاء، أو في

التفكيك. وهذا يصدق أيضاً في مسألة علاج الداء بمسبباته التي اندثر كل أثر لها من الطب الحديث.

ومثل هذه الحركات ليست مجرد وسائل تؤدي إلى غيرها. بل هي منعرجات تافهة تنحرف بنا عن الطريق السوي. والتاريخ حافل بمثلها، ومسار الإنسان في الإدارة، وفي المعرفة لا يلتزم طريقاً مستقيما، بل أن طريق النجاح كثير الانحرافات، والتعرجات، والاضطرابات. واعترف بأن ما أتوقعه ليس له من مثيل سابق، ولكن مكانة الفرويدية فريدة أيضاً من عدة أوجه، وعلى ذلك، فاعتقادي أن مصيرها سيكون فريداً كذلك.

وفي تحليلي للفرويدية، ظهر أنها تحمل علامات تقدم أصيل، وبصيرة صادقة. وهي تبدو لي فكرة عظيمة تحولت إلى وهم ضخم نشأ عن طريق اختلاف الصفات والمواهب للعقل الذي تولى القيادة في ابتكار المشروع. ولقد أحسست بهذه الأهمية الكامنة في لب التحليل النفسي ومجراه، فقلت من ١٥ سنة إنه اكتشاف عظيم توصل إليه غير من كان يجب أن يكتشفه.

ويصلح الأساس الذي أقمت عليه هذه النتيجة تطبيقاً هاماً لاكتشاف سيكولوجي، هو عدم المساواة في نمو قوى العقل الابتكارية، وقواه النقدية الفاحصة. وهي حالة تتفق مع عمليات توزيع الكفايات الخاصة الممتازة التي صارت حاسمة في عصر اتسم بالتخصص. أن العقول الجبارة قادرة، ولاشك، على أداء الكثير في عدة مجالات؛ ولكن هذه القدرة مقصورة على فئة قليلة.

ولو أجرينا عملية تبادل في المهن بين المبتكرين والنقاد، لكانت النتيجة كارثة تحل بالمسائل الذهنية، لأن كلا من الفريقين سيعجز كل العجز عندما يحاول أن يؤدي عمل الفريق الآخر: ومع ذلك فكل من الفريقين بحاجة إلى مواهب ممتازة. وهذا قول حق معترف به على وجه التحديد. أما في عقلية فرويد فإن عدم التكافؤ في نمو الملكتين المطلوبتين، يصل إلى أقصى مداه.

ويقودني هذا إلى نتيجة غريبة، وهي أن "التحليل النفسي" نشأ بتدبير غير هين من الكروموزومات[٤١] والتقاليد الذهنية لنمسوي لامع؛ فجعله ذا قدرة ابتكارية بالغة، كما جرده من الملكة الانتقادية كل التجريد. ويحلق شبح الكوارث عندما يتولى عقل ابتكاري فقط مهمة تحتاج إلى بصيرة ابتداعية نافذة لتدرك أسرار هذه المهمة، ولتضع لها ما ينبغي من خطط، فإن هذه المهمة في تنفيذها تحتاج أيضاً إلى قدرة مماثلة على النقد والفحص الدقيقين، ولعله مما يساعدنا على تقدير الموقف أن نتخيل حالة مماثلة؛ فنتصور ما كانت تؤول إليه نظرية التطور مثلا، لو أن عقلية داروين الابتكارية كانت جريئة في تأملاتها، وشديدة الضعف في النقد، ودقة الفحص.

وأيا كان مصدر الاختلاف، فإن تأثيره بشأن قبول آراء فرويد كان بارزاً؛ فالعقل هو العقل بكل ما يحوي من متناقضات كما أن الإنسان هو

(٤١) Chromosomes "الكروموزومات": جسيمات تشترك في عملية انقسام الحلية الملفحة. ويقال أنها تحمل الوراثيات Genes التي بها السمات الوراثية (المترجم).

الإنسان بكل ما به من اختلافات. وقد تثبت الأيام خطأ ما أتوقع- من إنقاذ القيم الجوهرية التي في التحليل النفسي، وإصلاح ما في مدركاته من أخطاء- لغير السبب الذي ذكرته؛ وهو أن خطط فرويد ستدرج في زوايا النسيان. فمن الجائز أن ننقذ القيم لسبب مضاد: وهو الترحيب بالمشروع من أجل قيمته الذاتية فنغفر له أخطاءه وننساها.

وهذا هو رأي "ستيفان زفايج[٤٢]". وقد رسم لفرويد صورة قلبية تعرب عن تقدير طيب من صديق معجب. وهو يعد ظهور فرويد تحقيقاً لنبوءة، فيردد عبارة "شيلر" التي لا تنطوي على إشارة محدودة حين قال "لو ظهر في العالم لينايوس[٤٣] جديد ليصنف الدوافع والميول، فإنه سيقدم للبشرية مفاجأة ضخمة"، أو قول "نيتشه" الذي لا يقل غموضاً: "كل ما هو عميق يغشاه الغموض". ويثق زفايج من أن النهضة التي استحدثها فرويد ستكون محل التقدير والاعتبار في شتى العصور؛ "فإن اكتشافات فرويد عن القوى المحركة للعقل، واستنباطه لطريقة جديدة في الفحص، وتمييزه للاشعور، كلها من عمل عبقرية فذة". وهذا في رأي "زفايج" يؤكد مستقبل فرويد. فإن صح هذا "فما قيمة التفاصيل بعدئذ؟".

أما أنا فأرى أن التفاصيل كبيرة القيمة، وقد كانت هامة للغاية "لداروين" حتى أنها شغلته طول حياته. فهي أثر من آثار السعي وراء

---

(٤٢) Stefan Zweig في كتابه "معالجو العقل" Mental Healer الذي صدر في عام ١٩٣٢. وهو نظرة تقدير كبيرة لفرويد في شخصه وأعماله. (المؤلف).

(٤٣) Linnaeus كارل فون لينايوس عالم سويدي عاش من سنة ١٧٠٧ إلى ١٧٧٨، واشتهر بتصنيفه لأنواع النبات وتبويبها وفقاً أعضائها التناسلية. وقد كان لعمله في هذا المجال أهمية كبيرة في دراسة النبات (المترجم).

فكرة جبارة من حيث الفحص والنقد. وتؤثر في هذا المجال أن نعرض خلاصة ما قاله الكاتب "ولز" وما كتبه "هكسلىوولز" إذ قالا "إن اسم سيجموند فرويد هام في تاريخ الفكر البشري أهمية اسم كشارلس داروين"؛ ولكنهما أدركا أن مجال إسهامه يجب أن يتجه إلى ناحية أخرى لأسباب يعتبر كتابي هذا تعبيراً عنها.

ويقول مؤلفو كتاب "علم الحياة": يجب أن لا يفهم نقدنا على أنه من قبيل التقليل من أعمال الفرويدويين أو الحط من شأن فرويد..." وتنبأوا بقولهم "إننا نتوقع واثقين، أنه بعد مرور ربع قرن من الزمان ستضم المنازعات بين أنصار فرويد ويونج من وآدلر وغيرهم من أصحاب المذاهب النفسية إلى سجلات التاريخ العلمي... فإن كل فريق يسهم بنصيبه للوصول إلى حقيقة. أما الباحثون النفسيون الأقل تحزباً فإنهم يقتبسون من كل من الباحثين المختلفي المشارب في مجال الدراسات النفسية. للوصول إلى إقامة نظرية أكثر ثباتاً واستقراراً.

وأيا كان الحكم الصادر بعدئذ. فالاهتمام السائد يتجه إلى إنقاذ القيم الفرويدية لترشدنا في تفكيرنا، وفي ممارستنا لمهنتنا، وفي محاولاتنا تتبع فرويد باستمرار، ودراسته في مجموعة. يسرنا أن نسجل أن ما رفع فرويد إلى مصاف أساطين علم النفس في شتى العصور، هو إدراكه لمجموع النشاط النفسي البشري، ونظمه في مجال موحد من البواعث النفسية.

وكان من الجائز أن تصير هذه النظرية الدينامية الفعالة من المسائل الشائعة المتداولة بين الناس شيوع "الرغبة الفرويدية": فرغم أن الدراسات الحديثة تنطوي على هذا التصور، فإنا في حاجة إلى لفظ شامل يمتد مداه من الدافع إلى الخطة المنطقية المقبولة. ومبعث توجيه الاهتمام البالغ إلى الدافع– على ما به من غموض– هو أن ما به من توكيد بارز، يعد مكملا للاهتمام القديم بمسألة التفكير. وتوجيه الاهتمام إلى الدافع يحمل بين طياته أسبقية كل ما هو بدائي، وغريزي، وقديم، وعاطفي، ومبكر الظهور؛ والشعور به فج ناقص. ويلقى هذا الاهتمام الخاص عند الدوافع اللبيدية– ومركزه هو اللبيد الجنسي– في الجانب الانفعالي على "اللاشعور" في كل أوجه نشاطه الذهني.

وكما يجب علينا أن نسجل في الصورة الفرويدية محاسنها الجذابة، فإن الواجب يقضينا أيضاً أن نسجل الاتجاهات والأوضاع المشتركة المسئولية في أخطاء النظام كله، كالخطأ في فهم اللبيد، والتطرف في صبغه بالصبغة الجنسية، وأنواع سوء فهم أوجه نشاط اللاشعور، والزج بعلاقات نشوئية موجهة توجيها خاطئا، ثم الإخفاق في تتبع الاتجاهات البيولوجية. وهكذا تظهر سيكولوجية الدوافع الفرويدية، ولها نظرة أصيلة شاملة تضيء السبيل، وتلقي بضوئها على الإنسان، فتعرض النفس البشرية في جملتها كاملة من جديد، دينامية حيوية، لها دلالتها وأهميتها.

وهذه السيكولوجية تكمل عملية الانهماك في تفصيلات الناحية الذهنية، وتصحح قيود الدراسات السلوكية التي تعد منبهة وموقظة. وفي

الوظائف الأقل شأنا يسود العامل المنبه، ويقترح الاتجاهات: على حين أن الكائن نفسه هو الذي يتصرف. أما في الوظائف العليا، فإن زيادة تعقيدات "الرغبة" الدافعة هي التي تقرر السلوك الذي يجب إتباعه. وتظهر سيكولوجية الأهداف في دلالات الرغبة.

وتنظيم وجهة النظر الفرويدية كل أنواع السلوك في وظائف أولية، وأخرى ثانوية؛ فترى في صراعها مصدر عدم الانسجام سواء أكان قاسياً أو خفيفا؛ كما ترى في اتفاقها مفتاحا ودليلا يرشد إلى العلاج وإلى فن ضبط النفس. وهذه النظرة تتفق مع اتجاه علم نفس تكاملي ينشأ من اندماج نظامي الوظائف الذي يظهر بوضوح في مبدأي اللذة والواقع.

وتوجه النظرة الفرويدية أنوار هذا الضوء الموحد الكاشفة إلى منتجات النفس البشرية في ماضيها وحاضرها، وإلى الأعمال العرضية والهامة، في اللعب والعمل؛ فهي ترى في الشخصية البشرية في مجموعها- وفي المسرى العام الشامل للأعمال الإنسانية- تجسيما وتكبيرا للتصرف الأساسي لهذه القوى في الصراع وفي الإعلاء؛ فهي تقدم لنا مرشدا يدلنا على أشياء كثيرة كانت تظهر عديمة المعنى، وتعيد بناء تقديرنا فيما نعتبره هاما، وتفتح لنا باب الأمل في إدارة أكثر صراحة، وتحرراً، وحكمة مما ألفنا.

هذا هو البيت الدائم الذي بناه فرويد. ومع ذلك فإنه عندما وضع خطط مشروع بنائه، سحب منه الدعامات التي تسنده.

"يظهر لي أن النمو الحالي للجنس البشري لا يحتاج إلى أي تفسير يغاير ما ينطبق على الحيوان. فإن ما يظهر في أقلية من الأفراد كحافز قلق لمزيد من الكمال، يمكن فهمه كنتيجة لغرائز فاشلة بني عليها أسمى ما في الثقافة البشرية من قيم".

ومفاد هذا بالضبط، هو أن العوامل التي زودت الأوضاع الفرويدية، وجعلت لها أهمية، قد هبطت في منابعها: ومن ثم تبرأت من الإعلاء نفسه، وهو العامل الذي ييسر الثقافة: وصارت فلسفة فرويد التي أقامتها على دراسته الرائعة شيئا ميئوسا منه؛ وهو القائل "أن لب وجودنا يتكون من رغبات لا سبيل إلى تحقيقها، ومع ذلك لا يمكننا وقفها أو التخلص منها". وخضوعنا الشديد للدوافع. ولاسيما الجنسية منها، هو العقبة التي تعترض سبيلنا، فإذا أنكرنا ذلك أصبنا بالأمراض، وإذا ما تجنبناه حلقنا في عالم الأوهام.

وفلسفة أي إنسان ليست إلا نظرته الخاصة إلى الحياة من حيث محنها وآمالها. ولعل "فرويد المستقبل" يبني فلسفة إعلاء على مثل هذا الأساس نفسه، ويضع برنامجا لإطلاق العواطف المكبوتة عن طريق إيمان أقوى بالأهداف. وتكامل الدوافع النفسية. ولقد تغلغل التحليل النفسي حتى صار مفتاح المزاج الحديث. ومرشداً للفلسفة. وتأثير فرويد يمتد إلى مدى بعيد ويصل إلى حدود الفكر السائد.

ولقد تورطت الحركة الفرويدية في موقفها الحاضر لعدم تعاونها مع غيرها، وبسبب عزلتها، وتجاهلها لغيرها من العاملين في حقول علم

النفس؛ ولهذا ظهرت العراقيل في طريق الاعتراف بأفضل ما قدمه التحليل النفسي من آراء ودراسات. وهذا الموقف يجعل إجراء عملية إنقاذ وترميم أمرا لابد منه؛ ولا يجوز أن تقتصر العملية على تصحيحات الفرويدين المحدثين، بل تمتد إلى حركة جديدة لما "بعد الفرويدية" وفيها نحتاج إلى تفسيرات حديثة. ومن الجائز في هذا السبيل أن ننتظر ظهور عقلية جبارة كعقلية فرويد، ولكن هذه العقلية يجب أن تكون من طراز آخر حتى يتيسر لها إنجاز مهمتها.

وتغري الطريقة الفرويدية ومزاجها بتفسير الأمور تفسيراً تحكمياً مغرضاً، ولهذا السبب فإن إصلاحها قد يتحقق بالتزام الحذر، وببصيرة محايدة لا تعرف التحزب. ولسوء الحظ فإنك نادراً ما تعثر على هذين العاملين في سجلات الحركة الفرويدية الميالة إلى النزاع والخصام. ومن المتعذر في هذه الأيام على أية حركة مثلها أن تبدأ في أداء رسالتها بتجاهل النتائج المقنعة الراسخة التي وصل إليها الباحثون التقدميون في طب الأمراض النفسية وعلم النفس. وأقاموها على دراسات الخبرة العيادية في دراسة أقل تحزباً وأكثر خلواً من الهوى.

وكان علماء النفس وأطباؤها مستعدين للسير وفقاً لما يجب أن نسميه الآن بالخطوط الفرويدية، ووجدوا فيها ما نبههم وأيقظهم مما سيظل معروفاً في تاريخ الحقائق باسم النهضة الفرويدية. ويتوقف مستقبل فرويد على احتضان أطباء الأمراض النفسية والسيكولوجيين المسئولين للآراء الهامة التي تعد من مفاتيح المواقف، وذلك بعد تجريدها من

التضمينات المبالغ فيها، والتأملات والأوهام التي جعلتها غامضة ومنكرة. والواقع أن الوصول إلى تعاليم فرويدية سليمة مأمونة، ليس فقط من الأمور الممكنة الحدوث، بل أنه أمر حتمي.

وقد تتخلى المزاج الفرويدي عن أحد المبادئ الهامة من تعاليمه. وهو الإعلام، القائل بأن التوجيه الحكيم للدوافع الفطرية وإصلاحها يتألف من توجهها إلى أعمال نافعة إنشائية، كما يتألف من تهذيبها وصقلها. ومعنى هذا من الناحية الفسيولوجية: هو تفريغ طاقة عضوية وضيعة في منافذ سيكولوجية سامية أجيد تنظيمها. ومن الشروط التي يجب توافرها في الطبيب النفسي أكثر من أي ممارس لأية مهنة طبية أخرى أن يكون إنسانياً. والمبادئ الإنسانية والمبادئ السحرية لا يتلاءمان.

ويبين تاريخ علم النفس بوضوح تام أن التخمينات المغرضة كانت تحمل أكفانها معها، وأن الباحثين النفسيين أقاموا معبودهم في محراب العلم، وتصوروه على صورتهم ومثالهم. ومهما كان النقص والقصور في بصيرة الإنسان، فليس في وسعه إلا ان يرى نفسه في وضعه الصحيح، ويراها في مجموعها. وما نعرفه عن النفس البشرية ليس إلا شيئاً أبتر، فنحس بالدافع الملح لإعادتها إلى ما كانت عليه من الكمال البشري.

ومهما كانت أطماع المحاولة الفرويدية، ومدى نقصها وبعدها عن المنطق، فإنها كانت تعبر عن دافع يبغي كمال الفهم مما يرجع عهد التفكير فيه إلى أولى الفترات العظيمة لليقظة الذهنية، وإلى القول

المأثور: "أيها الإنسان أعرف نفسك!". وشتان بين الأكاديميات التي كانت قائمة في أحراش أثينا القديمة، وبين عيادات التحليل النفسي في فينا. وإنا لنتساءل عن مدى ما قدمه المزاج الفرويدي من تنظيم وترتيب للعالم البشري، ومدى ما عمله لزيادة القيم البشرية وتوضيحها. أو لتحريفها وتشويهها... كل هذه أسئلة ذات أهمية كبيرة للأجيال القادمة.

وإذا ما واجه مؤرخ علم النفس في المستقبل "نظريات الفرويدية وتطبيقاتها" فإنه قد يعتبر الجانب الأكبر من جملة التحليل النفسي في الوقت الحاضر من أغرب أنواع الشذوذ والشرود الخيالية التي ظهرت في مطلع القرن العشرين، فإن كان متسامحاً، فيحتمل أن يجد في الحركة ذاتها لحظة ممتازة حقاً في محاولة فهم ذلك اللغز المقيم الدائم: لغز النفس البشرية.

أما عن رأي فرويد نفسه في بنائه، فقد ضمنه العبارة التالية، وهي الختام المتواضع لكتابه عن تاريخ حياته، إذ قال:

"وإن ما تلفت ورائي، وألقيت نظرة على عملي المرقع الذي أمضيت فيه حياتي، فإني أستطيع أن أقول إني بدأت عدة مرات، ونبذت كثيراً من الآراء. وسيؤدي عملي هذا إلى شيء في المستقبل، ولكني لا استطيع أن أقول إن كان هذا الشيء سيكون كبيراً أم صغيراً".

أما عبارة فرويد التي أضفت عليَّ أكبر قدر من الغبطة، فقد احتفظت بها لتكون مسك الختام وهي قوله:

"ولعل بعضهم يسألني عن مدى اقتناعي بصحة الفروض التي قدمتها هنا، وجوابي على هذا إني أنا نفسي غير مقتنع بها، ولا اطلب من الآخرين أن يؤمنوا بها. وبعبارة أفضل فإني لا أعرف مدى إيماني بها".



الفهرس